التاريخ
الرقم

مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق

غوطة دمشق

تأليف

محمد كرد علي

حقوق الطبع محفوظة للمجمع العلمي العربي

١٣٦٨ مطبعة الترقي بدمشق ١٩٤٩

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب الغوطة

ليس من السهل التوسع في الكلام على زراعة الغوطة وطبيعتها وتاريخها لأن القدماء قلما كان يعنيهم ما يعنينا اليوم من أمر البلدان ، ولذلك لم يؤثر عنهم غير جمل قليلة لا توفي الغرض كله ، وما وصلنا من المصادر اكثر مماوردفي الثبت الذي اوردناه بعد هذا .

صورنا الغوطة بما وقفنا عليه من النصوص تصويراً مقارباً ، ونحن على يقين ان وراء مارسمنا اشياء كثيرة ، لو قيض لنا الظفر بها لانتظمت بها السلسلة المفقودة واتصل السند الضائع .

ولولا ان جمع ابن عساكر صاحب تاريخ دمشق ما تيسر له جمعه بالعرض من اخبار القرن السادس وما قبله من القرون ، واقتبس جانباً مما دونه ابن المهنا الداراني في تاريخ داريا ، وابن أبي العجائز في تسمية من كان بدمشق وغوطتها من بني أمية ، ومما دون السميساطي في كتاب الديرة ، ولولا ان جاء ياقوت في القرن

السابع وعرض في معجم البلدان لاكثر قرى الغوطة ومن خرج منها من المحدثين ، ولولا عناية شيخ الربوة في كتاب عجائب البر والبحر وتفرده باشياء في الكلام عن الغوطة ، ولولا رسائل ابن عبد الهادي في بعض خطط دمشق في القرن التاسع ، ولولا ما دونه ابن طولون الصالحي من اسماء قرى دمشق في القرن العاشر ، ولولا معلومات وردت بالعرض لمؤرخين دمشقيين على الاكثر كابن القلانسي والقرماني والظاهري وابي شامة والذهبي وابن خلكان وابن فضل الله العمري والصفدي وابن العماد ، لولا هؤلاء المؤلفين ما استطعنا ان نجري في هـذا الطريق اللاحب شوطاً ، ولا ان نوفي من شروط التأليف شرطاً .

قد يقول بعضهم ان الضياع في العالم كثيرة ، وهل الغوطة الا مجموعة ضياع فما الذي ميزها عن غيرها حتى استحقت ان تفرد بالتأليف ؟ ثم يزعم لها هذا الجمال ، والجمال قد يكون في الصحارى والبوادي ، فالجواب ان الغوطة امتازت بخصائص كثيرة تفرقت في البقاع على ما تلمسه وتحسه فيما ستقرأه في هذه الباكورة .

ولقد اغتبطنا بما عثرنا عليه من شعر تجلى لنا به بعض غوامض

موضوعنا ، وهذ الشعر في الواقع جزء من ادبنا القومي يجب ان نتدارسه ولا ننساه .

وعلى كثرة ما حرصنا عليه من الاحتكاك بابناء الغوطة للوقوف على ما سكتت عنه الدفاتر مما له علاقة بحاضرها وغابرها بقيت أمور ربما اهتدى اليها الباحثون بعدنا والله الهادي .

جمرين (غوطة دمشق) ١٧ شوال ١٣٦٨
و ١١ آب ١٩٤٩

محمد كرد علي

مصادر الكتاب

المطرقات

١ — تاريخ دمشق لابن عساكر المتوفى سنة (٥٧١)

٢ — تاريخ داريا لابن أبي الهيثم الداراني

٣ — الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني (٨٥٢)

٤ — الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوي (٩٠٢)

٥ — الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة للنجم الغزي (١٠٦١)

٦ — ذيل لطف السمر له

٧ — عنصر الخوصة في الخوصة لابن طولون الصالحي (٩٠٣)

٨ — دهار العصر في تراجم نبلاء العصر له

٩ — الذيل على الروضتين لأبي شامة (٦٦٥)

١٠ — تاريخ الصاحبية لمحمد بن كنان (١١٥٣)

١١ — الجيوب والأخبار للأسدي (القرن التاسع)

١٢ — تحفة الشام للبوريني (١٠٢٤)

١٣ — الإشارات إلى معرفة الزيارات لعلي بن أبي بكر الهروي (٦١١)

١٤ — الفارض للعيني (٩٢٧)

١٥ — الإشارات إلى أماكن الزيارات لأحمد الصباغ وذيله بتراجم بعض المشاهير من كتاب الزيارات لمحمود العدوي

١٦ — الإطلاع في فضائل الشام لأحمد الحلبي (١١٧٢)

١٧ — كتاب الديارات للشابشتي (٣٨٨)

١٨ — عجائب الامصار لابن اياس (٩٣٠)

١٩ — غدق الافكار في ذكر الابهار ليوسف بن عبد الهادي (٩٠٩)

٢٠ — نثار القلائد في ذكر المساجد له

٢١ — تاريخ الصالحية له

٢٢ — الامانات في معرفة الخانات له

٢٣ — عدة الثقات في تعداد الخانات له

٢٤ — مذكرات يومية مجهول مؤلفها كتبت من سنة ٨٨٥ الى ٩٠٨ بخطوط ١٥ ورقة بين سنة ٩١٠ و ٩١٤

٢٥ — حوادث يومية من سنة ٩٨٥ الى ١٠٠٦

٢٦ — التذكرة الكمالية لكمال الدين الغزي (١٢١٤)

٢٧ — ديوان الصانع والأنوار الواقع لمحمد الحافظ النجار (القرن الثاني عشر)

٢٨ — كناش الحاسبي (١١٨٧)

٢٩ — التمهيد فيما يجب فيه التحديد لعلي بن عبد الكافي السبكي (٧٥٦)

٣٠ — الأخلاق الحطابة لابن شداد (٦٨٤)

٣١ — الروضة الزاهرة فيمن دفن بداريا لعبد الرحمن العادي (١٠٠٥)

٣٢ — المدبجات لعبد الباسط الجليالي (رسائل الثلة السابقة)

٣٣ — ديوان ابن يعيش (٤٢٣)

٣٤ — ديوان ابن عنين (٦٣٠)

٣٥ — تعليقات في القرى المتاخمة دمشق أو التي اندمجت فيها لمحمد احمد دهمان

٣٦ — عدا الوثائق والصكوك

المطبوعات

٣٧ — كتاب وقف عثمان بن المنجا (٦٤١) بتعليق صلاح الدين المنجد
٣٨ — معجم البلدان لياقوت الحموي (٦٢٦) (ليبسيك)
٣٩ — معجم الأدباء له (القاهرة)
٤٠ — المشترك وضعاً والمختلف صقعاً له أيضاً (ليدن)
٤١ — معجم ما استعجم للبكري (٤٨٣) (غوتا)
٤٢ — معجم الشعراء للمرزباني (القاهرة)
٤٣ — قاموس الكتاب المقدس ليوست (١٩٠٩) (بيروت)
٤٤ — نخبة الدهر لشيخ الربوة (٧٢٨) (بطرسبرج)
٤٥ — زبدة كشف الممالك لخليل بن شاهين الظاهري (٨٧٢) (باريز)
٤٦ — المسالك والممالك لابن حوقل (اواسط القرن الرابع) (ليدن)
٤٧ — احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي البشاري (بعد سنة ٣٧٥) (ليدن)
٤٨ — مسالك الممالك لابن خرداذبة (في حدود سنة ٣٠٠) (ليدن)
٤٩ — كتاب البلدان لابن الفقيه (القرن الثالث) (ليدن)
٥٠ — فتوح البلدان للبلاذري (٢٧٩) (ليدن)
٥١ — أنساب الاشراف له (القدس)
٥٢ — النجوم الزاهرة لابن تغري بردي (٨٧٤) (القاهرة)
٥٣ — أخبار الدول للقرماني (١٠١٩) (القاهرة)
٥٤ — مراصد الاطلاع لعبد المؤمن بن عبد الحق (٧٣٠) (ليدن)
٥٥ — كتاب الروضتين لأبي شامة (٦٦٥) (القاهرة)
٥٦ — الانساب للسمعاني (٥٦٣) (لندن)
٥٧ — يتيمة الدهر للثعالبي (٤٢٩) (دمشق)
٥٨ — المشتبه في أسماء الرجال للذهبي (٧٤٨) (ليدن)

٥٩ — اب اللباب في تحرير الأنساب للسيوطي (٩١١) (ليدن)
٦٠ — تاريخ اليعقوبي (٢٧٨) (ليدن)
٦١ — صفة جزيرة العرب للهمداني (٣٣٤) (ليدن)
٦٢ — نزهة المشتاق للادريسي (٥٦٠) (رومية)
٦٣ — المنتظم لابن الجوزي (٥٩٧) (القاهرة)
٦٤ - صيد الخاطر له (″)
٦٥ — فتوح الشام للازدي (١٧٨) (كلكته)
٦٦ — ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي (عشر التسعين والاربعمائة) (بيروت)
٦٧ — تاريخ بيروت لصالح بن يحيى (اواسط القرن التاسع) (بيروت)
٦٨ — وفيات الأعيان لابن خلكان (٧٦١) (القاهرة)
٦٩ - فوات الوفيات للصلاح الكتبي (٧٦٤) (القاهرة)
٧٠ — تهذيب الأسماء للنووي (٦٧٦) (غوتا)
٧١ — أنساب العرب للقلقشندي (٨٢١) (بغداد)
٧٢ — صبح الأعشى له (القاهرة)
٧٣ — رحلة ابن جبير (٦١٤) ليدن
٧٤ — رحلة ابن بطوطة (٧٧٧) (القاهرة)
٧٥ — مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري (٧٤٩) (القاهرة)
٧٦ — التعريف بالمصطلح الشريف له (القاهرة)
٧٧ — تمييز نوعي المثنيين للمحبي (١١١١) (دمشق)
٧٨ — القاموس المحيط للفيروزابادي (٨١٧) (القاهرة)
٧٩ — تاج العروس للزبيدي (١٢٠٥) (القاهرة)
٨٠ — معجم الألفاظ الزراعية لمصطفى الشهابي (دمشق)
٨١ — ديوان حسان بن ثابت (٥٤) (ليدن)
٨٢ — ديوان الأخطل (٩٠) (بيروت)
٨٣ — ديوان ابن قيس الرقيات (نحو سنة ٨٥) (فينا)

٨٤ – ديوان الوليد بن يزيد (١٢٦) (دمشق)
٨٥ – ديوان الحماسة لابي تمام (٢٣١) (القاهرة)
٨٦ – الشعر والشعراء لابن قتيبة (٢٧٦) (القاهرة)
٨٧ – عيون الاخبار له (القاهرة)
٨٨ – ديوان البحتري (٢٨٤) (الاستانة)
٨٩ – ديوان كشاجم (٣٦٠) (بيروت)
٩٠ – ديوان ابن الخياط (٧١٧) (بيروت)
٩١ – ديوان ابن الساعاتي (٦٠٤) (بيروت)
٩٢ – ديوان التلعفري (٦٧٥) (بيروت)
٩٣ – خطط الشام للمؤلف (دمشق)
٩٤ – دمشق مدينة السحر والشعر له (القاهرة)
٩٥ – مجلة المشرق (بيروت)
٩٦ – مجلة المقتبس (القاهرة ودمشق)
٩٧ – مجلة المجمع العلمي العربي (دمشق)
٩٨ – جهانما لكاتب چلبي (من اهل القرن الحادي عشر) (بالتركية) (الاستانة)
٩٩ – قاموس الاعلام لشمس الدين سامي (بالتركية) (الاستانة)
١٠٠ – تاريخ جودت (بالتركية) (الاستانة)
١٠١ – طوبوغرافية تاريخية لسورية في الاعصر القديمة والقرون الوسطى لدسو (بالفرنسية) (باريز)

Dussaud : Topographie historique de la Syrie antique et médiévale (Paris)

١٠٢ – معلمة الاسلام (مادة غوطة ، بردى ، دير مران ، قاسيون ، دمشق وغيرها (ليدن)

Encyclopédie de l'Islam (article : Ghuta, Barada, Deir Murran , Qassiun, Damas etc.)

الفصل الأول

حدود الغوطة

اشتق اسم الغوطة من الغائط ، ومعنى الغائط المطمئن من الارض وجمعه غيطان وأغواط . وقال ابن الاعرابي : الغوطة مجمع النبات .

وورد اسم الغوطة بلفظ التثنية في الشعر القديم والحديث قال ابو المطاع بن حمدان :

سقى الله أرض (الغوطتين) وأهلها ... فلي بجنوب (الغوطتين) شجون
وما ذقت طعم الماء الا استخفني ... الى (بردى) و (النيربين) حنين

وممن ثنى الغوطة ابو نواس الحسن بن هاني بقوله :

يؤمن أرض (الغوطتين) كأنما ... لها عند أهل (الغوطتين) نذور

وثناها ابن عُنين بقوله :

ولاحت قصور (الغوطتين) كأنها ... سفائن في بحر يعب عبابه

وقال :

وأيام دوح (الغوطتين) وظلها ... الظ لميل اذا صام الهجير وصمما

وقال رشيد بن النابلسي :

وحيا حواشي (الغوطتين) من الحيا ... ملث[1] اذا ما أبطأ الغيث أسرعا

(١) الملث المطر دام اياماً

وثناها ابن الساعاتي أيضاً فقال :

سقى الله عهد (النيربين) عهاده وعيشاً لنا (بالغوطتين) تصرما
فلم أر ظلاً سابغاً غير ظله ولم أر ورداً غيرها ينقع الظما
عروس حصان كل يوم زفافها من الدهر عيداً للسماح وموسما
له ركبت خيل الاماني مغيرةً وما ركبت الا لتغنى وتغنما

و(النيربان) واحدهما النيرب وهي قرية كانت على نصف فرسخ من دمشق تدخل في الغوطة قال ياقوت انها أنزه موضع رآه . وفي مراصد الاطلاع أن النيرب قد جاء في الشعر مثنى فلعل ياقوت فهم منه أن هناك موضعاً آخر وليس كذلك فان الشاعر قد ثنى الغوطتين وليس الا غوطة واحدة كما ثنوا (الغيضتين) .

قال ابن منير :

سقاها وروّى من (النيربين) الى (الغيضتين) و (حمورية)
الى (بيت لهيا) الى (برزة) دلاح[1] مكفكفة الاوعية .

ويقول المحبي ان النيربين موضعان من صالحية دمشق . والغيضتان غير معروفتين ، والغياض كثيرة .

ويظهر أن القدماء كانوا يقصدون بالغوطتين الغوطة الغربية والغوطة الشرقية وقال بعضهم الغوطتان الغوطة الشمالية والغوطة الجنوبية أو القبلية

(١) سحابة دلاح كثيرة الماء ، ج دُلح

وقيل انه كان يطلق على (الغوطة) اسم (البريص) . وقد ورد في شعر حسان بن ثابت يمدح بني غسان بقوله :

لله در عصابة نادمتهم يوماً (بجلّق) في الزمان الاول
أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية المعم المخول
يسقون من ورد (البريص) عليهم (بردى) يصفق بالرحيق السلسل

قال ياقوت وهذا يدل على أن البريص اسم الغوطة باجمعها ، ألا تراه نسب الأنهار الى البريص وقال يسقون ماء بردى وهو نهر دمشق من ورد البريص ، ورواية البلاذري في فتوح البلدان أن أبا عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد يوم فتح دمشق التقيا بالمقسلاط وهو موضع النحاسين وهو البريص الذي ذكره حسان بن ثابت في شعره حين يقول: يسقون من ورد البريص عليهم البيت ، ولا تعطي العبارة أن البريص هو بردى بل يفهم منها انه مكان آخر.

وأقدم نص ورد فيه اشارة الى تحديد الغوطة كتاب خالد بن الوليد لبني مَشجَعة ، وهو « هذا كتاب خالد بن الوليد لبني مشجعة أن لهم ساقية قُصم عذيها وسقيها وجلدها[1] عامر الأرض ماشرقيها ، وأن لاهل

(١) الجلد بالتحريك الارض الصلبة المستوية المتن ، ونظنها ما نطلق عليه اليوم اسم الحماد ويبدأ بعد مرج الغوطة . والعذي بفتح العين وكسرها الارض التي تسقى بالمطر .

الغوطة ما غربيها » وقُصم كما قال ياقوت موضع بالبادية قرب الشام من نواحي العراق مرّ به خالد بن الوليد رضي الله عنه لما سار من العراق الى الشام فصالحه به بنو مشجعة بن التيم بن النَّمر بن وبرة من قضاعة ثم منه الى تدمر . ولعلهم كانوا على سيف (بكسر السين) البادية ساحل الوادي ولكل ساحل سيف وبه فيما نحسب يفسر بيت نابغة بني شيبان في وصف الجامع الاموي بدمشق .

وقبة لا تكاد الطير تبلغها أعلى محاربها بالساج مسقوف
لها مصابيح فيها الزيت من ذهب يضيء من نورها (لبنان) و(السيف)

أي يضيء بها الساحل والداخل .

لم يحدد القدماء الغوطة ولم يعرفوها التعريف المطلوب . وقد قال المقدسي ان مساحتها مرحلة في مثلها[1] ، وقال القزويني : ان طولها مرحلتان في عرض مرحلة وقال ياقوت : ان استدارتها ثمانية عشر ميلا ، وقال شيخ الربوة : انها من حيّز دمشق ناحية يكون طولها ثلاثين ميلا وعرضها خمسة عشر ميلا ، وقال ابن طولون الصالحي ان

(١) المرحلة مسيرة يوم على الراكب بالسير المعتدل والميل مئة ألف اصبع إلا أربعة آلاف اصبع أو ثلاثة آلاف ذراع بحسب اختلافهم في الفرسخ هل هو تسعة آلاف ذراع بذراع القدماء أو اثنا عشر الف ذراع بذراع المحدثين . وعرفوا الفرسخ أنه ثلاثة اميال هاشمية أو اثنا عشر الف ذراع او عشرة آلاف والذراع ايضاً يختلف باختلاف الاقطار والامصار .

قرية زبدين آخر حدودها وهو صحيح ولم يذكر حدها من الشرق والغرب. وزعم ان (حران العواميد) من الغوطة وهي من قرى المرج وبينها وبين الغوطة أربع ساعات على الراكب . وهكذا عدها ياقوت وهو غير صواب والاولى أن يقال من مرج الغوطة[1] . وذكر البكري أن قرية دمر من الغوطة وعد الدو من الغوطة وقال انها تلقاء البضيع[2].

والظاهر ان القدماء قدروا الغوطة على هذه الصورة بحسب ما رآها كل واحد في عصره ، وكانت تتسع وتنقبض تبعاً للكائنات الأرضية والسماوية . فقد قال صديقنا العلامة دوسو ان الغوطة تطلق على الصقع الذي يروى حول دمشق بين الجبل والبحيرتين (بحيرة المرج وبحيرة الهيجانة) حيث تنصب فضلات الانهار وان

(١) خلط ابن طولون قرى الغوطة بقرى المرج ، ولم يفرق بين الاقليمين ، وغلطه في ذلك ظاهر ليس بحاجة الى دليل .

(٢) كذا البضيع مصغراً ويروى بالفتح في شعر حسان بن ثابت :

أسألت رسم الدار أم لم تسأل بين الجوابي فالبضيع فحومل

والبصيع بالصاد المهملة وقال انه جبل بالشام أسود . وجبل البضيع يعني جبل الكسوة المشرف على الغوطة هذا قول ياقوت . وروى في التاج عن الازهري انه رأى جبل البصيع وقال انه جبل قصير اسود بأرض البلينة فيما بين تسيل وذات الصنمين بالشام من كورة دمشق . قلنا وفي وسط الكسوة جبل يناوح جبل المانع اسمه المضيع (بالميم والضاد والياء المشددة) ولعله هو هو . والبصيع او البضيع هو ذاك الجبل الذي يقع في اول حوران .

الغوطة الآن اذا أُطلقت يراد بها الكورة التي فيها الحدائق والبساتين أي ان المرج غير داخل في الغوطة . وقال بعض القدماء ان الشام الثالثة الغوطة ومدينتها العظمى دمشق . وقال مرتين : الغوطة أريضة من اجلّ ما احدثت يد الطبيعة تسقها الانهار الكثيرة وتكسوها الخضرة . ويغشيها النبات الغض الموفور عرضها نحو ستين كيلومتراً ، وليس لهذا النجد البهيج من العلو الا ٧٣٠ متراً عن مساواة البحر . وقوله ان عرضها ستون كيلومتراً فيه نظر ولعله يريد طولها ولا يمكن ان يكون طولها كذلك ولو تجوزنا وادخلنا فيها المرج .

ويستنتج من كتب الجغرافيا والتاريخ ودواوين الشعراء وارباب الرحلات ومما اصطلح عليه القوم لعهدنا ان الغوطة هي كل ما احاط بدمشق من قرى شجراء ، وكان من الارض المطمئنة التي تروى من نهر بردى ، وما اشتق منه من الجداول والانهار الصغيرة أو القني ، وعلى هذا فحد الغوطة يبدأ غرباً من فوهة وادي الربوة فالمزة فداريا وينتهي بالجنوب بصحنايا والأشرفية وسبينه وسبينات وحوش الريحانية . ومن الشرق الريحان والشفونية وحوش مباركة وحوش الأشعري وحوش المتبن وحوش خرابو والفضالية والنشابية

وبيت نايم وينتهي في الشمال بجبلي قاسيون وسنير ، وسنير المعروف اليوم بجبل قلمون ويسمونه لهذا العهد أيضاً بجبل الحلو وهو فرع من فروع جبل لبنان الشرقي Anti - Liban والى ما بعد القرن السابع ما كان يطلق على هذين الجبلين الا اسم سنير وجبل الثلج ويشرف الجبل الاسود وجبل المانع على الغوطة من الجنوب ومن الشرق ارض المرج ، وهو اقليم متسع تبلغ مساحته ثلاثة اضعاف الغوطة وهو أيضاً في نجد منخفض من الأرض واشجاره قليلة وهو خاص بزراعة الحبوب في الشتاء والذرة في الصيف [1] .

---

(١) من القى رائد الطرف على الغوطة من جهة الشرق يرى انها تنتهي بالتربة السوداء ويبدأ المرج بالتربة البيضاء ، ولا تجود في قرى المرج الاشجار المثمرة لقرب المياه من سطح الارض ، وقد لاتعلو المياه عن المتر الواحد فتختنق جذور المشمش والجوز والزيتون وغيرها من الشجر المثمر لكثرة المياه وحرمانها التنفس والهواء ولا يجود فيها من الاشجار الا الدردار والدلب والصفصاف والخلاف والحور الفارسي والحموي والكينا (الاكالبتس) مما تنفعه المياه ولا تضره ، هذا مع مايزرع في اديمها من الحبوب . ولذلك احجم القدماء بعد التجربة على مارأينا عن تشجير ارض المرج وخصّت الغوطة وحدها بأشجارها الباسقة الجنية الثمار الازلية الاعمار . ورأينا الاشجار ترقد أو تركد كما يقول الغواطنة بعد السنة العاشرة في أرض المرج أي يقف نموها أو تيبس ولا تبلغ شجرة الجوز في أوتايا وقلايا وغيرها من قرى الحدود في خمس سنة ماتبلغه في ارض الغوطة في بضع سنين .

ويقدر طول الغوطة نحو عشرين كيلومتراً وعرضها يختلف بين ١٠ و ١٥ كيلومتراً تقريباً ، وقد تمت مساحتها في العهد الأخير فبلغت (٤٠٦٠٠) هكتار اي نحو خمسة وستين الف فدان والفدان ستة دونمات وكسر ، والدونم مبذر مد من الحنطة . والفدان ٥٧١٣ متراً مربعاً والدونم ٩١٩ متراً مربعاً . وتدخل مدينة دمشق في هذه المساحة .

الفصل الثاني

بساتين الغوطة وقراها

يقول ابن شداد ان الغوطة تشتمل على خمسة آلاف بستان وثلاثمائة وخمسة واربعين بستاناً وعلى خمسمائة وخمسين كرماً . وقال شيخ الربوة ان بساتين دمشق مائة واحد وعشرون الف بستان تسقى بماء واحد . وقال كاتب چلبي ان في الغوطة مائة وثلاثين الف بستان . وقال ابن اياس انها بساتين كلها . وهذا الوصف الأخير أقرب الى الحقيقة . ويصدق عليها هذه الأيام خاصة . وقد أكثر الغوطيون من غرس الأشجار فزادت بذلك بساتين دمشق زيادة تذكر . ولا يستبعد ان تبطل بعد نصف قرن معظم زراعة الحبوب وغيرها من الغوطة ويستعاض عنها بالأشجار المثمرة وغير المثمرة .

حدث أحد الشيوخ أنه كان في طفولته اذا وقف مع أهله أمام قبة سيدي أُبيّ ، على مقربة من سور البلد في الجنوب ، يرى قريتي جرمانا والمنيحة من بعيد ، وذلك لأن هذه الحدائق التي نراها اليوم تحجب النظر عن ان يسرح مئة متر كانت خالية من الشجر

فغدت اليوم غابات غبياء ، وأدرك الجيل الذي قبلنا ان قريتي الحديثة وبالا كانتا كقرى المرج تزرعان الحبوب والخيار والقنب فقط ، وأشجارها قليلة جداً ، وربما عدتا من المرج وهما لعهدنا من اكثر قرى الغوطة شجراً مختلفاً انواعه

ويقول الظاهري : وقيل ان في اقليم الغوطة ثلاثمائة قرية ونيفاً وبها مدن صغار وبلدان تشابه المدن . وقوله هذا دليل على أن الغوطة كانت عامرة جداً على عهد المماليك وأصابها الخراب زمن الترك العثمانيين ، فخرب معظم قراها وانضمت أرضها الى القرى المجاورة وابذعرَّ سكانها واضمحل عمرانها ، وما يشاهد من الدمن والتلال في أرجائها أصدق شاهد على ذلك . وربما كان في قول الظاهري بعض المبالغة في دعواه ان فيها أكثر من ثلاثمائة قرية ولا تبلغ هذا العدد فيما نحسب ولو ضممنا الى هذا العدد قرى المرجين .

وذكر ابن طولون الصالحي ان بالغوطة سبعين قرية وبعضها الآن دارس ولم يهتد الى تحديدها فنقل عن ابن شداد انها شرقي دمشق وشماليها وذكر قرى واقعة غربي دمشق وفي جنوبها وجنوبها الغربي وعدَّ من الغوطة قرى ليست منها مثل بيت نايم والبويضة وتل كردي وحرستا القنطرة والجديدة والعبادة وعذرا والسويداء ، وهذه من مزارع الجربا في المرج ، والبرية وتل الشعير وتل الذهب

وجربا وحزرما وحران العواميد والدوير والبحدلية والقيسا . وجميع هذه القرى ليست من الغوطة وقرى الغوطة اليوم ثنتان واربعون قرية أهمها من حيث وفرة السكان (دومة) حاضرة الغوطة الشمالية و (داريا) حاضرة الغوطة الجنوبية . ويزيد سكان دومة على ثمانية عشر الف نسمة وسكان داريا أقل من ذلك و (كفرسوسية) و (عربيل) و (جوبر) ثم تجيء (المزة) (وحرستا[1]) . أما سائر القرى فيختلف سكانها من بضع عشرات من الأنفس كالحديثة وبالا والافتريس والمحمدية الى بضع مئات ومنها ما يبلغ الألف والألفين والثلاثة والاربعة كجرمانا والقابون وبرزة وسقبا وحمورية وكفربطنا وجسرين والمنيحة وصحنايا وزملكا .

واليك أسماء قرى الغوطة بأجمعها :

(١) (دومة) (٢) (داريا) (٣) (عربيل) يقال لها اليوم (عربين) (٤) (جوبر) (٥) حرستا (٦) (كفرسوسية) (٧) المزة (٨) (مسرابا) (٩) (مديرة[2]) (١٠) (بيت سوا) (١١) (المحمدية) (١٢) (حمورية)

---

(١) رسمها صاحب القاموس هكذا : حرستى وقال انها بلدة بباب دمشق وأهلها الآن يلفظونها هكذا على لغة تميم بالامالة والنسبة اليها حرستاني وحرستاوي ويقولون اليوم حرستاني ويجمعونها على حراستة .

(٢) رسمت في الدارس مديرى .

(١٣) (كفربطنا) (١٤) (جسرين)(١٥) (الافتريس[١]) (١٦) (حزّة) (١٧) (زملكا[٢]) (١٨) (عين ترماء) (عين ترما) اليوم (١٩) (القابون) (٢٠) (برزة) (٢١) (الحديثة) (حديثة الجرش اليوم) (٢٢) (المنيحة) (المليحة اليوم) (٢٣) (بالا) (القديمة والحديثة) (٢٤) (زبدين) (٢٥) (البلاط[٣]) (٢٦) (الخيارة) (خيارة نوفل اليوم) (٢٧) (عقرباء) (عقربااليوم) (٢٨) (جرمانا[٤]) (٢٩) (ديربحدل[٥]) (٣٠) (قبر الست) (راوية بالأمس) (٣١) (سبينة[٦]) (٣٢) (سبينات) (٣٣) (حوش الريحانية) (٣٤) (حجيرة) (٣٥) (بيت سحم) (٣٦) (بيلا[٧])

(١) لم يذكر ياقوت في معجمه المنقع قرى عربيل وزبدين وعقرباء والخيارة وسبينة وسبينات وبيت ابيات والمحمدية والافتريس وذكر كثيراً من القرى التي دثرت مثل صنعاء وبيت الآبار وبيت ارانس وبيت أبيات الخ

(٢) يقال لها زملكا وزملكان رسمها صاحب القاموس زملكان بالنون وقال ان منها شيخه ابو المعالي

(٣) في التمهيد فيما يجب فيه التحديد ان القاضي الفاضل اشترى من الملك الناصر صلاح الدين قرية البلاط من الغوطة في العشرين من المحرم سنة اربع وثمانين وخمس مائة .

(٤) جَرْمانا وفي معجم البلدان لعلها جَرْمانس

(٥) ماندري ان كانت هذه هي القرية المعروفة بالبحدلية الى القرن الثامن فقد ذكرها ابن عبد الكافي على انها قرية من الغوطة .

(٦) في الدارس رسمت سبينة وسبينات بأل التعريف السبينة والسبينات

(٧) وقفت قرية بيبلا خطلجة بنت ابراهيم والدة فروخ شاه ابن شاه شاه ابن ايوب خلا مافيها من مساجد وطرق ومعابر وذلك سنة ٥٩٣ كما في كتاب التمهيد ويستدل من هذا انها كانت قرية عظيمة لانه كان فيها مساجد ومقابر .

(٣٧) (يلدا) (٣٨) (القدم) (٣٩) (الأشرفية[١]) (٤٠) (صحنايا) (٤١) (البويضاء) البويضة اليوم (٤٢) (بلاس) .

والنسبة الى هذه القرى هنا كالنسبة الى القرى عامة اختار لها القدماء والمحدثون ما سهل على النطق فيقولون في دوما الدوماني أو الدومي وفي حرستا حرستاني اوحرستاوي وينسبون الى بيت سوايت سواني والى عين ترماء عين ترمي واليوم يقولون في الجمع عنارمة والى المليحة مليحي ومليحاني والى برزة برزاوي والى عقرباء عقرباني .

واذا جمعت أيضاً هذه البساتين المحيطة بدمشق مثل بساتين الصالحية والربوة والمزة وباب السريجة والقنوات والميدان والشاغور والعنابة تألف منها بضع قرى .

ومن القرى ما كان على أبواب دمشق فدخل فيها كما دخلت فيها الارزة وسطرا ومقرا وغيرها على ما يجيء في باب قراها الدائرة . ومنها ما امتد الى ماوراء السور : الصالحية ، العقيبة ، ميدان الحصى ، الصفوانية . ومن القرى ما كان صغيراً منذ قرون فعظم واتسع مثل جسرين كانت بلدة فأصبحت اليوم قرية متوسطة . ومنها ما كان كبيراً فصغر مثل البويضة وزملكا وبلاس وعقرباء . قالوا ان البويضة بلدة كبيرة تحت بلدا قال في التاج والبويضاء

(١) يقول ابن المنجا ان الاشرفية من الضياع المستحدثة .

قرية بالقرب من دمشق الشام وأهلها مشهورون بالجود بها مات الملك الأمجد . والبحدلية قرية جامعة . وذكر صاحب نزهة المشتاق ان (بلاس) قرية كبيرة وقد قرنها حسان بن ثابت في الجاهلية بداريا منذ قال :

لمن الدار اقفرت بمغان بين شاطي اليرموك فالصمان
فالقريّات من (بلاس) (فداريا) (فسكاء) فالقصور الدواني

وسكاء كانت تعرف في القرن السابع بقصر سكا كما في كتاب التمهيد وهي ما زالت باقية وليست من قرى الغوطة .

كان في بعض قرى الغوطة اسماء تبدأ بكفر ، والكفر القرية بالسريانية ، ولم يبق منها الآن سوى كفر سوسية و كفر بطنا . واسماء بعض القرى سريانية محضة مثل برزة ومعناها بيت الأرز ، جرمانا ـ عظمى ، جسرين ـ جسور ، حجيرة ـ عرج ، حرستا ـ خشنة ، حزة ـ حُفَر ، داريا ـ دور ، زمَلْكا ـ رواق الملك ومصيفه أو سلاح الملك ، سبينة ـ مبتاعون ، سقبا ـ شيخ ، عربيل ـ غربال ، قابون ـ عمود ، كفر بطنا ـ قرية الجنين ، كفر سوسية ـ قرية الفرس ، مَدَيرَى أو مدبرة ـ طبقات البناء ، مسرابا ـ مشرب ، يلدا ـ ولد .

ومن أسمائها ما هو من أصل عربي مثل المنيحة ، المحمدية ، القدم ، عين ترما ، الحديثة ، الأشرفية ، البويضة أو البويضاء ، الخيارة ، البلاط .

ومن الاسماء ما كان أصله فارسياً أو يونانيا او عبرانيا (فافتريس) تحريف فاراتريس أي ضارب الأعداء ومبيدهم وهو من أسماء المشتري و (مقرا) من مكر اليونانية بمعنى المستطيلة ، (المزة) قيل عبرانية ، سميت على اسم حفيد عيسو ومعناها الخوف وقيل يونانية الاسم بمعنى التل او الربوة ، جوبر قيل من الفارسية من جويبار مسيل النهر العظيم .

وفي الغوطة اليوم أنهر تنسب لاحدى القرى دثرت القرية وبقي اسم نهرها مثل قناة دير بشر المارة بحوش بلاس ، تنسب الى بشر ابن مروان الأموي ومثل قناة بيت ارانس والقناة تمر بارض الشاغور ولا أثر لبيت ارانس ومنها نهر حُردان (بضم الحاء) نسبة لقرية كانت فوق قرية سقبا بقي اسم نهرها الى اليوم فقط يلفظونه بفتح الحاء.

وان ما نراه اليوم من تقارب بعض القرى من بعض برهان على اكتظاظ أرض الغوطة قديماً بالقرى والمزارع والقصور ، والظاهر انه ما كان بين القرية وجارتها اكثر مما نرى من البعد اليوم بين يلدا وبيلا ، وعقرباء وجرمانا ، وجسرين و كفر بطنا ، وسقبا وحمورية وذلك ليتمكن أهل القرى من تجويد زراعاتهم ، وفرق بين قرية تكون حقولها على قيد غلوة وأرض بعيدة عن المساكن الساعة والساعتين .

الفصل الثالث

ميزات الغوطة وخصائصها

أجمع من وصفوا الغوطة على الأيام أنها قرى شجراء وان فيها قرى كالمدن وان أهلها كأهل الحاضرة بعاداتهم وأزيائهم وان في اكثر قراها الحمامات والجوامع . ومنذ القرن الثامن قال شيخ الربوة ان العمارة المبثوثة فيها لو جمعت لكانت مدينة عظيمة ما بين جواسق وقصور وقاعات واصطبلات وطواحين وحمامات واسواق ومدارس وتُرب وجوامع ومساجد ومشاهد غير القرى والضياع الأمهات وان هذا لا يوجد بغيرها اصلاً . ولولا الغوطة ما كانت دمشق من اجمل مدن العالم ولولا دمشق ما كانت الغوطة الا صحراء خالية تعيث البادية في ربوعها .

ولما جعل بنو أمية من دمشق عاصمة ملكهم العظيم ، كان للغوطة حظ جزيل من عنايتهم فنزلها رجال منهم وعمروا فيها القصور ، وأنشأوا المزارع ، وشقوا الجداول ، وعنوا باستثمارها واستنباتها ، وكان معاوية بن ابي سفيان يقيم احياناً في الغوطة وينصب الأبنية والأروقة والفساطيط . ولولا الأمويون ماحازت الغوطة هذه الشهرة ، ولولاهم

ما كانت دمشق على هذه العظمة ، وما دمشق كما قال العلامة لامنس الا حسنة من حسنات بني أُمية . ودمشق مدينةُ للأمويين لاختيارها عاصمة خلافتهم ، وهم أحسنوا ولا جرم الاختيار .

قال ابن قيس الرُّقيّات :

أجارك الله والخليفة (بالغو ... طة) دار بها بنو الحكم
المانعو الجار أن يُضام فما ... جارٌ دعا فيهم بمهتضم

وقال أيضاً :

أقفرت منهم (الفراديس) (فالغو ... طة) ذات القرى وذات الظلال

وقال في المزة :

حبذا ليلتي (بمزّة كاب) ... غال عني بها الكوانين غول
بت أُسقى بها وعندى مصاد[1] ... انه لي وللكرام خليل
مقديا[2] احله الله للنا ... س شراباً وما يحلُّ الشَمول
عندنا المشرقات من بقر الأ ... نس هواهن لابن قيس دليل

قالوا لما قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الشام رأى الغوطة ونظر الى المدينة والقصور والبساتين فتلا قوله تعالى : « كم تركوا

(١) المصاد الهضبة العالية الحمراء وما أظنها الا محرفة .
(٢) مَقَد قرية بالشام من عمل الأردن والشراب منسوب اليه والمَقَدي مخفف شراب منسوب الى القرية يتخذ من العسل .

من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوماً آخرين » ثم انشد قول النابغة :

هما فتيا دهر يكر عليهما نهار وليل يلحقان التواليا
اذا ماهما مرّا بحيّ بغبطة أناخا بهم حتى يلاقوا الدواهيا

قال ابن كثير : هذا يقتضي باديء الرأي انه ـ أي عمر ـ دخل دمشق وليس كذلك فانه لم يقل أحد انه دخلها .

ويروى ان أمير المؤمنين المأمون أقسم يوماً وقد نظر الى أشجار الغوطة ونباتها انها خير مغنى على وجه الأرض ، وقال : عجبت لمن يسكن غيرها كيف ينعم مع هذا المنظر الأنيق الذي لم يخلق مثله . وكان ملوك بني العباس يختفون الى دمشق على ما قال ابن عساكر طلباً للصحة وحسن المنظر ومنهم المأمون .

يعتز الغواطنة باقليمهم وهم راضون عن حالتهم ويقولون في أمثالهم « شبر بالية الخروف ولا ذراع بذنب الثور » يريدون بان جزءاً صغيراً من أرضها أعود على صاحبها ممن يملك مساحات عظيمة في غيرها من الأرض الفقيرة . ومن يملك في الغوطة ثلاثة أفدنة ويقوم بنفسه على تعبدها فهو سعيد مرفه ، ومن مزاياها ان اهلها يجزئهم ما تنبته لهم أرضهم من المواد الأولية . ولو كان عندهم الحديد والفحم الحجري لما احتاجوا الى شيء في صناعاتهم وزراعاتهم . ومن مزاياها

انها لكثرة أنواع محاصيلها من شجرها وأرضها وبساتينها وحقولها اذا أصابتها آفة سماوية في بعض السنين تستعيض من الأصناف الباقية ما تعيش به سنتها .

وما برحت الغوطة تأخذ من دمشق وتعطيها تعطي الأولى للثانية ثمارها وحبوبها وبقولها والبانها . وبعض رجالها يعملون في الصناعات والشؤون التي تتوقف على سواعد الأقوياء ، وتعاون دمشق الغوطة اذا أعوزها المال وحاربتها الطبيعة بالجدب والأوبئة وغيض ماؤها وعدا عليها أعداؤها . ولما وقف صاحب المدرسة الأشرفية بدمشق مدرسته أمر أن يصرف من مغل الوقف ما تدعو الحاجة اليه من تقوية الفلاح واقراضه وشراء دواب وآلات ، وكان قصده أولاً وبالذات فلاح الغوطة ، والأقربون أولى بالمعروف . والواقف العظيم كان يشعر ولا شك بضرورة مثل هذه المعونة للفلاح الغوطي وهو يراه يضيق بعض السنين ولا يجد من ينجده .

نعم تأخذ الغوطة من دمشق ودمشق من الغوطة ، ويجتمع الغوطيون بالدمشقيين كل يوم في أسواق الثمار والبقل والجبن والاسكافيين والسروجيين والاكافيين والقوافين والحدادين وأسواق الخيل والبقر والحمير والغنم والجمال وأسواق الصوف والقطن والقشر والحبال والغزل . وكما كان لكل قرية في الغوطة لهجتها الخاصة

فكذلك نشهد في الغالب لنساء كل قرية زياً خاصاً اللهم الا من تمدن منهن وأخذن بأزياء الدمشقيات . فالديرانية لا تلبس كما تلبس العربيلية والدومانية لا تكتسي كما تكتسي السقبانية والمنيحية والجرمانية لا تكتسي بكسوة البرزاوية والقابونية .

ومما جعل روح الغوطة واحداً ان قراها في القرون الأولى كانت متشابكة لا تبعد القرية عن جارتها أكثر من دقائق قليلة ولذلك تمازج السكان وتعاونوا وتعاطفوا وكانوا على تكافل بينهم في حال سعتهم وضيقهم وفي سلمهم وحربهم ولا سيما منذ خفقت نعمة قيس وعين على ما نفصله بعد هذا .

الفصل الرابع

سكان الغوطة وأديانها

كانت السريانية لغة الشام قبل الفتح العربي واللغة الرومية هي اللغة الرسمية . وكانت الآرامية لغة سورية القديمة ولغة الكلدانيين . والكلدانيون يتكلمون بالرومية مجاراة لحكومتهم ولم تكن الآرامية لغتهم الخاصة ولا العامية ، وظهرت السريانية في القرن الثاني بعد المسيح وهجرها أهلها نحو القرن الثاني عشر . وأهل معلولا وبخعة وجبعدين في جبل سنير (قامون) يتكلمون الى اليوم بفرع من هذه اللغة يسمونها بالسريانية .

ودخلت اللغة العربية كورة الغوطة قبل الاسلام لنزول بني غسان العرب فيها ولأن تجار العرب ما انقطعوا عن نزول هذه الديار منذ أقدم العصور ولما جاء خالد بن الوليد مدداً لجيش الشام من العراق غزا بني غسان في الغوطة يوم فصحهم أي انهم كانوا سكانها أو معظم سكانها يومئذ . قال اليعقوبي ان اهل كورة الغوطة غسان وبطون من قيس وبها قوم من ربيعة ومن كلب بأرض الغوطة عامر بن الحصين بن عُليم وابن رباب المعقلي . فبعض سكان الغوطة اذاً

من أصول عربية واكثر من نزلها في الفتح كانوا من العرب، دع من كان فيها من الغساسنة، وغيرهم قبل الاسلام

وفي مسالك الأبصار ان من بني زُبيد فرقة بغوطة دمشق وقالوا ان ممن نزلها آل علي فرقة من آل فضل وديارهم مرج دمشق وغوطتها بين اخوتهم آل فضل وبني عمهم آل مرا. قال في التعريف وانما نزلوا غوطة دمشق حيث صارت الامرة الى عيسى بن مهنا وذكر القلقشندي من قبائل العرب كثيرين منهم آل رجال كانت منازلهم في الغوطة وهم بطن من زبيد آل علي وهم بعض من آل فضل عرب الشام وديارهم مرج دمشق والحريث بطن من زبيد من القحطانية وفي مسالك الأبصار وهم جماعة نوفل لا بنو زبيد. ولا شك ان عرب الغوطة أمشاج من القبائل تبدلت اسماؤها على توالي القرون كما تبدلت أسماء منازلهم في ظاهر دمشق والغوطة منذ دخلت في حكم العرب

أما اديان الغوطة فقد تأصل الاسلام فيها منذ اوائل القرن الأول واصبح اهله الكثرة الغامرة وكلهم جماعيون من اهل السنة ولم يتشيعوا وكان في الشام مذهب الشيعة الاسماعيلية مذهب الدولة الفاطمية اكثر من قرنين. ولم يعرف العصر الذي اصبح فيه الدين المسيحي اقلية وليس بها معبدنا سوى بضع مئات من النصارى في داريا

وعربيل وحرستا وصحنايا والأشرفية. وفيها مئات من المسلمين الدروز في جرمانا وصحنايا والأشرفية. وكان جميع أهل قرية جوبر يهوداً الى ما بعد القرون الوسطى فانتقلوا الى دمشق في زمن لم نعرفه ولم يبق لهم فيها سوى كنيس مقدس يزورونه ويقيمون فيه صلواتهم. ويقول دوسو انه في عهد الشفالية دارفيو من أهل القرن الثامن عشر كان اليهود يسكنون قرية جوبر.

وقد استغرب ابن طولون الصالحي من أهل القرن العاشر أن أهل جرمانا تيامنة قال: وهذا عجب من كونه في هذه الغوطة فان أهلها جميعهم من أهل السنة. ويريد بالتيامنة سكان وادي التيم من سفوح جبل الشيخ وكانوا وما زالوا من الدروز.

والمذهب الغالب في الغوطة مذهب الشافعي ويقل المتمذهبون بالمذهب الحنبلي الا في قرية دومة. والطرق فيها ضئيلة ومنها بقايا في أمهات القرى لا يكاد يشعر بها وهي آخذة بالاضمحلال وليس للغوطة احصاء يركن اليه في عدد سكانها والمظنون انهم لا يقلون عن مئة الف.

الفصل الخامس

الفصيح في كلام الغوطة

نأتي هنا على نموذجات مما بقي الى اليوم في ألسن أهل الغوطة من فصيح الألفاظ العربية للذكرى .

الدَّكة .الحظيرة « المحيط بالشيء قصباً كان أو خشباً ». الصُفَّة : في جبل الربوة محل بارز في الجبل ومعنى الصفة في أصل اللغة هكذا والصُفة (بضم الصاد وتشديد الفاء) من البنيان شبه البهو الواسع الطويل السمك . الصفقة . دويرة تصغير دارة ودوير تصغير دار . حويرة : تصغير حارة . سويقة : تصغيرسوق . سقيفة : تصغير سقيفة كسفينة . العقيبة : تصغير عقبة . الربض : وهو ما حول المدينة من خارج وجمع الربض أرباض . الرحبة : الميدان .الرَّبع : الدار بعينها والمحلة والمنزلة وجماعة الناس وأكثر ما يطلقونها على المعنى الأخير فيقولون جاء مع ربعه . العرصة :ج عرصات كل موضع واسع لا بناء فيه . البراح : المتسع من الأرض لا زرع بها ولا شجر . البيت: المخدع . العُلّية الخصّ :(البيت من قصب) القصر . السطوح : السطح .المشرفة . الدك : ج دكوك السقاطة . الكوّة . العوارض:

مفردها عارضة . الخمّ . المسقط : ومسقط كل شيء منقطعه ومنه مسقط داربّا . أرض حُصَيْبة : كثيرة الحصباء والحصباء الحصا واحدتها حصبة صغروها للتحبيب . احتجر الأرض : ضرب عليها مناراً . الطنافس : واحدها طنفسة وهي النمرقة والبساط والحصير . الساباط : سقيفة تحتها ممر نافذ والجمع سوابيط يحرفونها فيقولون سيباط . الركيزة : ج الركائز . العشة : بيت صغير يبنى بقضبان . الخوخة . القبو : (المكان المعقود بعضه الى بعض من قبوت البناء رفعته) . الكنيف . المربط . الزَّرب . الاصطبل . المصنع . الجرن . الداكونة . الروشن . الجناح .المصطبة :(مكان اجتماع الغرباء) الحي . الحارة . المنزل . المحطة . الجملون . الزابوقة من البيت زاويته أو شبه دَغَل (مكان خفي) في بيت يكون فيه زوايا معوجة. الكوخ . الحير : البستان او مجتمع الماء ويكسرون حاءه وعندهم أرض يسمونها الحِير . وعندهم أرض يسمونها حصيبة من الحصباء تصغير حصبة ، وارض اسمها البحصاص . الزُور :الأرض البعيدة من الأراضي الزراعية والأجمة ذات الحلفاء والقصب والماء وكلاهما يصدق على حرم نهر بردى أصل أنهار الغوطة . البحرة ما انخفض من الأرض وعندهم أرض تسمى البحرات . الحسي سهل من الأرض يستنقع فيه الماء وعندهم منقع اسمه الحُسَيّ بالتصغير .

وكثيراً ما يفتحون بعض الأسماء والأصل الضم او بالعكس فيقولون الحنجرة فيضمونها وهي مفتوحة ، ويفتحون الحاء من الحلقوم وهي مضمومة ويقولون السُّحْنَة بالضم وهي مفتوحة أو مكسورة . الحَدَبَة يسكنون دالها . الكلف : النَّمش . أشوص . أجهر . أخَنّ (خن عندهم) . اندمل الجرح تراجع الى البرء . قبّ الجرح : اذا يبس وذهب ماؤه . قيّح الجرح : صار فيه القيح وهو الصديد . التحم الجرح : التزق . بزل القرحة وبزّلها فتبزّلت وانبزلت شقها .

رجل غُفل : لم يجرب الأمور . أَحّ : سعل . سخمت وجهه بالسخام وهو سواد القدر . قرقف : رعد من البرد . قف الشعر : قام من شدة الفزع . قفقف من البرد : ارتعد . شوّر : لوّح بشيء يفهم من النطق . زهقت نفسه تعبت . زاح الشيء وأزحته : نحيته . ركله برجله : رفسه . مزع الثوب . قطعه . ثوب بايخ : متغير . وحديث بايخ : لا محصل له . جرّس : شهّر . تفرعن : تكبر وتجبر . الأهوج المتسرع الى الامور كما يتفق . أصّ : سكت وهو مصن . هرج في كلامه : خلط ومنه المهرج يطلق على من يأتي بالمساخر ليضحك الناس . راز : اختبر . ودّر الرجل : اوقعه في تهلكة . برشق : لوّن من برشق الشجر ازهر ، والنور تفتق ، والعروس مبرشقة : مزينة بالالوان . قلعه : حوله من موضعه كقلعه واقلعه فانقلع وتقلع واقتلع يقولون

قلعنا : اي هيا بنا . هو مباط : معيى من اعيى يستعملونه في الاعياء عامة . جوعان حفتان اي جوعان جوعا شديداً من حفته اهلكه . فزّ خف ونهض . دحس الثوب في الوعاء : ادخله يقولونه بالشين . يقولون الفرشخة بالخاء وهي الفرشحة بالحاء . يقولون فنك بتشديد النون وهي فنك بالتحريك والتخفيف . يقولون الغبّ وهي شرب الماء من غير مص والاصل العب بالعين لا بالغين . شاكتني شوكة : اصابتني . فقع اصابعه : فرقعها . القرفصاء : الجلسة المعلومة يشتقون منها فعلا فيقولون قرفص لمن يقعد تلك القعدة . لزّه على العمل : شده وحثه . رمحت الدابة وشمست وجمحت : حرنت ونفرت ودابة رموح وشموس وحرون وجموح ونفور ، هكذا ينطقون بها صحيحة . حاش الدابة : ردّها . عقل الدابة ربطها . عرّقت الدابة رعت مابقي من المرعى بعد رعيه . شبّ الفرس . اجترت الدابة : مضغت لقمة تعللت بها الى وقت علفها . شردت الدابة : نفرت . البقر الخماسي القصير من غلام خماسي طوله خمسة اشبار . يقولون في زجر الغنم وغيرها من البهائم حايّ حايّ وحاىّ حاىّ وحايْن حايْن . هس : زجر للغنم هقط : زجر للفرس تخ تخ : زجر للدجاج . سق سق : زجر للثور . عاي : زجر للخروف والغنم .

فرتك قلبه : قطعه . نتر يده جذبها بجفاء . المرش : الحك باطراف

الاظفار مصعته بظفرها : حركته وفركته : يقولون : امصع رقبته اقطعها . لهوجت اللحم اذا ادرته على النار ليشتوى فلم تنعم شيه . شرح اللحم (بالتخفيف والتشديد) قطعه قطعاً طويلة ومنه الشرايح . شيط اللحم في الشيّ :اذا دخنه واحرق بعضه ولم ينضج . شاطت القدر : احترقت ولصق بها الشيء .يقولون سقاني نتفة من لبن أى شيئاً وهي نُدفة في الفصيح .اعطني شوية حليب والشواية بالضم :الشيء الصغير من الكبير وتقوله العامة بحذف الالف كما في التاج . عدان الشيء : زمانه وعهده واوله يطلقونه على وقت اعطاء كل صاحب حق حقه من الماء . ويقولون هذا مكان عدي اي جيد من عذي بالذال عذا المكان: طاب هواؤه . العيانة المطر المتواتر أياماً وفي اللسان العين مطر لا يقلع وقيل هو المطر يدوم خمسة ايام أو ستة او اكثر لا يقلع .رال الصبي اخرج لعابه يقولون ريل والمريلة : الثوب الذي يلبسه الصبي ليقي ثيابه من الروال . نأنأ في الاكل :أكل أكلا ضعيفاً . دهبل: كبر اللقمة ليسابق في الاكل يقولون دعبل تناكفا الكلام:تعاوراه يقولون فلان يناكف فلاناً اي يضايقه . بجم : غبي أخرق عندهم وفي الاصل من لا يمكنه النطق بسهولة لعي او فزع او رهبة . فلان مبرطم اي مغيظ من البرطمة الانتفاخ من الانف والبرطمة غضب مع عبوس . الرتوت الرؤساء واحدها رت . الاستطراق :طلب الطريق في حدمن

الحدود . بيت فلان مطروق :اذا كان يطرقه كل احد . شحط الثمن: بلغ اقصى القيمة ،وهبط نزل . تسوّق القوم :باعوا واشتروا .مافي البيت دومري:احد والاصل تومري كتبته (بالتشديد) علمته الكتابة ، وهجيته علمته الهجاء وحفظته الكتاب حملته على حفظه . العزوة العصبة من الناس. واللمة : الجماعة والجف : جماعة من الناس يقولون قام جف وقعد جف عند الكلام على الموائد . القرفة : بكسر القاف واسكان الراء وبفتح الفاء الخلطة والمداناة . طمس على مال فلان : اخذه واستصفاه من اطمس على اموالهم اهلكها . قنطر : اغتنى . دغر عليه : هجم واقتحم . الهوشة : الفتنة والهيج . البلبلة : تفرق الآراء . التلتلة : الزعزعة . الفضفضة : سعة الثوب والعيش ومنه تفضفض بهذا المال . فلان متعنفص متكبر. لاص: حاد يقولون هو يلوص ولائص سقلبه : صرعه عمل له سقلباً اي شبكاً ورماه به زعر بالجحش :دعاه للسفاد يقول الاولاد للاتان زُعرٌ . الازعرج زعران الحدث . شنّر عليه :عابه . عزّره :اهانه وشتمه .قرط عليه مبلغ كذا حرمه اياه البحبحة : السعة في النفقة وتبحبح في الجلوس اتسع له المقعد . لحلح المسمار : أزاله عن موضعه .التجليط : الكذب وفلان يجلط . يقولون هو شرواك بالخير اي مثلك وهو ماشي مع سبره اي مع اقرانه والسبر الشبه والهيئة . هو يحبق له كم قرش من حبق

متاعه جمعه . الهبش : الجمع والكسب . يقولون اعطيته الزّخم أي الشدة . حضرت العكرة : الهوشة والفتنة . العزيب من الابل والشاة التي تعزب عن اهلها في الرعي وابل عزيب لا تروح على الحي جمع عازب . ويستعملون روّح بكر شرق غرب الزكرة : الزق الصغير . الدّبة : ظرف للبزر والزيت والماء واللبن . يقولون الدبية . الحقة . الحق . العكة : آلة السمن أصغر من القربة او الظرف . الخلية . الكوارة . العلبة . الحنجور : قارورة للذريرة . القشوة : صندوق صغير ذو ادراج تجعل فيه المرأة مايصلح ولدها من المراهم والذرور والمساحيق والقطن وفي اللغة قفة من خوص لعطر المرأة وقطنها . البطة الدّبة او اناء كالقارورة . الدولة شيء مثل المزادة ضيقة الفم (قاموس) وهي عندهم ابريق تغلى به القهوة . الطابونة فرن في الارض وطابون القداحة الحرّاق . كفّ الثوب ولفقه وغبنه وشلته وخبنته ورتيته ورفوته وفتقته ولقطته وبطنته يستعملونها على معناها في الفصيح ، ثوب مرحرح فضفاض متسع . الصوبة (ويقولون الصبة) الكدسة من الحنطة والتمر وغيرهما . روشم الطعام ختمه والروشم اللوح .

الزّواق زوقت المرأة . قش وقشقش اكل من ههنا وههنا والشيء جمعه يقولون فلان يقشقش الباقي من الطعام . يقولون الحب طيس واللبن طيس كثير من طاس يطيس كثر . اللخن قبح الكلام

يشتقون منه فعلا يقولون فلان يلخن لفلان بالكلام أي يكلمه كلاماً قبيحاً ويوري له . نوّز قال يقولون . نوّس : الضوء قل من اضاءته يقولون فلان ينتظر فلاناً على عترة (بالتاء) وفصيحها بالثاء كما يقولون التغرة بالتاء وهي بالثاء ويقولون درع في السباحة : اي اتسع وهي بالذال ذرع كما يقولون ادرع هذا اي اذرعه اي قسه بذراعك . وبحتر واصلها بحثر الى غير ذلك . يقولون انا اكنكن من كنكن : كسل وقعد في البيت .

هذا نموذج ضئيل مما بقي في كلام اهل الغوطة من الفصيح العربي ومن اراد التوسع في الفاظ الغوطة فعليه ان يرجع الى ما نشرناه في المجلدين الثامن عشر والتاسع عشر من مجلة المجمع العلمي العربي تحت عنوان الفصيح والمولد في كلام اهل الغوطة وهناك يقع على الفاظ كثيرة داخلة في الزراعة اليوم وهي من اصل سرياني والفاظ كثيرة في الادوات والآلات جاءت من الفارسية . عدا ما هناك من الفاظ رومية وتركية .

الفصل السادس

الطرائق الزراعية في الغوطة

قال أحد العارفين ان لمدينة دمشق طابعاً خاصاً في مرافقها ومصانعها وأوضاعها ، قد لا ترى ما يماثله في البلدان الاخرى ، وهذا الطابع يتناول غوطتها أيضاً ، فان الناظر في ارجائها لا يزال الى اليوم يرى الزراعة فيها على الطرق القديمة ، لم يتسرب اليها من الاساليب الحديثة الا قليل ، ثم ان ما أدخلته من التحسن في زراعتها وصناعاتها الزراعية قد تلحظ أنها تمثلته وتبنته ، فهي تسير في معظم حالاتها على اصول الاجداد ، مع الاحتفاظ أبداً بطابع القرون الغابرة . ومعظم ما ابدعته فيها الايدي والعقول لا يبدو عليه أثر التجدد الا بقدر الخال في الوجه الجميل ، ذلك لان من عادة الغوطيين الا يبادروا الى اقتباس المحدث الا اذا قامت البراهين المحسوسة على عظيم فائدته ، ويعصون على مالم يألفوا ، لا يخرجون عن طبيعة ارضهم ، وقد عرفوا بالصبر على استثمار الشجر واستنبات النبات كما عرفوا بصبرهم على سني القحط .

يستخرج الغوطيون الزيت من زيتونهم ، والدبس والنبيذ والجلاب من عنبهم والعصير (القمرالدين) والتقوع من مشمشهم والعطور من زهرهم ووردهم ، والصابون من زيتهم ، والاجبان والسمون والزبد والقشدة من البانهم ، والطحينة والشيرج من سمسمهم والدشاء من بُرّهم . ويقطفون الزيتون والجوز بعصيهم ، ويعالجون استخراج الياف القنب على أسلوبهم ، ومنه يتخذون حبالهم وخيوطهم ، ويدبغون من جلود حيواناتهم سختيانهم ، ويحيكون من صوفهم قماشهم وثيابهم ، ويتخذون من اخشابهم أدوات زراعتهم وصناديق فاكهتهم ومنجور بيوتهم ، ووقودهم من حطبهم وبناؤهم من ترابهم ، وما برحوا يعلفون دوابهم بالقديم من طرائقهم ، ويحرثون الارض ويزرعونها ويسقونها على نحو ما اعتاد آباؤهم .

وما جلب بعض الغوطيين الآلات الرافعة واعتمدوا عليها لارواء صعيدهم الا لما اعوزتهم المياه تجري من أنهارهم ، وشحت الجداول في بعض السنين فخافوا أن تصوح ادواحهم ، وما عرفوا الاسمدة الكيماوية الا عندما اختلطت بالاسمدة الطبيعية مواد ظهر ضررها في محصولهم ، وما عادت تكفي لما طمحت نفوسهم الى تسميده وتجديده من الارضين ، وما ألفوا تذرية الحبوب بالآلة التي اوجدها احد مواطنيهم الا لما ثبت لهم ان تذريتها بالمذراة حين

هبوب الريح مما يطيل أمد نزعها من تينها، وتضيع عليهم بعض حباتها.

والغوطة السمحة التربة، المعتدلة الهواء، الصافية الاديم، تعطف على الفقير أيضاً لاترى أن تقطع رزقه، وتحرم الصانع والعامل من أبنائها أجوراً تنسيهم بعض اتعابهم فلا تعمد الى الآلات والادوات الحديثة الا في احوال شاذة. الغوطة تتوقى الغلطة التي وقع فيها الغرب لما استعاض عن الايدى العاملة بما اخترع من الآلات، فهي لا تريد أن تبدع ما يكثر به الناقون والموتورون، ثم تعم الشيوعية والاشتراكية وفيها الفوضى والبلبلة.

ورث الغوطيون عن آبائهم معرفة تأثير الهواء في الزروع والاشجار، وأخذوا عنهم أصول زراعة الارض واستثمارها، ومعرفة تربتها وارواءها، وما يصلحها وما يضرها، لا يخلون بشيء مما نقلوه عنهم. واتقنوا بفطرتهم معرفة اوقات الزرع وجنيه واوقات نضج الثمار والبقول، وأساليبهم في ذلك سليمة في الجملة، وقد تكون أقرب الى العمل من كثير مما اهتدى اليه العلم الحديث، وصعب عليهم تطبيقه والانتفاع به حق الانتفاع. رسخت في نفوسهم طرائقهم القديمة، فمن الصعب ان تهديهم الى طرق جديدة يتبعونها، ونذر من تعلم الزراعة من ابنائهم على الاصول الحديثة، اكتفاء بالذي تلقوه عن أجدادهم.

فعلى عاتق الحكومة واجب تعليم الغوطيين فيما تربو به مكاسبهم وتعتقد فيه هناءتهم وناعم عيشهم. وعليها ان تقيم لهم المخابر والمشاتل والمناحل وحظائر الدواجن الى ما شاكل ذلك على ما يقضي به العلم العصري، ويفرض على حكومة ترى من الواجب عليها انماء الثروة العامة، أن توجد للعاطلين عملاً يقتاتون به. ولو صرفت العناية بالصناعات الزراعية، ولا سيما تربية المواشي والنحل وتربية الدواجن والطيور لكان للغوطة من ذلك أرباح ثابتة لا يستهان بها تضاف الى ريع أرضها واشجارها، فان البقر البلدي والماعز البلدي في الغوطه هما من عرق أصيل لا يكاد يكون له مثيل في سائر أقاليم الشام، لكثرة ما يدر من الالبان الجيدة. وهذه الانواع من الماشية لا تعيش في غير ظلال الغوطة، ولا تستمريء غير مراعيها ومياهها بيد أن اصحاب الاملاك والفلاحين اصحاب الاراضي يشكون مرّ الشكوى من اضرار الماعز بالاشجار وسبيل اتقاء مضرتها أن تقيد أبداً او تختار لها مناطق خاصة ترعى بها بعيدة عن الاشجار، ويسقط النحل، بما في الغوطة من أشجار مثمرة وأزهار عطرة، على غذاء شهي ندر مثيله في الاقاليم الاخرى

كان في الغوطة صناعات زراعية رابحة نازعها ما ظهر في اقطار أخرى من صناعات، فعطلت صناعاتنا او اضعفتها لقلة الصادر

منها الى الاقطار ، كما حدث للصابون لما نازعه الصابون الغربي الذى هو هناك وليد الكيمياء الحديثة ، وكما حدث للعطور والطيوب لما اخترعت الطيوب الاوربية نتيجة لازمة أيضاً لانتشار الكيمياء وكما بارت منسوجات القطن والكتان والحرير ثم عادت بأخرة تنهض نهضة مباركة .

وقد أبقى لنا شيخ الربوة صورة استخراج العطر من ازهار الغوطة ووردها ، قال : ان حراقته تلقى على طرقات المزّة وفي دروبها وازقتها كالمزابل فلا يكون لرائحته نظير ، ويكون ألذّ من المسك الى مدة انقضاء الورد . وذكر صنعة اخراجه بالكركات والانابيق ، ورسم صورها وطرق استعمالها ؛ وما هناك من كركات أخرى يستخرج منها ماء الورد وغيره من المياه بلا ماء بل بوقود الحطب ، وذلك بعد حشو القرع بالورد وبلسان الثور وبزهر النيلوفر أو البان وزهر النارنج والشقشقيق والهندباء او بورق القرنفل .

قال ويحمل الورد المستخرج بالمزة الى سائر البلاد الجنوبية كالحجاز وما وراء ذلك ، وكذلك يحمل زهر الورد المزي الى الهند والسند والصين والى ماوراء ذلك ، ويسمى هناك الزهر . ومما أرخوه انه كان لقاضي القضاة الحنفية ولاخيه قطعة بأرض تسمى شور الزهر طولها مائة وعشر خطوات ، وعرضها خمس

وسبعون خطوة ، باع منها عشرين قنطاراً باثنين وعشرين الف درهم وذلك سنة خمس وستين وستمائة ، وهذا لم يسمع بمثله .

نعم ليس في الغوطة اليوم من الصناعات ما يسد عوز اهلها فهم يشخصون الى العاصمة في استبضاع ما يلزمهم من اثاث وملبوس وادوات ومآكل المرفهين من اهل المدن ومن آنس من ابنائها ميلاً الى بعض الصناعات يغدو ويروح الى دمشق يتعلم ما تهفو اليه نفسه كعمل الاحذية واصلاح الادوات والسيارات وقد نجح كثيرون في هذا الشأن يبتون في قراهم ويعملون نهارهم في الحاضرة واكثر من انتفعوا من قربت قراهم منها او كانت على خط الترام كجوبر وزملكا وعربيل وحرستا ودومة . وكفر سوسة والمزة وبلدا وبيلا وجرمانا والمنيحة وصحنايا .

وفي العهد القديم كانت بعض القرى تختص بأشياء قد لاتوجد في غيرها ، فقد ذكر القرماني أن في عقرباء العنب الزبيبي الذي لا نظير له ، واليوم ليست كذلك ، ولا يجود هذا الصنف من العنب في غير قرية داريا . ويجود في مدينة دمشق وحدائقها انواع العنب الكبير الحجم كالبلدي والبيتموني وغيرهما ، وكان ينسب القماش الى عقرباء ايضاً فبطل عمله فيها من قرنين على الاغلب

روى البدري انه كان بالغوطة أشجار تحمل الواحدة منها

اربع فواكه كالمشمش والخوخ والتفاح والكمثرى ، وبها مايحمل الثلاث واقلهن اللونين من الفاكهة قال : وهذا موجود الى يومناهذا (القرن التاسع) فاني رأيت بها الكرمة الواحدة تطرح العنب الابيض والاسود والاحمر ، رأيت بوادي النيربين شجرة توت تطرح التوت الابيض والاسود قال : وهذا من صنعة الفلاحة ويسمى التطعيم ، وذكر صورته كما هي معروفة اليوم .

ورأينا لهذا العهد قرية جرمانا تصنع أعبئة من الحرير والمرعز وغيرهما مما يليق ان يجعل كسوة الملوك والملكات لجمال صنعها وتفويقها ، وقد نازعتها الألبسة الجديدة حتى كاد يقضى على انفع لباس اخترعه العرب في الدهر السالف ، وهو صالح لكل زمن لأنه لباس وغطاء ووطاء ، بقي البرد والحر ويتجمل به الرجال والنساء .

الفصل السابع

متنزهات الغوطة

في الغوطة عدة متنزهات هام بها الشعراء وذكروها ، وحنوا اليها حنو الحبيب على حبيبه ، ومنها ماتغيرت أسماؤه . وتفرد صاحب نزهة المشتاق بذكر وادي البنفسج قال انه من باب دمشق الغربي وطوله اثنا عشر ميلاً وعرضه ثلاثة أميال وكله مغروس باجناس الثمار وتسقيه خمسة أنهار . وفي عدد الأميال مبالغة كبيرة لأن هذه البقعة أضيق من ذلك بكثير الا أن يكون الميل أصغر من الميل المتعارف .

ومن متنزهاتها (سَطرا) و (مُقرا) وفيهما يقول عبد الرحمن ابن خطيب داريا وقد أحسن التورية :

خليليّ ان وافيتما الشامَ بكرة ... وعاينتما (الشقراء) والغوطة الخضرا
قفا واقرأا عني كتاباً كتبته ... بدمعي لكم (مقرا) ولا تنسيا (سطرا)

وقال البحتري يمدح خمارويه :

أما كان في يوم الثنية منظر ... ومستمع ينبي عن البطشة الكبرى

وعطف أبي الجيش الجواد بكرة مدافعة عن (ديرمران) أو (مقرى)

ويؤخذ من بيت لتوفيق بن محمد النحوي انه يُخرج إليهما من باب الفراديس :

سقى الحيا أربعاً تحيا النفوس بها مابين مُقرا الى باب الفراديس

و (الشقراء) مطلة على المرج الأخضر ، وعندها اليوم طاحون يقال لها طاحونة الشقراء ، و (مُقرا) المكان المعروف عند طاحون الشنان في شمالي شرقي البلد . و (سطرا) شرق جامع منجك قرب برج الرؤوس[1] .

ويقول ابن الساعاتي :

فسقت (جلقاً) فأيام (سطرا) كلّ يوم عيدٌ علينا أعيدا

بلد حُسْنه يُفَقّه من كا ن بليداً حتى يفوق لبيدا

وفي سطرا ومقرى يقول ابن حيوس (٤٧٣) :

وياحبذا ريح على ما تحملت تروح بريّا كم من الشام أو تغدو

تهيج أشواقاً وتنقع غلة ففيها الضنى والبرء والصاب والشهد

وربعٌ بقرى لا العقيق ولا اللوى وورد بسطرى لا العرار ولا المَردُ

وحالية بالحسن خالية به تعرضها هزل واعراضها جدّ

(١) راجع فصل القصور الدائرة .

قال العارفون : وكل من الشرفين يطل على الشقراء والميدان والقصر الابلق والمرجة .

وصف مجير الدين بن تميم الميدان قال :

عجباً لميداني دمشق وقد غدا كل له شرف اليه يؤول

والنهر بينهما لغير جناية سيف على طول المدى مسلول

وكان (البلكي) متنزهاً حسناً بين سطرا ومقرا . روى البدري ان الناس يجتمعون فيه أيام زهر السفرجل ويطلقون الماء تحت أشجارها ، ويوقدون في ظلمة الشهر قشور البيض ويطلقونها في الماء ، ويعلقون قشور النارنج موقدة في الأشجار ، ويضربون الخيام في بستان الحاجب ، ويقطعون فيه أياماً وأوقاتاً من اللذة والانشراح .

ومن متنزهاتها (جسر الغيضة) بين الحديثة وجسرين على بردى وبالقرب منه (نصيب) وفي نصيب يقول الراعي :

وفي (نصيب) جحفل الأطيار وبجمع الأزهار والأنهار

وبجمع الأمواه (جسر الغيضة) وحيثما يمت تلقى روضة

ومن متنزهاتها الربوة . قال ابن طولون الصالحي : أعظم متنزهات دمشق (الربوة) كان بها أربعة مساجد وجامع بخطبة ومدرسة وكان بها (التخوت) وهو قصر مرتفع على سن جبل به قاعة وطبقات على هيئة الايوان ينظر الجالس هناك من مسافة يوم لو لم يكن حائل به ، وكان

بها خمسة مقاصف[1] اثنان شرقي نهر بردى وثلاثة غربيه ، وكان بها (العاشق) و (المعشوق) وهما برجان للحمام في لحف الجبل الغربي وشماليها برج عتيق يسمى (العذول) . وقال : انها خربت ثم عمرت وهكذا مراراً ، وفي عهده بقيت مأوى للوحوش . قال بعضهم :

شوقي (يزيد) وقلب الصب ما بردا (وبان ياسي) من (المعشوق) حين غدا
ومدمعي (قنوات) والعذول حكى (ثورى) يلوم الفتى في عشقه حسدا
على مغنية (بالجنك) جاوبها شبّابة كم بها من (عاشق) سهدا
فالبدز (جبهتها) والدف (ربوتها) وخلخالها مات في (خلخالها) كمدا

و (الخلخال) و (العاشق) و (المعشوق) و (الجنك) و (الجبهة) و (الدف) كلها من متنزهات دمشق في غربي المدينة . وفي الجنك والدف يقول الوداعي :

يا ربوة أطربتني وحسنت لي هتكي
اذ لست أبرح فيها ما بين (دف) و (جنك)

يقول ابن طولون : وفي شرقي الربوة (قطية) وهو مكان كان فيه سمان وشرائحي ومقاصفي وقد خربت ، وشرقها في الطريق

(١) التقصف : اللهو واللعب على الطعام والشراب ، والمقصف محله وكانت المقاصف قبل أن تكون المقاهي وكلاهما يتشابهان .

المذكور (الجبهة) ، على حافة نهر بردى فيها مسجد ودكاكين ومقصف . وظل الدف والجنك معروفين الى القرون الأخيرة فقد ذكر الرحالة الخياري في القرن الحادي عشر (الباسطية) من متنزهات الصالحية وقال انه مرّ أيضاً في طريقه الى الربوة بالنيربين والجنك والدف والميطور وهي أسماء متنزهات . وقد مدح الأمير منجك قصر والده في غربي المدينة بقوله :

قصر الأمير بوادي (النيربين) سقى رباك عني من الوسميّ مدرارُ
كم مرّ لي فيك أيام هواجرها أصائل ولياليهنّ أسحار
حيث الشبيبة بكر في نضارتها وللصبابة احلاف وأنصار
حيث الرياض تغنيني حمائمها (بالدف) و(الجنك) و(الميطور) لي جار
حيث الخمائل أفلاك بها طلعت زهر من الزّهر والندمان أقمار

ومنها (جسر ابن شواس) وفيه يقول فتيان الشاغوري (٦١٥)

يا حبذا جنة (باب البريد) بها والحسن قد حشيت منه حواشيه
فا(لمرج) فالنهر فا(لقصر) المنيف على القصور (بالشرف الاعلى) فثانيه
فالجسر (جسر ابن شواش) فنيربها تحلو معانيه لاتخلو معانيه
كأن في رأس عليين (ربوتها) يجري بها كوثر سبحان مجريه
تلك المرابع لارضوى وكاظمة ولا العقيق يوازيه بواديه

ومنها (الخميسيات) قبلي مغارة الجوع وانما سميت بذلك لأن مبتدأها

كان لزيارة الأموات والآن للفرجة يهرع اليها الناس أيام وجود الثلج وحب الآس (قاله ابن طولون) .

وتشوّق أبو المحاسن الشواء الحلبي الى متنزهات دمشق ، ومنها ما دثر اسمه اليوم ، بقوله :

عاطياني حديث (سطرا) (ومقرا) ... وابسطالي في هجري الكأس عذرا
أنا مالي وشرب كاسات خمر ... شغلتني عنهن كاسات ذكرى
كم نعمنا في (بيت لهيا) بلهو ... وعلونا (بالقصر) و(السهم) قصرا
ومررنا (بدير مران) نشدو ... فيه نظماً وتسجع الوُرق نثرا
تتفيّا ما بين (ارزة) و (القا ... بون) دوحاً يبدل القيظ قُرا
ان عندي يا (بيت أبيات) و(الس ... يلون [1]) شوقاً اليكما مستمرا
بأبي (برزةً) فكم قد برزنا ... نتهادى فيها الى القصف جهرا
ياخليليّ ساعداني واني ... كنت بالحب قبل ذا اليوم غِرّا
خبراني عن (القصير [2]) و (حرنا) ... بخبير وددت لو كان خبرا
(معربا) و(الدريج [3]) و(التل) جنا ... ت بعدنا عنها ولم نأت وزرا

(١) بيت ابيات جاوزه كانت غربي الصالحية . قاله ابن طولون الصالحي — ولم يذكر في المراجع اسم سيلون

(٢) في ضرب الحوطة ان القصير غربي كفرسوسية . والقصير قرية قرب دومة

(٣) معربا والدويج وحرنة ومنين والثنية ثنية العقاب من قرى جبل سنير أي قلمون ، شمالي الغوطة وليست منها .

و (مَنين) بها مناي فمن لي ... أن أقضي فيها من العمر شطرا
فتنايا على (الثنية) قصا ... وابسطالي عذراً بأكناف (عذرا)
عللاني (بكفر بطنا) و (جديا) ... وذراني من ذكر لبنى وعفرا
واسألا لي عن (جوبر) ثم (جر ... مانا) فلي فيهما مآرب أخرى
ولكم بين (دومة) و (حرستا) ... غرف توقف النواظر حسرى
ودّ جفني ان لو غدا بين (يروى) ... و(كثار [1]) يكاثر المزن قطرا
(فلقلبين) بات قلبي مشوقاً ... و (لعربين [2]) ظلت العين عبرى
(بزملكا) و(عين ثرما) و (سقبا [3]) ... و(بجسرين) ظلت اربع [4] شهرا
لي رياض كأنهن السموا ... ت تضاهي زهر الكواكب زهرا

(١) ان كلمة كثار ويروى اسم قريتين أو منتزهين من منتزهات الغوطة على ما يظن .

(٢) عربين محرفة عن عربيل وهي من امهات قرى الغوطة كان يطلق عليها احد شعراء دمشق من المتأخرين اسم « ذات القرنفل »

(٣) ادعى العلامة دوسو في كتابه طوبوغرافية سورية في القرون الوسطى ان سقبا لا اثر لها مع انها اعظم قرى الغوطة الوسطى وكانت عامرة منذ كان الاسلام وكذلك اخطأ في انكاره وجود « حوش خرابو » و « حوش الحياط » وهما معروفان عامران ولم يعين عيون فاسريا مع انها معروفة في سفح جبل دومة كما قال ان الابرشية ينبغي ان يفتش عليها في ضواحي دمشق او خارج الغوطة مع انها من مزارع « الريحان » والريحان والابرشية من المرج . قال ان جسرين عرفت بخشبها والخشب يكثر ويجود في قرى المنيحة والحديثة وبالا .

(٤) أربع أهنأ

ثم قصّا عليّ أخبار (أشفا نية) تغنما بذلك اجرا
فلنا حولها مطارح لهو مسّ كف الحيا ثراها فأثرى
(حلقبلتا) و (بيت قوفا) و (بيه لا) و(يلدا) قرىً بها أنا مغرى
انتحي حيثما توجهت ظلاً وأرى حيثما تلفت نهرا
ولنا تحت دوحها حرم نأ وي اليه اذا الهجير استمرا
(بحجيرا)و(تلفياثا) و (دير البا لسي [1])انهمكت في اللهو سرا
دمن لو أقيس حسن دُماها بسواها لجئت شيئاً نُكراً
واذكروا (عقربا)و(دير العصاف ير [2]) لسمعي ان شئتما ان تسرا
فالى (بيت رانس)والى (دير النوا طير [3]) هزني الشوق سكرا
ولنا (بالبلاط) أوقات أنس نجتليها مجملات غُرّا
كم فتكنا بالهم فيها وأوسع نا صروف الزمان هجراً وهجرا
وشممنا من روض « راوية » نف حة ريح اذكى من المسك نشرا
يا ليالي « بكفرسوسية » كانت وهي « بالمزة » الانيقة زهرا
ويك عودي لا اخضرّ عودي ان رم ت مدى الدهر عن جنابك صبرا
فسقى واكف الحيا (ربوة) ذا ت قرار يهمي ليالي عشرا
جاء في محكم الكتاب لها وصف فماذا يقول من قال شعرا

(١) من القرى التي لم تعرف
(٢) من قرى المرج . (٣) قرية أو متنزه لم نرَ له ذكراً في الكتب .

وقال آخر في وصف وادي دمشق من قصيدة :

رقصت قضبه وغنت قماريه وسلساله يصفق بشراً
وسعت في قرارة الأنهر السبـ ـحة سعي الحيات ينفرن ذعرا
فدمشق من أحسن المدن داراً وهي من أعظم الاماكن قدرا
وتراها كالشام في جنة الشام فدع ذكرك العراق ومصرا

ومن متنزهات الغوطة [السهم] وهو متصل بأرض الصالحية قال البدري : وهو درب مابين دور وقصور وفاكهة وزهور ومياه تجري بهدير كالبحور ، وفيه يقول القيراطي :

دمشق بواديها رياض نواضر بها ينجلي عن قلب ناظرها الهمّ
على نفسه فليبك من ضاع عمره وليس له فيها (نصيب) ولا (سهم) [1]

وفي السهم يقول ابن الساعاتي :

وما بحت لولا نفحة جلقية حبيس عليها طلّ دمعي ووابله
سُلافية الأنفاس مسكية الصبا وآخر تهياي اليها أوائله
حبيب إليّ (السهم) تندى شماله وأعطاف بان (السفح) تزهى شمائله
لنجدية أفياؤه وظلاله وسحرية أسحاره وأصائله

وزال هذا المتنزه ، واسمه مازال شائعاً على الألسن ، وقد أورده ابن الراعي بالتثنية (السهمين) .

(١) ونصيب متنزه أيضاً .

ومن متنزهاتها الخلخال ، وكان هو والمنيبع محلتين ، وفي محلة الخلخال سويقة وحوانيت وفرن وحمام وهي مسكن الأتراك (في القرن التاسع) وكذلك المنيبع والشرفان وبه تدق طبلخاناتهم وبها زاويتان ، وفي المنيبع محلة وسويقة وحمام وافران وبها مدرسة الخاتونية وهي من أعاجيب الدهر يمر بصحنها نهر بانياس ونهر القنوات على بابها وبجوارها دار الأمير ابن منجك (قاله البدري) .

الفصل الثامن

وصف الغوطة

أُعجب العرب بالغوطة منذ كانوا يرتحلون إليها في الجاهليه فردد شعراؤهم اسمها وفي مقدمتهم حسان بن ثابت شاعر الرسول عليه الصلاة والسلام . ولما كان العرب في شر المنازل أهل الحجر وأهل المدر وأهل الدّبر (الجبل) كانوا يدهشون كلما ابتعدوا عن الجزيرة وضربوا في سمت الشمال فاذا صاروا الى الشام ولاسيما عاصمتها وغوطتها يعجبون بأشجارها وزروعها ، ومنها مالا يُعرف في جزيرة العرب ، ويدهشون لخصبها ومياهها الدافقة وقد فارقوا وادياً غير ذي زرع . ولا عجب أن تغنى الشعراء في الاسلام بالغوطة ، واعجب بها أهلها والقاصدون اليها حتى قال أبو بكر الخوارَزْمي : ان جنان الأرض أربع : صُغد سمرقند ، ونهر الأُبلة ، وشِعب بوّان ، وغوطة دمشق . قال انه زارها كلها فكان في رأيه فضل غوطة دمشق على الثلاث كفضل الاربع على غيرهن ، وقال : كأنها الجنة وقد زخرفت وصُوّرت على وجه الأرض .

يتألف من مجموع ماورد على ألسن الشعراء في وصف الغوطة ديوان لطيف ، ومنه ما كان من الشعر الجيد لأنه صدر عن شعراء

مشهورين ، وأدب الغوطة يجمع بين خصائص كثيرة منها الوصف والعاطفة والتاريخ . وأرض كلها شعر لايستغرب فيها أن توحي الشعر للشعراء ويتغنوا بما خصها به الفاطر من البدائع ويخلدوها بمجمين على محاسنها ونحن نقتطف طاقات من تلك الأزهار نقدمها ذكرى لما في بطن الغوطة من خيرات ومباهج .

أطلق البحتري على الغوطة اسم صحراء دمشق في قصيدته التي مدح بها المتوكل العباسي لما نقل دواوين الملك إلى عاصمة الشام وهي التي يقول في مطلعها :

العيش في ليل (داريا) اذا بردى ... والراح نمزجها بالماء من (بردى)

الى أن قال :

أما دمشق فقد أبدت محاسنها ... وقد وفى لك مطريها بما وعدا
اذا أردت ملأت العين من بلد ... مستحسن وزمان يشبه البلدا
يمسي السحاب على أجبالها فرقاً ... ويصبح النبت في صحرائها بددا
فلست تبصر الا واكفاً خضلاً ... أو يانعاً خضراً أو طائراً غردا
كأنما القيظ ولىّ بعد جيئته ... أو الربيع دنا من بعد مابعدا

وفي الشام يقول :

عنيت بشرق الأرض قدماً وغربها ... أجوب في آفاقها وأسيرها
فلم أر مثل الشام دار اقامة ... لراح اغاديها وكأس أديرها
مصحة أبدان ونزهة أعين ... ولهو نفوس دائم وسرورها

مقدسة جاد الربيع بلادها ... ففي كل أرض روضة وغديرها

وقال الصنوبري :

أمرُّ (بدير مران) فأحيا ... واجعل بيت لهوي (بيت لهيا)
ويبرد غلتي (بردى) فسقياً ... لأيامي على (بردى) ورعيا
تفيض جداول البلور فيها ... خلال حدائق ينبتن وشيا
فمن تفاحة لم تَعْدُ خداً ... ومن رمانة لم تخْطِ ثديا
ونعم الدار (داريا) ففيها ... حلالي العيش حتى صار أريا
ولي في (باب جيرون) ظباء ... أعاطيها الهوى ظبياً فظبيا
هي الدنيا دمشق لسا كنيها ... فلست أريد غير دمشق دنيا

وقال ابن منير الطرابلسي :

حيّ الديار على علياء (جيرون[1]) ... مهوى الهوى ومغاني الخرّد العين
مَرَاد لهوي إذ كني مصرّفة ... أعنة العيش في فيح الميادين
(بالنيربين) (فمقرى) (فالسرير[2]) (فجـ ... ـرايا[3]) فجوّ حواشي جسر (جسرين)

(١) جيرون سقيفة مستطيلة على عمد وسقايف وحولها المدينة تطيف بها — قاله ياقوت في المعجم . وفيه أن جيرون حصن قال : والمعروف اليوم أن باباً من أبواب الجامع بدمشق وهو بابه الشرقي يقال له باب جيرون وفيه قوارة ينزل عليها بدرج كبير في حوض من رخام وقبة خشب يعلو ماؤها نحو الرمح .

(٢) لم نهتد إلى السرير والغالب ان الشاعر استعملها للتعبير عن المهد لان من الاساطير ان في الربوة مهد عيسى .

(٣) ليست جمرايا من الغوطة وهي مزرعة فوق المامة من الغرب وفيها قال الشاعر الواساني من شعراء اليتيمة قصيدته البديعة فيمن آذوه بالنزول عليه.

(فالقصر)(فالمرج)(فالميدان)(فالـ ... رف الاعلى)(فـطرا)(فجرمانا)(فقلبين)
(فالماطرون) (فداريا) فجارتها (فآبل [1]) فمغاني (دير قانون)
تلك المنازل لا(وادي الأراك)ولا (رمل المصلى)ولا اثلات(يبرين [2])
واها لطيب غُديات الربيع بها وبرد أنفاس آصال التشارين
وبَطَّيني [3]لدار الروم ماشهرت (بدير مران) أعياد الشعانين
أبدت دمشق ربيعاً جلَّ صانعه يأتيك في كل حين غير ممنون

والماطرون موضع قرب دمشق عدَّ من بدائعها ونسب ليزيد ابن معاوية قوله :

ولها (بالماطرون) اذا اكل النمل الذي جمعا
خُرْفة [4] حتى اذا ربعت ذكرت من(جلَّق (بيعا)
في قباب حول دسكرة بينها الزيتون قد ينعا

ونسبوا اليه بيتين قيل انه قالهما لما أصاب المسلمين سبأ بأرض الروم وهما :

---

(١) آبل ودير قانون في سوق وادي بردى .
(٢) وادي الاراك قرب مكة يتصل بغيقة والمصلى موضع بعينه في تحقيق المدينة ، ويبرين من أصقاع البحرين وهناك الرمل الموصوف بالكثرة بينه وبين الفلج ثلاث مراحل وبينه وبين الاحساء وهجر مرحلتان وهو فيما بينها (ياقوت).
(٣) في القاموس : طَبَّيْته عن صرفته واليه دعوته كأطبيته .
(٤) الخرفة بالضم المخترف والمجتني كالخرافة .

وما أبالي بما لاقت جموعهم بالخذقونة من حمى ومن موم
اذا اتكأت على الأنماط مرتفقاً (بدير مران)عندي ام كلثوم [1]

وقال العماد الكاتب كاتب صلاح الدين يوسف بن أيوب :

اهدى النسيم لنا ريا الرياحين أم طيب أخلاق جيراني (بجيرون)
هبت تنبه إطرابي وتبعثها مني وتوجب للتهويم تهويبي
وما درينا أ (داريا) لنا أرجت أم دار في دارنا عطار (دارين [2])
ورب همّ فقدناه (بربوتها) ورب قلب أضعناه (بقُلبين)
لولا جسارة قلبي ماثبت على الـ ـمبور من طرب في جسر (جسرين)
يصيبك(ميطورها)طوراً(ونيربها) طوراً وبوليك احساناً(بتحسين)[3]
نعيمها غير ممنوع لساكنها كالخلد ، والمن فيها غير ممنون
أهوى مقرّي (بمُقرى)والرياض بها للزهر مابين تفويف وتزيين
هاجت بلابل قلبي المستهام بها بلابلُ الأيك غنتنا بتلحين
تتلو (بسطرا) أساطير الغرام على صوامع الدوح ورُق كالرهابين
قمريّها مقرئ يشدو بنغمته آياً يعلمها من غير تلحين

---

(١) الموم البرسام وأم كلثوم امرأته والخذقونة أو الغذقدونة بلد في الروم وهو الثغر الذي فيه المصيصة وطرطوس وأذنة وعين زربة .
(٢) دارين فرضة بالبحرين يجلب اليها المسك من الهند (ياقوت) .
(٣) لم نعرف قرية أو متنزهاً بهذا الاسم .

ولابن منقذ الكناني في وصف دمشق حاضرة الغوطة الكبرى وما اليها قصيدة مطولة جمع بها كل المحاسن ومما قال فيها :

واذا مررت على المنازل معرضاً ... عنها قضى لك حسنها ان تقبلا
ان كنت لاتستطيع أن تتمثل الـ ... فردوس فانظرها تكن متمثلا
واذا عنان اللحظ اطلقه الفتى ... لم يلق الا جنة او جدولا
او روضة او غيضة او قبة ... او بركة او ربوة او هيكلا
او واديا او ناديا او ملعبا ... او مذنبا او مجدلا او موئلا
او شارعاً يزهو بربع قد غدا ... فيه الرخام مجزّعاً ومفصلا
وفواكه متخالف أصنافها ... مما يشوقك مطعماً وتأملا
مصفر تفاح بدا في أحمر ... يحكي المحب أتى الحبيب مقبلا
والورد مثل الخد يعلوه من الـ ... ريحان صدغ شعره قد رُجّلا
وبنفسج كنفاضة من أثمدٍ ... تبديه أجفان البكاء تذللا
وتخال نَوْر الباقلاء اذا بدا ... للواحظ الأبصار طرفاً احولا
نشرت مطارفه وجاءك نشرها ... خسبتها وشياً تأرج مندلا
ويهزّ مرّ نسيمها أشجارها ... فتخال غادات تشكت إفكلا[1]
وعلت غصون خلافه محمرةً ... وهفت بها ريح فضاهت مشعلا
واذا البلابل اسمعت ترجيعها ... السالي تراجع وَجده متبلبلا

(١) الرعدة من الخوف أو البرد

ومتى هوى وَرق الغصون وجدته ... ذهباً وكان زمرداً لما علا
وكأن (واديها) قراب اخضر ... يستل من (بردى) حساماً منصلا

ذكر ابن عساكر أن أبا الفتح المسلم بن هبة الله الكاتب ألف رسالة في تفضيل دمشق على غيرها من البلاد ذكر فيها بعض خواصها وبعض ما قالت الشعراء في وصفها ولم يبلغ في ذلك كنه حقها ولم يوفها ، فقال في أثناء الرسالة : ومن صفتها ، واظن هذه الأبيات له :

دِمن كأن رياضها ... يُكسين اعلاق المطارف
وكأنما نُوّارُها ... يهتز بالريح العواصف
طرر الوصائف يلتقين بها الى طرر الوصائف
وكأنما غدرانها ... فيها عشور في مصاحف

ثم قال بعد أوراق ولقد سافرت عن دمشق دفعات فكان انشادي :

وما ذقت طعم الماء إلا وجدته ... كأن ليس بالماء الذي كنت أعرف
ولا سرّ صدري مذ تناءت بي النوى ... انيس ولا مال ولا متصرف
ولم أحضر اللذات إلا تكلفا ... وأي سرور يقتضيه التكلف

وقوله وكأنما غدارنها فيه اشارة لطيفة الى ما فيها من أنواع

الغدران على أنهارها السبعة وكان الناس يقصدونها للنزهة في كل زمن . ذكروا أن الأخطل جاء إلى معبد المغني في قدمة قدمها الى الشام فقال له معبد : اني أحب محادثتك فقال له وانا أحب ذلك وقاما يتصيحان الغدران حتى وقفا على غدير فنزلا وأكلا فتبعهما اعرابي فجلس معهما لا يعرفانه ولا يستخفانه فشرب شرابهما وثقل عليهما فقال الأخطل في ذلك :

وليس القذى بالعود يسقط بالإبا ... ولا بذباب خطبه أيسر الامر
ولكن شخصاً لا تسر بقربه ... رمتنابه الغيطان من حيث لاندري

وقال ابن عُنين وهو بالهند يتشوق الى دمشق وغوطتها :

حنين الى الاوطان ليس يزول ... وقلب عن الأشواق ليس يحول

الى أن قال :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... وظلك (يا مُقرى) علي ظليل
وهل أربي بعد ما شطت النوى ... ولي في ذرى روض هناك مقيل
دمشق فبي شوق اليها مبرح ... وان لجّ واش أو ألح عذول
بلاد بها الحصباء در وتربها ... عبير وأنفاس الشمال شمول
تسلسل فيها ماؤها وهو مطلق ... وصح نسيم الروض وهو عليل
فياحبذا الروض الذي دون (عزتا) ... سحيراً اذا هبت عليه قَبول

وياحبذا الوادي اذا ما تدفقت ... جداول (باناس) اليه تسيل
وفي كبدي من (قاسيون) حرارة ... تزول رواسيه وليس تزول
اذا لاح برق من (سنير) تدافعت ... بسحب جفوني في الخدود سيول
فلله أيامي وغصن الصبا بها ... وريق واذ وجه الزمان صقيل

وعزتا قرية من نواحي وادي بردى كانت قرب الفيجة ، وقد أكثر الشاعر من ذكرها في ديوانه ، ويقول ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار : ان عين الفيجة تخرج في مكان تحت حصن عزتا فلعلها هي التي يتغزل بها الشاعر

ومما قال :

يذكرني البرق الشآمي إن خفا ... زماني بكم ياحبذا ذلك الزمن
وياحبذا الهضب الذي دون عزّتا ... اذا ما بدا والثلج قد عمم القُنَن
أأحبابنا لا أسأل الطيف زورةً ... وهيهات أين (الديماميات) من عدن

والديماميات في ضواحي دمشق .

وقال :

في روضة (بالنيربين) أريضة ... رضعت أفاويق السحائب حُفَّلا
أنى اتجهت رأيت ماء سائحاً ... متدفقاً أو يانعاً متهدلا
وكأنما أطيارها وغصونها ... نغم القيان على عرائس تجتلى
وكأنما الجوزاء ألقت زهرها ... فيها وأرسلت المجرة جدولا

ويمر معتل النسيم بروضها فتخال عطاراً يحرق مندلا

وقال فتيان الشاغوري يصف أصول أنهار دمشق ويستفتح ببردى :

كأن طيور الماء فيه عرائس مُجلين على شاطيه خضر الغلائل
اذا كرعت فيه تيقنت أنها تزق فراخاً وهي زُغب الحواصل
وكم سمكٌ فيه عليه جواشن (١) من التبر صيغت وهو بادي المقاتل
جريح بأطراف الحصا تخريره أنين له من جس تلك الجنادل
اذا قابل النهر الدجى بنجومه أرانا بقعر الماء ضوء المشاعل
تغلغل في الوادي فوافى كقينة منعمة حسناء ليست بعاطل
فعانقها حتى انثنت مشمعلة (٢) تقل على ظهر الصفا بطن حامل

قال ياقوت : وكان حسان بن نمير المعروف بعرقلة الدمشقي يذكر (جلق) ويصف كثيراً من نواحيها

ومن قصيدة وازن بها عرقلة قصيدة أبي نواس (أجارة بيتينا أبوك غيور) مدح بها صلاح الدين يوسف بن أيوب وقصده بها الى مصر كما فعل أبو نواس في قصيدة الخصيب جاء فيها :

عسى من ديار الظاعنين بشير ومن جور أيام الفراق مجيرُ
لقد عيل صبري بعدهم وتكاثرت همومي ولكن المحب صبور
وكم بين أكناف (الثغور) متيم كئيب غربته أعين وثغور

(١) الجواشن الدروع . (٢) سريعة .

وكم ليلة (بالماطرون) قطعتها ويوم الى (الميطور) وهو مَطير
سقى الله من (سطرا) و (مُقرا) منازلاً بها للندامى نضرة وسرور
ولا زال ظل (النيربين) فانه طويل ويوم المرء فيه قصير
ويا (بردى) لا زال ماؤك بارداً وماء الحيا من حافتيك نمير
أبى العيش الا بين أكناف (جلق) وقد لاح فيها أشمس وبدور

وقال عرقلة أيضاً :

أما دمشق فجنات مزخرفة للطالبين بها الولدان والحورُ
ما صاح فيها على أوتاره قمر الا وغناه قمري وشحرورُ
يا حبذا ودروع الماء تنسجها أنامل الريح الا أنها زور

وقال :

تؤرّق ورقُ (الغوطتين) لواحظي وينحل جسمي حب غزلان جاسم (١)
أأحبابنا ان كنتم قد عزمتمو على البعد من أطلالكم والمعالم
فلا ترسلوا برقا الى غير ساهر ولا تبعثوا طيفاً الى غير نائم

وقال :

دمشق حييت من حي ومن نادي وحبذا حبذا واديك من وادي
يارائحاً غادياً عرّج على (بردى) وخلني وحديث الرائح الغادي
كم قد شربت به من ماء دالية في ظل دالية تنبيك عن عاد

(١) جاسم من قرى حوران ينسب اليها أبو تمام الشاعر العظيم .

في جنب ساقية من كف ساقية كادت تثنّى بقد غير ميّاد
لها بعيني اذا ماست معاطفها جمال مياسة في عين مقداد

ومن أجمل ماورد فيه اسم جلق من الشعر القديم أبيات لأبي فراس طراد بن علي السلمي الدمشقي المتوفي سنة أربع وعشرين وخمسمائة وهي :

يانسيماً هبّ مسكاً عبقاً هذه أنفاس ريّا [1] جلقا
كفّ عني، والهوى، ما زادني برد أنفاسك الا حُرَقا
ليت شعري نقضوا أحبابنا يا حبيب النفس ذاك الموثقا
يارياح الشوق سوقي نحوهم عارضاً من سحب عيني غدقا
وانثري عقد دموع طالما كان منظوماً بأيام اللقا

اشتهرت هذه الأبيات وغنى بها المغنون، وروي عن بعضهم انه مرّ يوماً ببعض شوارع القاهرة وقد ظهرت جمال كثيرة حمولتها تفاح فتحي من الشام فعبقت روائح تلك الحمول فأكثر التلفت لها، وكانت أمامه امرأة، ففطنت لما داخله من الاعجاب بتلك الرائحة فأومأت اليه وقالت : هذه أنفاس ريا جلقا .

قلنا ان من الشعراء من ثنوا الغوطة كما ثنوا النيربين والغيطتين وفخروا بالواديين (وادي بردى ووادي معربا - منين) وأجاد

(١) الريا الريح الطيبة .

في ذلك عبد الرحيم بن المحسن الصوري التنوخي (٥٤٢) في قوله :

هاج اشتياقك برق خاطف لمعا وهنا ونوح حمام الأيك اذ سجعا
اضاء منه الحمى لما تألق من اكناف نجد فأذكى الوجد والجرعا
يا برق ما العهد مني لديك ولا حبل الهوى رثّ لما بنت فانقطعا
اقسمت بالرب والبيت الحرام ومن اهلّ معتمراً من حوله وسعى
ان الأولى بنواحي الغوطتين وان شطّ المزار بهم يوماً وان شسعا
اشهى الى ناظري من كل ما نظرت عيني وفي مسمعي من كل ما سمعا
ولا (كفرطاب[1]) عندي بالحمى عوضاً نعم سقى الله سكان الحمى ورعا

وثناها أيضاً الشهاب التلعفري (٦٧٥) بقوله :

احبابنا بنواحي (الغوطتين) سقى ربوعكم وابل من دمعي الذرف
قد كنت قبل النوى اشكو الصدود فوا لهفي على الصد يومي ذا ويا أسفي
جادتك ياساحتي (جيرون) سارية من السواري الثقال الوكف الوطف
ولا تعداك يا (باناس) منهمر يهمي على (القصر) و (الميدان) و (الشرف)

وقال أيضاً يصف بعض متنزهات دمشق :

(١) قال ابن العديم كانت كفرطاب مشحونة بأهل العلم وكان بها يقرأ الأدب ويشتغل به وهي على مقربة من معرة النعمان خربت اواخر القرن الخامس . ويقول المؤرخون انه لم يسلم أحد من كفرطاب في زلزال سنة ٥٥٢

جريت بحمراء الكميت الى (الشقرا) مقر الهوى حسناً واعرضت عن مقرا
وابصرت مابين (الميادين) سائلا فلم ار الا ان اقابله نهرا
فلله ايام تولت بجانبي (يزيد) فقد كانت لبهجتها العمرا
وما كان مقصودي يزيد وبرده ولكن قصدي كان انظر الزهرا

وقال ابن الدهان الموصلي من قصيدة :

نشوى تغني لها ورق الحمام على أوراقها ويد الأنواء تسقيها
صفا لها الشرب فاخضرت أسافلها حتى صفا الظل وابيضت أعاليها
وصفق النهر والاغصان قد رقصت فنقطته بدر من تراقيها
كأنما رقصها أوهى قلائدها وخانها النظم فانثالت لآليها
وقابل الغصن غصن مثله وشدت أقارها فأجابتها قماريها

ومنها :

سماء دوح ترد الشمس صاغرة عنا وتبدي نجوماً في نواحيها
ترى البدور بها في كل ناحية ممدودة للنجوم الزهر ايديها
اذا الغصون هززناها لنيل جنى صارت كواكبها حصباء ارضيها
من كل صفراء مثل الماء يانعة تخالها جمر نار في تلظيها

وقال موفق الدين بن عبد السلام من قصيدة يصف دمشق منها :

وانهارها مابين ماء مسلسل من الريح او ماء من الدفق مطلق
واشجارها من كل جنس مقسم واثمارها من كل نوع منمق

وقال عين بصل الحراني من قصيدة :

اما ترى الارض اذ أبكى السحاب بها آذارها ضحكت اذ جاء نيسانُ
والزهر كالزهر حياه الحيا فبدت في الروض منه الى الأبصار ألوان
زمرد قضب فيها مركبة جواهر ويواقيت ومرجان
كأنما الورد خد الحب حين غدا له العذار سياجاً وهو ريحان
كأن منثورها اذ لاح مبتسماً جيش من الروم بانت منه صلبان
كأنما البان اهدى المسك حين بدا فعطّر الكون لما أورق البان
كأن ريح الصبا طافت بخمر هوى من الرياض فكل الكون نشوان
كأنما حمرة التفاح خد رشا لي في هواه عن السلوان سلوان
كأن نار نجيها نار وباطنه ثلج وفيه لجين وهو عقيان
والطير تُطرب بالعيدان نغمتها ماليس يطرب بالأوتار عيدان
أبدت فنوناً فأفنت صبر سامعها بالنوح اذ حملتها فيه افنان
بلابل هيجت منا بلابلنا وهاج منا صبابات واشجان

وقال مجد الدين الاربلي يتشوق الى دمشق من قصيدة :

مواطن فيها (السهم) سهمي فكلنا نحثُ مطايا اللهو فيه ونُعنقُ

كلا جانبيه مُعْلَم بمجمد ... من الماء في اطلاله يتدفق
اذا الشمس حلت بينه فهو مذهب ... وان حجبتها دوحه فهو أزرق
وان فرّج الأوراق جادت بنورها ... فرقم [1] أجادته الأكف منمق
أطل عليه (قاسيون) كأنه ... غمام معلى أو لَغام معلق
تسافر عنه الشمس قبل غروبها ... وترجف اجلالاً له حين تشرق
وتصفر من قبل الأصيل كأنها ... محب من البين المشتت مشفق
بدائع من صنع القديم ومحدث ... تأنق فيه المحدث المتأنق
رياض كوشي البرد تزهو بحسنها ... جداولها والنَّوْر بالماء يشرق
فمن برجس يخشى فراق فريقه ... ترى الدمع في أجفانه يترقرق
ومن كل ريحان مقيم وزائل ... تضاعف رياه الرياح فيعبق
كأن قدود السرو فيه موائساً ... قدود عذارى ميلها يترقرق
اذا ما تداعت للتعانق صدها ... عيون من النوْر المفتح ترمق
وقصر بكلّ الطرف عنه كأنه ... الى النسر نسر في السماء محلق
زها ببديع الوشي حسناً كأنما ... مدبّج روض في نواحيه ملصق
وكم جدول جار يطارد جدولاً ... وكم جوسق عال يوازيه جوسق
وكم بركة فيه تضاحك بركة ... وكم قسطل في الماء للماء يدفق
وكم منزل يعشي العيونَ كأنما ... تألق فيه بارق متألق

(١) الرقم ضرب مخطط من الوشي أو الخز أو البرود .

وفي (الربوة) الشماء للقلب جاذب ... وللسمع اصمات وللعين مرمق
فهام بها الوادي ففاضت عيونه ... فكل قرار منه بالدمع يغلق
تكفل من دون الجداول شربها ... (يزيد) يصفيه لها ويصفق
اذا أشرف الولدان من شرفاتها ... رأيت بدوراً في بروج تألق
وفي (بردى) مغنى يشوق ومنظر ... يروق ومأوى للسرور ومطرق
اذا أنت من أعلاه اشرفت ناظراً ... تجيل عنان الطرف فيه وتطلق
رأيت به بحراً من الدوح مزبداً ... وغدرانه حيتانه منه ترمق
تميل مع الأفنان فيه كأنها ... نشاوى وما دار الرحيق المعتق
وتعطف اعطاف الغصون حمامة ... اذا ماتغنت والغدير يصفق
وتجمع فيه كل حسن مفرق ... وشمل الأسى عن حاضريه مفرق
كأن رياض (الغوطتين) جنوده ... يقسم فيها جوده ويفرق

وهكذا أجاد وأطال وذكر المزة وسطرا ومقرا وبيت ابيات وجسرين والصالحية وتل راهط وبعض شوارع دمشق وجامعها وتوفي سنة ٦٩٧ .

وقال ابن الصائغ العروضي (٧٢٢ هـ) يتشوق الى عاصمة الغوطة أيضاً ويذكر أرباضها ورياضها بدأها بقوله :

لي نحو ربعك دائماً يا جلق ... شوق أكاد به جوىً أتمزق

الى أن قال مخاطباً دمشق :

ولكم أحدث عنك من لاقيته ... وجميع من سمع الحديث يصدق
والأرض في عرض وطول دائما ... لم يحو مثلك غربها والمشرق
لله (وادي النيربين) وظله ... لا (الرقتين) و(رامة) و(الابرق)[1]
وسقى ديار (الصالحية) وابل ... يهمي على تلك المنازل مغدق
و(السهم) ما افترت ثغور أقاحه ... الا ودمع سحابه يترقرق
كم فيه من قصر منيف مشرف ... يبدو به قمر منير مشرق
(وبيت لهيا) لا تعداه الحيا ... طلل عليه من النضارة رونق
هو منزل آثاره مشهورة ... ولأهله عهد عليّ وموثق
وحباك يا أطلال (جوبر) واصلا ... غيث مريع مستهل مشفق
لله سرحة ذلك الربع الذي ... قلبي يهيم به وذاك الجوْسق
و (القصر) و (الشرفان) و (الشقراء) و (الميدان) عشقا الذي لا يعشق
فلكم حوت تلك المنازل صورة ... فيها الجمال مجمع ومفرق
فمخضب ومؤزر ومعمم ... ومزنر ومبرقع ومقرطق

(١) الابرق والبرقاء حجارة ورمل مختلطة وكذلك البرقة وهي عدة اماكن تضاف الى أمكنة أخرى . ورامة منزل بينه وبين الرمادة ليلة في طريق البصرة الى مكة وفيها جاء المثل : تسألني برامتين سلجما . والرقتان تثنية الرقة وهو مجتمع الماء في الوادي والرقتان روضتان احداهما قريبة من البصرة والاخرى بنجد .

كم من غزال بالنفوس متوج ... وقضيب بان بالعيون ممنطق
والريح تكتب والجداول أسطر ... خط له نسخ الربيع محقق
والطير يقرأ والنسيم مردد ... والغصن يرقص والغدير مصفق
ومعاطف الأغصان أثنتها الصبا ... طرباً فذا عار وهذا مورق
وكأن زهر اللوز أحداق الى الزوار من خلل الغصون تحدق
وكأن أشجار الرياض سرادق ... في ظلها من كل لون نُمرق[1]
والورد بالألوان يحلو منظراً ... ونسيمه عطر كمسك يعبق
فبلابل منها تهيج بلابلاً ... وكذاك أثواب الشقيق تشقق
وهزاره يصبو الى شحروره ... ويجاوب القمريّ فيه مطوق
وكأنما في كل عود صادح ... عود حلا مزمومه والمطلق
والوُرق في الاوراق يشبه شجوها ... شجوي وأين من الخليّ الموثق
تتلو على الأغصان أخبار الهوى ... فيكاد ساكن كل شيء ينطق

وقال شيخ الربوة في الغوطة (٧٢٧) .

شموس وأقمار من النَّوْر طلع ... لذي اللهو في اكنافها متمتع
كأن عليها من مجاجة طلها ... لآلىء الا أنها منه ألمع
نشاوى تثنيها الرياح فتنثني ... يعانق بعض بعضها ثم يرجع

(١) النمرق والنمرقة مثلثة الوسادة الصغيرة والنمرقة بالكسر من السحاب ما كان بينه فتوق .

وقال تاج الدين الصرخدي من قصيدة وكتب بها من مصر :

اشرف على الشرف الاعلى اذا سنحت ... لك الظباء بسرحات الميادين
في يوم سبت ترى الوفرات جائلة ... على المناكب امثال الثعابين
وسهمها حي ذاك «السهم» فهو لقا ... بي السهم منه سهام الشوق تصميني
واقر السلام على (الوادي) وسرحته ... وحي « باناسها » عني فتحييني
وقف (بمسجد خاتون) فان به ... و (بالمنيع) اضحى القلب في هون
وان اتيت الحمى وهنا فحيّ به ... حيّا اقاموا (بجرمانا) و (جسرين)
وابرز (ببرزة) حيث الماء منحدر ... يسوح بين رياض للرياحين
يشفي الغليل برياه ويسعدها ... روائح خطرت من قلب (قلبين)
وامطر دموعك بالميطور وابك على ... زمان لهو قطعناه (بعربين)
وسل حمائم ذاك الدوح مبتكراً ... ينحن شجواً بافنان البساتين
حيث الشقائق تلقى خدها خفرا ... والورد يزهى بمنثور ونسرين
والنرجس الغض قد اضحت مجامره ... تحكي فتور عيون الخرّد العين
الى أن يقول :

ما المقس داري ولا السبع الوجوه أرى ... المقام فيها وليس التاج يعنيني
ولست آسف يوماً ان ظعنت عن (الـ ... قياس) والنيل طام مثل جيحون
ولا أرى نظر (الاهرام) يقنعني ... عن جوسق في ربى (جدّيا) و (زبدين)
كلا ولا ساحة (القصرين) تقطعني ... عن حسن جامعها يوماً وتلهيني

ولا القرافة تثنيني زيارتها ... عن قاسيون ولا الارصاد تسليني
ولا أرى نزهتي في اللوق لائقة ... من بعد سطرا ومقرى والطواحين
ولا تعوضت عن باب البريد بما ... اراه في الليل من سود الدخاخين
هذا حديثي وما حال الزمان ولا ... طال المطال وعندي من يسليني
سأرحل العيس عنها وهي صاغرة ... الى الشآم وادنى الرزق يكفيني
اسعى له فيعنيني تطلبه ... ولو قعدت اتاني لا يعنيني

ولعبد المنعم الجلياني الاندلسي شاعر صلاح الدين قصيدة في الغوطة مطلعها : عهود ليلى وما ضمّت لياليها

قال فيها :

وليلة (الربوة) الشماء معلمة ... حتى الصباح بروح الذكر نحييها
مأوى ابن مريم في مسرى سياحتها ... قد بوركت بمعانيه مغانيها
تحفها سبعة لو سد مسربها ... لطمّ شامخة الآطام طاميها
كأنها الحجر الملقى عصاه به ... موسى ففجر للأسباط جاريها
كأنها درة أضحى (يزيد) لها ... خيطاً بلبّات آكام توالیها
معينة بحار يلتطمن بها ... معينة لخيار أختبوا فيها
وصخرة (المزة) الغراء ناطحة ... قرن الغزالة في مبدا تجليها
محلة السفح ماشيب السفوح بها ... بل مثل ماروّق الصهباء ساقيها
يغذى بها القلب أنفاساً بلا كدر ... فان يحلّ الوبا أطراف ثاويها

إن الهواء اذا رقت مناسمه ... في بلدة لطفت أخلاط أهليها

واذكر ضحى الشرف الاعلى إذا طلعت ... ذكاء من أفق أشجار توازيها

ومنظراً يستبي الألباب رائعه ... ويشغل النفس عن أشهى أمانيها

يرنو الى (بردى) ينساب في بَرَد ... في بُردتي سندس خضر حواشيها

تكسر الماء بلوراً وراكده ... كالفضة الحوق[1] مصقول عواليها

وحيث شئت فأشجار تمد على ال ... أنهار ظلاً يُغشي من يوافيها

فكل صورة أنس في منازلها ... وكل نزهة نفس في روابيها

لولا أمور وأرزاق مقدرة ... لم يرتحل عن دمشق حاضر فيها

وقال امير الشعراء احمد شوقي من المعاصرين يصف الغوطة من قصيدة :

آمنت بالله واستثنيت جنته ... دمشق روح وجنات وريحان

قال الرفاق وقد هبت خمائلها ... الارض دار لها (الفيحاء) بستان

جرى وصفق يلقانا بها (بردى) ... كما تلقاك دون الخلد رضوان

دخلتها وحواشيها زمردة ... والشمس فوق لجين الماء عقيان

والحور في (دمر) او حول (هامتها) ... حور كواشف عن ساق وولدان

و (ربوة) الواد في جلباب راقصة ... الساق كاسية والنحر عُريان

والطير تصدح من خلف العيون بها ... وللعيون كما للطير ألحان

(١) الحوق من حاق الشيء يحوقه : دلكه ولمسه .

وأقبلت بالنبات الأرض مختلفاً ... أفوافه فهو أصباغ وألوان

وقد صفا (بردى) للريح فابتردت ... لدى ستور حواشيهن أفنان

ثم انثنت لم يزل عنها البلال ولا ... جفت من الماء أذيال وأردان

خلفت (لبنان) جنات النعيم وما ... نُبئت أن طريق الخلد لبنان

ولصديقنا الأستاذ السيد خليل مردم بك الدمشقي من المعاصرين قصيدة يصف فيها ما في الغوطة من جمال وروعة :

غوطة دمشق

كم في أزاهير الرياض لناظرٍ ... من مقلةٍ وسَنى وخدٍ ناضرِ

ماست أماليدُ الغصون بوشيها ... معطارةً وازَّينَتْ بجواهرِ

لله ما صنعتْ وما جادتْ به ... في «الغوطتين» يدُ الربيع الباكرِ

بسطتْ وثيرَ قطيفةٍ فوق الثرى ... خضراء فيها كلُّ لونٍ زاهرِ

من أحمرٍ قانٍ وأصفرَ فاقعٍ ... أو أزرقٍ زاهٍ وأبيض سافرِ

وكستْ وحلَّتْ سمحةً أشجارَها ... فجلتْ عرائسَها بوشيٍ فاخرِ

معقودةَ الاكليل زهراءَ الحُلى ... خفَّاقةَ الأقراط ذاتَ أساورِ

أرختْ من الظل الظليل غصونُها ... طُرَراً وأذيالاً وفضلَ مآزرِ

* * *

حيّا جنانَ «الغوطتين» وجادَها ... سَمْحُ القيادِ من السحاب الماطرِ

حلمٌ من الابداع فيها ماثل ... من دونه يعيا خيالُ الشاعرِ

تتناثر الأزهارُ في أجوائها ... مبثوثةً مثل الفَراش الناثرِ

فَنَنٌ يُرنحهُ النسيم كأنه ... نشوانُ من نَفَس برودٍ عاطرِ
عرقتْ جباهُ الزهر من قطر الندى ... ملتفةَ الأعناق ذاتَ تآطُرِ
كالبكر يرشحُ للحياء جبينُها ... عرقاً اذا ضُمَّت لصدر الهاصرِ
وإذا الرياحُ تأوهت سقط الندى ... من كل زاهرةٍ كدمع هامرِ
وترى الجميمَ اذا الرياحُ تناوحتْ ... متموّجاً مثلَ الغديرِ المائرِ
وشقائقُ النعمانِ في قيعانها ... تقطيعُ أكبادٍ وشَقُّ مرائرِ
والشمس من خلل الغصون على الثرى ... كدراهمٍ ألقتْ بها يدُ ناثرِ
وترى الجداول كالوذيلة رونقاً ... من مستقيم في المسير وجائرِ
والأيك في شطآنها كنعائم ... مَدَّتْ بأعناقٍ لها ومناقرِ

* * *

مرآةُ أحلامي ومرتعُ صبوتي ... وهوى فؤادي بل ومتعةُ ناظري
في كل مغنى من فؤادي شعبةٌ ... وبكل وادٍ هائمٌ من خاطري
وتكاد أخيلتي تطلُّ عليَّ في ... أرجائها من طائفٍ أو زائرِ
كم جولةٍ لي ثَمَّ حائرة الخطى ... بين الخمائل كالفَراشِ الحائرِ
يقتادني في كل شطرٍ جاذبٌ ... من منظرٍ نضرٍ وحسنٍ باهرِ
والزهر يلقاني بثغرٍ باسمٍ ... وبوجنةٍ حمرا وجفنٍ فاترِ
وأرى الغصون كأذرعٍ ممدودةٍ ... لتعانقٍ من بعد طولِ تهاجرِ

في كل ربعٍ مونقٍ لي وقفةٌ ... هي وقفة المسحور عند الساحرِ
أما العهود وان تقادم عهدُها ... فرتيمة الناسي وهمُّ الذاكرِ

* * *

قم في مشارف «قاسيون» وعجْ بها ... تشرفْ على صنع البديع القادرِ
دوحٌ كسامية القباب حيالها ... من باسقات الحور مثل مناثرِ
و «دمشق» ما بين الرياض سفينةٌ ... عامتْ على عالي الغوارب زاخرِ
لا تستبين العينُ في أبهاجه ... منها نقصتْ أولاً من آخرِ
تبدو الجبالُ الشمُّ من متعممٍ ... شابتْ مفارقه وأصلعَ حاسرِ

* * *

تتجاوب الأطيارُ في أفنانها ... من هاتفٍ أو ساجعٍ أو صافرِ
يا ربَّ سوداء الملاءة شمَّرتْ ... عن ساقها ورنتْ بعين مُعاقرِ
مخضوبة الكفين تحكي قينةً ... برقتْ بحمر مراشفٍ وأظافرِ
وثابةٌ ولها تلفُّتُ خائفٍ ... مترقبٍ لميامنٍ ومياسرِ
تتراقص الأغصانُ من تغريدها ... ميّادةً لتطاول وتقاصرِ
غنتْ بلحنٍ يستثير لواعجاً ... ويهيج من طربٍ دفينَ ضمائرِ
ريّانَ من دمعٍ ويلهب لوعةً ... كحنينِ مشتاقٍ وزفرة زافرِ
والطير لو أبصرتَ أسعد عيشةً ... يا ليت للانسان عيش الطائرِ

وقال الأستاذ الشيخ فؤاد الخطيب اللبناني من معاصرينا في الغوطة :

أنا في الغوطة أستوحي الشعورْ ان في الغوطة بعثاً ونشورْ
أحيت الأحداق في برجسها وأعادت في الأقاحيّ الثغور

* * *

ولقد حدثني رمانها أنه كان نهوداً في الصدور
وروى لي البان عن أعطافه أنه كان قدوداً وخصور
فلو اجتازت بها الروح لما كنت الا بين ولدان وحور

* * *

نثرت في أرضها حصباؤها درراً تنجم منها وشذور
ومشى الجدول في أرجائها كوثراً يسبح فيها ويمور
جلس الزهر صفوفاً حوله وهو كالراح على الشرب تدور
كلما استضحك عن لؤلؤة هتفت في فنن الأيك الطيور
جل من ألهمها تسبيحها هكذا الجنة والعبد الشكور

* * *

سبحي أيتها الطير له واملأي الغوطة شدواً وحبور
جمع الملتف من أغصانها كنس الغزلان فيها والخدور

والصبا تخفق في أطرافها مثلما يخفق في القلب السرور

* * *

فسل الروض وسل عنا الحمى تنطق الدار وأبراج القصور
وبطون القاع حامت فوقها قمم الهضب كأسراب النسور
والمروج الخضر في رأد الضحى لبست ثوبين من نَوْر ونور
كم نفضنا الصدر من كل أسى ونسينا الصد والجد العثور
وقضينا اليوم في ظل الهوى ليت ذاك اليوم قد طال دهور
وغضيض الأثل عن أيماننا كعذارى الحي أرخين الشعور

* * *

وخلونا بين أحشاء الربى خلوة الورق جثوماً في الوكور
وتشاكينا تباريح الجوى حولنا السوسن مستحي غيور
يحمل القول على علاته ونسيم الروض في الروض نفور
فجنينا الغض من أوطارنا وحظوظ الناس وبل وثبور

* * *

وأبى العوسج الا فتنة فزوى الشوك بألواذ الصخور
يرصد الغفلة أن يعلق بي علق الفاجر بالعف الوقور

طبعه الوخز اذا استشهدته قبح الموسج من شاهد زور

* * *

كم وثبنا غلس الليل معاً وثبة البرق خفاء وظهور
غلأ الأعين منا بغتة ثم تخفينا الزوايا والستور
ملعب تعمره الروح فما فيه الا نحن والروح حضور
أشرق البدر علينا ورنت نحونا الأنجم كالأعين صور

* * *

ولبثنا ساعة أو شبهها نتعاطى الكأس من غير فتور
ويد تمسك منا بيد تقصد الرعشة فيها وتجور
وفم فوق فم تسمع من وقعه اللثمة تترى فتثور
تصعد الزفرة من أثنائها خلل الأنفاس كالقدر تفور

* * *

نحن لا نصبر عن حكم الهوى ان عددت الصبر من عزم الأمور
فخذ العفو من الذنب فكم زلة يغفرها الله الغفور

* * *

مرحباً بالفجر والصوت الذي قرع السمع بشيراً بالبكور

ولقد خطت يد الله على صفحة الكون من الخلق سطور
لفظ المقدار منهم آية بعد أخرى ملأت سمع العصور
فانهب اللذة في ابانها وذر الغافل عنها في غرور
ودع النوم وان لج الكرى فغداً تشبع نوماً في القبور
تطبق الأجفان في ظلمتها وهي لا تعرف للصبح سفور

الفصل التاسع

ثمار الغوطة وزروعها

يجود في الغوطة معظم الثمار والحبوب والبقول التي تجود في الأقاليم المعتدلة، ولا يجود فيها الليمون والبرتقال والموز والنخيل للبرد القارس في الشتاء فان الحرارة تنزل أحياناً الى خمس وأحياناً الى عشر درجات وأكثر تحت الصفر.

اشتهرت داريا بعنبها الزيبي وغيره ويقل نظيره في أنواع العنب الجيد وقد جرت تجارب بنقل جفنات كرومها وزرعت في غير أرضها فما أتى كالعنب الذي يأتي من كروم داريا. وعرفت دومة بعنبها الأحمر اللذيذ، ويجود الزيتون على أنواعه اجمالاً في القرى التي تكثر في أرضها الحصباء وليست لزجة التربة كبرزة والقابون وحرستا ودومة والمزة وكفرسوسة وبلدا وبيلا وحوش الريحانية وغيرها، والزيتون في العادة يحمل (يطرح) سنة ويعمل سنة أخرى لأن أصحابه اعتادوا أن يضربوه بعصي كبيرة تقضي على الطرابين فلا يخلف من قابل. ذكر المؤرخون أن هشام بن عبد الملك

الخليفة الأموي، وكان بعيد النظر في الأمور الاقتصادية، وقف يوماً قريباً من حائط فيه زيتون له فسمع نفض الزيتون فقال لرجل: انطلق اليهم فقل لهم: التقطوه ولا تنفضوه فتفقؤا عيونه وتكسروا أغصانه.

ويجود القنب في الغوطة الوسطى ولا مثيل لجنسه فيما يزرع منه في بعض قرى حلب وغيرها. يجود في أرض المحمدية وحمورية والافتريس وجسرين وسقبا وكفربطنا وعين ترما وزبدين والبلاط والحديثة والمنيحة وجرمانا وعقربا وبيت سحم وبيت سوا، أي في القرى التي تسقى من نهري المنيحي والداعياني اللذين يحملان أوساخ دمشق كما يجود في أرض الشاغور والعنابة والقنوات والميدان وفي البساتين الواقعة على ضفافي هذين النهرين. ومحصول القنب في القرى التي تتوفر على زراعته قد يزيد على نصف محصولها السنوي من سائر أصناف الحبوب والثمار، وزراعته صناعة عظيمة كالكرمة في داريا ودومة. وتستأثر قرية سقبا وحدها بأكثر من نصف المحصول تستخرج أعواده وأليافه.

ولكل قرية أو بضع قرى في الغوطة خاصة لا يشاركها فيها سواها. فقد اشتركت بساتين الصالحية وقريتا كفرسوسة والقابون بالبقول والخضراوات لا يجاريها مجار في هذه السبيل، يساعد على

هذا التفرد كثرة المياه فيها وقربها من الحاضرة . واشتهرت جسرين ببزر الفصة وبزر الخيار وعرفت حرستا وما اليها بالبيقية والأينسون والسمسم وعربيل بلوزها وزملكا بكمثراها ودومة ببطيخها الأصفر وبيلا والقدم بقشدتها والحديثة والمنيحة وزبدين وبالا باخشابها .

وأكثر ما في الغوطة من الأشجار المغلة المشمش على أنواعه ، ويكاد يكون مشمش الغوطة منقطع النظير بمائيته ونكهته وقد يفوق مشمش كليفورنيا كما أكد العارفون . واستخراج عصير المشمش ذي البزرة المرة المسمى بالكلابي ـ محرفة عن كل آبي ومعناه بالفارسية ماء الورد ـ فن عظيم يحسنه أهله المتمرنون ومنه يستخرج قمر الدين وهو عصير المشمش يجفف على الدفوف في الشمس وينقل الى مصر والسودان وسائر بلاد العرب . أما المشمش البلدي والحموي وغيرهما من الأنواع ذي البزرة الحلوة فشيء لا تشبهه الا فاكهة الجنة .

وهناك الجوز واللوز والتفاح والكمثرى (الانجاص) والخوخ والجانرك وحب الآس والصنّار والدراق والتوت (التوت العادي والشامي) والتين والسفرجل والرمان والزعرور والزعبوب وغيرها من الفواكه التي هي مضرب الأمثال بطعمها ونكهتها وحجمها . وكان

يكثر في الغوطة الزعفران والكرز والوشنة والكستانة (الشاه بلوط) والبندق والمشمولة والقراصيا والأجلجق (بالتركية قيزلجق وسميناه الأحيمر) فبطل غرس الكستانة والبندق وظلّ القزلجق والوشنة والمشمولة وفقد الزعفران بالمرة كما نسيت زراعة القطن وزراعة التوت لتربية دود الحرير . وكان لدود القز في القرن العاشر محلات بين عدة أنهر قرب ضريح الشيخ رسلان شرقي المدينة تهرع الناس اليها في أيام حل بذر القز للنظر اليه .

ومن أعظم موارد الغوطة الحور (الرومي والفارسي) والصفصاف ومن محاسنها الخلاف يشبه الصفصاف تصبغ في أوائل الربيع جميع أغصانه بالأحمر كقضبان المرجان ويلحق به شجر الأزدرخت (الزنزلخت) وله زهر طيب الرائحة ويزرعونه على جانبي الطرق العامة والجادات . وكان يكثر فيها السرو وكثرته الى اليوم في ارض الصالحية . وكان الى القرن الماضي وافراً في أرض الغوطة وما كان يخلو بيت في دمشق وغوطتها من شجرة أو شجرات منه ، وذكر بعض المؤلفين انه كان في جبل الصالحية نخل قطعه تيمورلنك لما جاء الشام فاتحاً وقيل ان عددها اثنا عشر الف نخلة يؤدى عنها الخراج ومن الأشجار الحديثة فيها الاوكالبتوس او الكينا والسنط والاكاسيا

والشمش الهندي (بني دنيا) وبعض أصناف صارت بالتفنن في التطعيم مثل المشمش الحلو ، ومنها الكراز . ومن البقول البطاطا والبندورة . وحاول بعض الغوطيين ان يربوا شجر الشوح وما أظنه يجود في اقليمنا كما يجود في رومانيا من بلاد حوض البحر الأسود . ولكل كورة خصائصها الجوية والأرضية تعمل في النبات والحيوان .

الفصل العاشر

أنهار الغوطة وريها

تبدلت معالم الغوطة كأن الأرض الخصبة تحتاج أبداً الى من يثيرها ويجددها ويسمدها، وتجمد الأرض وتضيع مزيتها اذا كثرت فيها الصروح والقصور والمصانع . ولذلك كانت أرض الغوطة أبداً في تجدد ومعها تتجدد المرافق والمعالم والمصانع ، وليس في هذا الوجود ما يثبت على الدهر والغوطة لم يتبدل ماؤها ولا هواؤها ولا تربتها وهي ما برحت تسقى من سبعة أنهار او جداول كبيرة مشتقة من نهر بردى ، أو مشتقة من قنى مثل قناة الشواقة [1] نهر الأشرفية ومثل نهر برزة وهو من ماء معربا وتشرب صحنايا من نهر الأعوج ولذلك قال بعضهم ان صحنايا والأشرفية لا تعدان من الغوطة وان رسمها الأرضي يجعلها من الغوطة . ولكم أن تقولوا ان الغوطة هبة بردى كما ان مصر هبة النيل .

وبردى هـذا يشتق منه الداراني والمزي والقنوات وبانياس

(١) وفي سبينة أيضاً قناة الشوافة .

وثورى ويزيد ونهر يزيد هذا حفره أمير المؤمنين يزيد بن معاوية فنسب اليه، وقيل حفره يزيد بن أبي سفيان عم يزيد بن معاوية وفي سنة ١١٥ أمر هشام بن عبد الملك القاسم بن زياد بتيز أنهار دمشق وممن حضره محمد بن يزيد من رجال عبد الملك بن مروان . وفي نهر ثورى يقول ابن الخياط الدمشقي :

جرى النهر من شوق الى حامل الثرى واجريت دمعاً شاقه المنزل القفر
فلو كنت يوم البين شاهد عبرتي وعبرته لم تدر أيهما النهر
فيانهر (ثورى) قد أثرت من الهوى دفيناً أجنته الجوانح والصدر
فلو كان لي صبر كففت مدامعي ولكن من يشتاق ليس له صبر

وفي نهر باناس والقنوات يقول الحسن بن عبد الله بن أبي حصينة :

يا صاحبي سقى منازل جلق غيث يروي ممحلات طساسها[1]
فرواق جامعها فباب بريدها فشارب القنوات من باناسها

ويدخل دمشق من هذه الأنهار القنوات وباناس وثورى ويزيد يحمل قاذوراتها فتكون سماداً لا ينقطع على الأيام يوزع في أرضها كلما اراد الغوطي ارواءها . وهذا من جملة العوامل في خصب الغوطة يضاف الى تربتها الغنية وجوها المعتدل . والنهر الذي يحمل أكبر قدر من القاذورات يسمى نهر قليط أو قلوط . وقد يحفر المرء في

(١) جمع طسوج والطسوج المحلة .

بعض الأماكن بالغوطة أربعة أو خمسة أمتار ولا يصل إلى طبقة الحصباء والحجر لكثافة الطمى أو المادة الصالحة للزرع .

ومن أنهار الغوطة التي تجمع من بردى بعد خروجه من دمشق نهر الداعياني ويسقي من القرى كفر بطنا ، جسرين ، سقبا ، حمورية ، الافتريس ، بيت سوا وبعض أراضي عين ترماء وجوبر . ومن أنهارها نهر المنيحي ويسقي أرض المنيحة ودير بحدل والخيارة وبعض الأراضي القريبة من دمشق ، ومنها حوش القواس . ويسقي نهر ثورى بعض بساتين الصالحية وأرض جوبر وعين ترماء وزملكا وحزة وعربيل ومسرابا ودومة . ولقرية عذراء في المرج سياق خاص منه . أما نهر يزيد فيسقي أعالي بساتين الصالحية وأرض القابون وحرستا .

يقول ابن عبد الهادي ان نهر داعية ثلاث عشرة مسكبة وهو نهر الزُلف - ومعنى الزلف الحياض الممتلئة أو الحوض الممتلئ فاذا كان بالضم فمعناه ساعات الليل الآخذة من النهار وساعات النهار الآخذة من الليل - وهذا الاصطلاح ما زال معمولاً به في السقيا في كل قرية .

هذا أهم ما يسقي الغوطة من الأنهار ، ومن أرضها تنبع عدة قي تسقي مزارعها وأراضيها وما وراءها من أرض المرج مثل عيون فاسريا فانها تنبع من سفح الجبل شمالي دومة وتكون حارة ثم تبرد

وكذلك عيون قلايا في أرض المحمدية تسقي بعض قرى المرج .
ومثل نهري الزابون والملك ينبعان من بردى أو من عين قريبة من مجراه ويسقيان بعض أراضي جسرين والمحمدية والافتريس ومثل نهري الشيلاني (الشيداني) والبيلاني (البالاني) يسقيان الحديثة وبالا وهما مما ينبع من قرارة بردى ويتجمع من مصاصات المياه المجاورة ومن قرارة نهر بردى يشتق نهر الزبديني فيسقي الحديثة وزبدين .

ومن القرى ما لا تصل اليه مياه بردى كبعض أرض داريا ومنها ما يكون معولها في السقيا على القنى كالأشرفية واسم قناتها شواقة وحوش الريحانية وبلاس وسبينة وسبينات وحجيرة والبويضاء وقبر الست وبرزة فانها كلها تسقى من قني خاصة بها أو من جدول قريب كبرزة فانها تسقي من نهر معربا او من عيون هي في حقيقتها رشح من ماء بردى كعين حروش في أرض زبدين التي يتكون منها قناة تسقي عدة قرى في المرج . ومياه هذه العيون كمياه الأنهار منظمة بنظام دقيق بحيث تأخذ كل أرض حقها وتوزع على أصحابها توزيعاً عادلاً . ولهم فيها مصطلحات يصعب على غير أهل القرى أن يفهموها بسرعة . وليس في حقول الغوطة ما تعيش زروعه الصيفية عذبا أي من المطر كزراعات الجبال . واكثر أهل

الغوطة تمتعاً بالمياه أرباب البساتين المحيطة بالعاصمة يسقون عندما يريدون من مواصيهم .

وما أجمل ما قاله أحد الشعراء في توفر الرزق لفريق وحرمانه فريقاً آخر وقد شبهه بتوفر المياه في الغوطة من السماء ومن الأنهار قال :

الرزق كالوسمي[1] ربّتما عدا ... روض القطا وسقى حدائق جلّق
فاذا سمعت[2] بحُوَّل متأدب ... متأله فهو الذي لم يرزق
والرزق يخطئ باب عاقل قومه ... ويبيت بوابا لباب الأحمق

وبعد قرون أتت على الغوطة لاتعرف الا مياه الأنهار والقني وما يستخرجه أهلها من الآبار بالمدار جاء العهد الأخير بالآلات الرافعة للمياه تروي مساحات عظيمة أيام الصيف من أرض الغوطة كما كثرت العناية بحفر القني تسقي ما كان بوراً ، حتى لقد زاد المزروع من أرض الغوطة بكثرة آلات الري الحديثة وبها رويت مساحات واسعة كانت محرومة الماء .

هذا وأكثر مياه الغوطة غير صالحة للشرب على ما يظهر ولذلك يطمح أهل الغوطتين ان يستقوا من ماء الفيجة بجر أنابيب

(١) الوسمي مطر الربيع الاول . وعدا تجاوز . والقطا طائر .
(٢) الحوّل (بضم الحاء وتشديد الواو) : ذو التصرف والاحتيال في الأمور والمتأله المتعبد .

منها الى قرام وقد أرسلت زجاجة من ماء بئر بيتي وهو ارتوازي عمقه تسعة أمتار ونصف متر عن سطح الأرض الى صديقي العالم الجرائمي احمد حمدي الخياط فكتب الي عن مخبره انه لا يصلح للشرب ولا للاستعمال وان كان مظهره الخارجي غير ذلك لأن الطبقة التي يرشح منها غير كافية على ما يظن انقاوته تماماً واذا كان هناك ضرورة لاستعماله فالواجب غليه وتبريده او ان يقطر في كل ليتر منه نحو (٨ - ١٥) قطرة من صبغ اليود وينتظر مدة ٣٠ دقيقة ويشرب بعدها باطمئنان واذا أريد زوال طعم اليود من هذا الماء يكفي أن يضاف اليه في نهاية تلك المدة قليل من منقوع الشاي أو قليل من القهوة .

الفصل الحادي عشر

تمليك الأرض

لما فتح العرب الشام كتب ابو عبيدة بن الجراح الى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما يسأله رأيه في الأرض التي تغلب عليها العرب فأجابه عمر : فهمت ما ذكرت من (أمر) الأرض التي ظهر عليها وعلى أهلها المسلمون ، فقالت طائفة نقرّ أهلها على أن يؤدوا الجزية الى المسلمين ، ويكونوا عمّار الأرض ، وقالت طائفة نقتسمهم . واني قد نظرت فيما كتبت اليّ من هذا ففرق (؟) رأيي فيما سألتني عنه ، الا اني قد رأيت ان نقرّهم ، وان تحمل الجزية عليهم ، ونقسمها بين المسلمين ، ويكونوا عمّار الأرض ، فهم أعلم بها وأقوى عليها من غيرهم . أرأيتم لو أنا أخذنا أهلها واقتسمناهم ، من كان يكون لمن يأتي بعدنا من المسلمين . والله ما كانوا اذاً ليجدوا انساناً يكلمونه ولا يكلمهم ، ولا ينتفعون بشيء من ذوات يده ، وان هؤلاء يأكلهم المسلمون ما داموا أحياء ، فاذا هلكنا وهلكوا ، أكل أبناؤنا أبداً ما بقوا ، وكانوا عبيداً لأهل الاسلام أبداً ما دام دين

الاسلام ظاهراً. فضع عليهم الجزية وكفّ عنهم السباء، وامنع المسلمين من ظلمهم والاضرار بهم، وأكل أموالهم إلا بحقها».

وعلى كتاب أمير المؤمنين هذا قامت السياسة المالية في الدولة الاسلامية، وارتاح قدماء السكان، وانتفع العرب بالأرض التي تخلى عنها من لحقوا بهرقل من الروم من أهل دمشق وغوطتها فكثرت فضول المنازل وكثرت الصوافي أي الأملاك والأراضي التي جلا أهلها عنها أو ماتوا ولا وارث لهم. فصوافي — واحدها صافٍ — الروم في الشام هي الأرضون التي ارتحل أهلها عنها فأعطاها المسلمون لمن أحبوا، وآثروا الفاتحين وأبناء الفاتحين بقسم عظيم منها.

وكان السكان في هذه الديار فئتين منهم من قتلتهم الحرب أو نفتهم فساكنهم وكنائسهم قسمة بين المسلمين، ومنهم من حقن دمه العهد الجديد الذي أعطاهم خالد بن الوليد فهؤلاء مساكنهم وكنائسهم لم تسكن ولم تقسم. وكان من أم الضياع في الغوطة أراضي الامراء بطارقة الروم ممن فروا من جيوش العرب أو قتلوا في الحرب وكانوا قواد جند الروم، فشغرت املاكهم فأوقفها الفاتحون أو وزعوها على من يحسن استثمارها.

تولى العرب من الأرضين ما كان يتولاه أربابها الأصليون فلم يبد نقص كبير في مغل الأرض وريعها لتخلي أهلها عنها، وامتزج

في بودقة الغوطة طوائف من القادمين من العرب وقدماء السكان. وما كانت همة الآتين في العمارة أدنى من همم وهم آتون ليقضوا على دولة الروم. ويمكن أن توصف الغوطة في حالتها الجديدة بان فريقاً جلا عنها فاستعاضت عنه بالفريق الذي نزلها بدون فاصلة تذكر ولا ان يعرو الجباية فتور.

مثال من تمليك الأموبين الأرض: وفد الأعور الكلبي الشاعر على معاوية فقال له: اختر لك منزلاً فاختار المزة فأقطعه فيها وعشيرته أرضاً فقال:

اذا ذكرت أرض لقوم بنعمة ... فبلدة قومي تزدهي وتطيب
بها الدين والأفضال والخير والندى ... فمن ينتجعها للرشاد يصيب
ومن ينتجع أرضاً سواها فانه ... سيندم يوماً بعدها ويخيب

مثال آخر: قال حفص بن عمر الأزدي لعبد الملك بن مروان: يا أمير المؤمنين ان في غوطة دمشق قرية يقال لها زملكا ولي فيها بنو عم وسألوني الاشراف عليهم وليس لي في الموضع شيء فقال له عبد الملك: سل هل لنا في تلك القرية شيء فنظروا فاذا بها صنيعة (الصنيعة الارض المُغِلّة) من صوافي الروم فأقطعه اياها. وكتب له عبد الملك بذلك كتاباً يقول فيه بعد البسملة: «هذا كتاب من عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين لحفص بن عمر بن سعيد

ابن عبد العزيز الأزدي اني أنطيتك بقرية زملكا كذا وكذا فداناً وأشهد على نفسه أخويه محمداً وعبد العزيز وقبيصة بن ذؤيب وروح بن زنباع ».

وكان العمال كثيراً ما يقبلون الأرض أي يضمنونها ويضيفون دخلها الى بيت المال. ومن العمال من كان يحبس القرى على مصالح المدينة ومرافقها قاصداً بذلك عمارتها. وهذا من أول الأحباس في الشام. وكثرت الأوقاف الخيرية والأهلية بكثرة الظلم وشدة الاستبداد في العصور التالية، فكان الواقفون وأكثرهم من رجال الدولة يقفون على الجوامع والمدارس وأعمال البر لتنجو أملاكهم وضياعهم من المصادرة. وأتت عهود كثرت فيها أوقاف الغوطة فقام رجال أذكياء وأنقذوا الأوقاف بان حلوها بحيل سموها شرعية واخترعوا لها أسماء كالتحكير والاحترام والاجارتين والمرصد، وأخرجوها عن ملك الوقف الى الملك الخاص، وكثرت هذه الحيل أيام العثمانيين. وكانوا على عهد المماليك يؤجرون ملك الوقف مئة سنة وفي العهود الأخيرة أنزلوا مدة الايجار الى ثلاث سنين.

وما سلم الوقف من الاحتيال على حله واستصفاء أعيانه حتى وقف الجوامع والمدارس والمبرات المجمع على نفعها. مثال ذلك وقف شمس الدين بن المقدم من أمراء صلاح الدين فانه وقف قريتي المحمدية

وجسرين على مدرستيه المقدمية الجوانية والمقدمية البرانية بدمشق وعلى المقدمية بحلب فما أفاده وقفه لما نوى أكله المتولون عليه. ورأينا بقايا هذا الوقف تتبدل والنظار عليها يستحلون أكلها جهاراً بل لقد أكلوا المدرسة برمتها وجعلوا منها دوراً يسكنونها ومخازن يؤجرونها ولم يبقوا حتى على المسجد، فما انتفع الواقف بما وقف ولا المسلمون بما وقف عليهم، وأصحاب الأوقاف ما برحوا يزعمون ان شرط الواقف كنص الشارع، كلمات اخترعها من عاشوا بسرقة الأوقاف حللوا لأنفسهم وحرموا على غيرهم، وكان من العوامل في الاخلال بنظام الوقف تحيل طائفة من القضاة على اخراجه عما وضع له. كان يقصد بالوقف في أول صنعه الخير فأصبح في الزمن الأخير شراً.

وأضر الوقف في عمران الغوطة وهو آخذ بالزوال سنة عن سنة بتوفر الأهلين على الاستبدال الذي كان نفعه ظاهراً كما كان من النعم على هذا الاقليم كون أرضها مقسمة بين أهلها قسمة طبيعية فلا ترى فيها زراعات كبيرة الا نادراً، ومهما بلغ من سعة المزارع الكبرى أو الحوانيت فانها تدار بعناية كما تدار الزراعات الصغيرة، ويظهر أنها كانت على ذلك منذ الزمن الأطول.

قلنا ان أغلب قرى الغوطة ملك أربابها ومنها ما لم يملك أحد فيها شبراً من الأغنياء أو من أهل دمشق وتقل حصص أرباب

رؤوس الأموال فيها على مر السنين وكلما زاد مقدار ما يملكه الفلاح عن القدر الذي يملكه الآن امكن أن يقال ان القائم على الأرض بدأت ايام سعادته

ولما حاول سيف الدولة بن حمدان صاحب حلب أن يضم الغوطة الى الأملاك السلطانية ليجعل له منها كلها مزرعة واحدة كاتب أهل دمشق ملك مصر بخاء وطرد سيف الدولة عن الغوطة

وحاول الظاهر بيبرس البندقداري بعد ثلاثة قرون أن يحتاط على الغوطة أي يحجزها فتكلم أحد العلماء بحضرته في دار العدل فقال: الماء والكلاء والمرعى لله لا يملك وكل من بيده ملك فهو له وفي رواية أخرى ان القائل قاضي قضاة الحنفية عبد الله الأذرعي فقال: اليد لأرباب الأملاك ولا يحل لأحد أن ينازعهم في املاكهم ومن استحل ما حرم الله فقد كفر وكان هذا لما وقعت الحوطة على املاك الناس. وللظاهر في هذا الباب محاولات كثيرة لأخذ أموال الرعية.

أما عقلاء الملوك فما كانوا يجوزون غير اقطاع الأرض فقط وكان زنكي والد نورالدين محمود ينهى أصحابه عن اقتناء الأملاك ويقول اذا كانت البلاد لنا فأي حاجة بكم الى الأملاك فان الاقطاعات تغني عنها وان خرجت البلاد من أيدينا فان الأملاك

تذهب معها ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعية وتعدوا عليهم وغصبوهم أملاكهم.

وهكذا كان صلاح الدين لا يملك الأرض الا على سبيل الاقطاع وقد طلب اليه أخوه الملك العادل تمليكه حلب وان يكتب له كتاباً كأنه بيع وشراء فامتنع السلطان وقال انما تكون اقطاعاً والبلاد لأهلها والمرابطين بها ونحن خزنة المسلمين ودعاة الدين وحراس أموالهم وقال ان السلطان ملك شاه السلجوقي لما وقف طبرية على جامع خراسان لم يحكم أحد به من القضاة ومن الفقهاء.

وملاك الأمر أن غرام الطغاة في الأغلب كان في أن يجعلوا الغوطة كلها اقطاعاً أو يملكوها أو أكثرها كما فعل كيوان من عمال العثمانيين فاستولى على أكثر بساتين الربوة والمزة بغصب أملاك الفلاحين واستخلاص ما يملكون بالشراء أو بالمغارسة. وكما كاد صيارفة يهود دمشق في القرن الماضي ان يملكوا جزءاً مهماً من الغوطة بما تكاثر لهم من الربا الفاحش الذي كانوا يتقاضونه من كبار الفلاحين وصغارهم فقام رجل من رجال المحاماة من الترك الأستاذ أسعد أفندي وأنقذ الفلاحين من الصيارف فاضطر اليهود إلى أن يبيعوا ما ملكوا من الأرض تخلصاً من تضييق جيرانهم من أرباب الأملاك.

ومما انتقلت به بعض أملاك الغوطة من أيدي مالكيها من الأهلين إلى أيدي الأغنياء وأصحاب النفوذ ما حدثني به صديقي السيد حكمت شيخ الأرض من المزارعين على لسان شيخ معمر من أهل المرج أدرك جيش ابراهيم باشا المصري في الشام قال إن سبب خروج الأملاك من ملك الفلاحين الى الأفندية ان كل ما كان يقع من دين ومظلمة أو غيرها كان يلقى على « حجر الضيعة » أي على حساب الضيعة كلها فتجمعت هذه الديون على القرية حتى اضطر أهلها الى بيعها بأرخص الأثمان صفقة واحدة . ومن الفلاحين من تشردوا في القرى أو من ارتضوا بان يكونوا فلاحين عند أرباب الأملاك الجدد . وأوشكت دومة أكبر قرى الغوطة في القرن الماضي أن تستغرقها الديون وأراد أهلها أن ينزلوا لغريمهم عن نصفها ويبقى لهم النصف الآخر ولو لم تلغ قاعدة « حجر الضيعة » لخرج بعض أرض الغوطة أو أكثرها من أيدي مالكيها الأصليين وما نظن قرى زبدين وبالا والحديثة والمحمدية والافتريس الا كان السبب في نزعها من أهلها ذاك المصطلح أو القانون المضر أو ان ضرائب الدولة تراكمت على الفلاحين فاضطرتهم الى بيعها بالمزاد وكان بعض الأعيان لا يرضون إلا أن يبتاعوا القرية كلها صفقة واحدة كما فعل آل سرسق مع حكومة سورية وحاولوا أخذ مرج

ابن عامر صفقة واحدة وتم لهم ما أرادوا وخرج أهالي أكثر من ستين قرية عن أملاك آبائهم وأجدادهم لأداء أموال الدولة العلية.

نعم كان من احالة كل دين عقده أهل القرية على ما دعوه حجر الضيعة أن تجمعت ديون فاحشة اضطر أهلها الى بيعها فانتقلت الى غير الفلاحين ممن لهم مال . ولما حسنت حال الفلاح في الغوطة ومرجها بعض الشيء وعرف بعضهم طرق الاقتصاد من غلاتهم السنوية أصبح في مكنته أن يبتاع ما اضطر صاحب الزراعة الى بيعه من ملكه . وسمعت أن بعض الفلاحين الذين كان أجدادهم يهربون من ملك الأرض ويؤثرون أن يعيشوا بسلام في أملاك الاغنياء بصفة فلاحين وعملة عادوا الآن يؤلفون شركات منهم ويبتاعون كل أرض احب صاحبها الغني أو ابنه أو حفيده ان يبيعها ويتقاسمونها بينهم فيضم كل واحد الى أرضه ما جاوره من القطع المباعة وبذلك أنشأ الفلاحون يتملكون ما كان حقهم أن يتملكوه دون سواهم منذ القرون الماضية.

ومن جملة ما عمرت به الغوطة في بعض القرون استعمال أسلوب القطائع ـ واحدتها قطيعة ـ وهي ما أقطعه السلطان من عفو البلاد التي لا مالك لها ولا عمارة ولا توجب ملكاً لأحد فيقطع الامام المستقطع لها قدر ما تهيأ له عمارته باجراء الماء اليه ، أو باستخراج عين فيه أو بتحجير عليه ببناء أو حائط . واحتجار الارض أن يضرب عليها

منار ، والحائط البستان . وبهذه الطريقة يملك المقتطع رقبة ما ملك وأحيى.

والاقطاع اقطاعان اقطاع تمليك وهو موات وعامر ومعادن واقطاع استغلال وهو عشر وخراج . وكان اقطاع الموات قليلاً في الغوطة لانها كانت عامرة في أكثر القرون .

ومن أعظم الدوافع الى عمارة الارض ان كل من أحيا مواتاً كان ملكاً له . ومما يدعو الى عمارة الارض ان بعض الولاة كانوا يفلحون أرض الغوطة ويكثرون فيها من الغروس من أصناف الفاكهة ويجرون المياه الى الضياع وغيرها ليكونوا قدوة لغيرهم ويزيدوا في وفاهيتهم . وكان الولاة ينزلون الغوطة أو ما يقرب منها من الضياع . جروا في ذلك على قدم الايوبيين في العمران .

وبديهي ان السواد الاعظم ممن نزلوا الغوطة في الفتح كانوا من القواد والجند الذين كان لهم من سهامهم من الغنائم التي أصابوها ومن عروض الراحلين وأموالهم ما اقتنوا به الرباع والضياع وانفقوا عليها ما يلزم لغرسها واستنباتها ولما تم الاستقرار وانصرف كل فرد الى ما يعمر ملكه ويجري فيه على اثر صاحب الارض السابق في طرائقه الزراعية ويدخل التحسين الذي يراه ، ويتحملون خسائر اذا طرأ عليها بعض السنين نقص في ثمراتها وغلاتها وما كانت تبور أرضها حقيقة الا في الأدوار التي يحيف الظلم بأهلها . وعدل السلطان كما قيل ، أنفع للرعية من خصب الزمان .

وفي معظم الادوار كان الناس اذا اشتدت بهم الحال يرفعون أصواتهم بالشكوى من العمال والامراء والملوك ، ولولا نصائح العلماء وخوف الامراء منهم لكانت الويلات أعظم والبلاء أعم . قال رجل لامير المؤمنين عمر بن عبد العزيز - وعصره خير العصور التي تجلى فيها العدل الاسلامي - يشكو اليه عماله :

ان الذين أمرتهم أن يعدلوا ... نبذوا كتابك واستحل المحرَم
وأردت أن يلي الامانة منهم ... بَرٌ وهيهات الأبرُّ الاسلم
طُلَس الذئاب على منابر ارضنا ... كل ينقص نصيبنا يتكلم

وأهم الاسباب في عمارة الغوطة في القرون الثلاثة الاولى خاصة ان العرب المسلمين دوخوا هذا القطر كسائر ما فتحوه من الاقطار بعدلهم ، أكثر مما دوخوه بسيوفهم كانت سماحة الاسلام من أعظم ما أدهش السكان الاصليين رأوا عدلاً لم يشهدوا مثله من الدولة الراحلة . لقد تلطف المسلمون مع النازحين ومن خلفوا وراءهم من أهلهم فعاملوهم معاملة قلّ أن وصلت الى مثلها أمة متحضرة . ذكر ابن عساكر أن سبرة أو سمرة بن فاتك من الصحابة تولى بعد الفتح قسمة المنازل بين أهل دمشق فكان يترك الروي في العلو ويترك المسلم في السفل لئلا يضر المسلم بالذمي .

الفصل الثاني عشر

الجباية والأموال

كان على الشاميين في العهد الروماني أن يؤدوا الجزية والعشر وأتاوة من المال عدا المكس والمناجم. وكانت الحكومات الرومانية المتعاقبة تؤجر الحقول الصالحة لزرع الحنطة والمراعي لشركات يسمون أربابها العشارين يبتاعون من الحكومة حق جباية الخراج فيظلمون الأهالي ويرهقونهم واذا تأخروا عن الاداء باعوهم بيع العبيد فانتقل النقد من هذه الأرض الى رومية وعزّ هنا وجود الذهب والفضة وارتفعت فوائد القروض الى اثني عشر في المئة وأحياناً الى أكثر.

كان صلح دمشق على المقاسمة الدينارَ والعقارَ ودينار على كل رأس. والجباية تجمع من الخراج والعشور والصدقات والجوالي - والجوالي جمع جالية يطلق على الذين جلوا عن أوطانهم ويسمى في بعض البلدان مال الجماجم أي الرؤوس - ثم صارت الجباية عشرة أصناف: الخراج والجزية والعشور والأجور والزكوات وأثمان المبيعات والمقاسمات

والغنيمة والفيء والمعادن. والخراج ما يؤخذ من أرض الصلح والعشر ما يؤخذ من زكاة الأرض التي أسلم أهلها عليها والتي أحياها المسلمون من الأرضين. والصدقات زكاة السوائم من الابل والبقر والغنم دون العوامل والمعلوفة. والمكس ضريبة تؤخذ من التجار في المراصد وما يطلق عليه اليوم الجمارك.

وراعى الخليفة الثاني في كل أرض ما تحتمله. وكانت الجزيه في بدء الأمر ديناراً في كل حول على كل جمجمة ثم جعلت على الذهب اربعة دنانير وعلى الورق اربعين درهماً، وجُعلوا طبقات لغنى الغني واقلال المقل وتوسط المتوسط والجزية تؤخذ من غير المسلمين والخراج يشترك فيه كل من يملك أرضاً.

وصالح أبو عبيدة بن الجراح نصارى الشام حين دخلها على أن يترك لهم كنائسهم وبيَعهم وعليهم ارشاد الضال وبناء القناطر على الأنهار من أموالهم وأن يضيفوا من مرَّ بهم من المسلمين ثلاثة أيام مما يأكلون، ولا يكلفهم ذبح شاة أو دجاجة وتبيت دوابهم على غير الشعير وذلك على أهل السواد دون المدن.

ثم حملت الأموال على قدر قربها وبعدها، فجعل على كل جريب زُرع مما قَرُب ديناراً وعلى كل مائتي جريب مما بعد ديناراً والجريب عشر قصبات في عشر قصبات والقصبة ستة أذرع

فيكون الجريب ثلاثة آلاف وستمائة ذراع مكسرة وجعلوا على كل ألف أصل كرم مما قرب ديناراً وعلى كل مئتي شجرة مما بعد ديناراً. وكان غاية البعد مسيرة اليوم أو اليومين وأكثر من ذلك ومما دون اليوم فهو في القرب.

وعدّل المنصور العباسي أرض الغوطة فجعل كل ثلاثين مداً بدينار القاسمي، ومسحت الارض الخراجية وحملت كل أرض ما تستحقه. وقد تعفى بعض الضياع من الخراج. وهناك نوع من الاستثمار يسمى اللجاء أي ان يلجأ صاحب الارض الى بعض الكبراء وينزل له عن ضيعته تعززاً به من عمال الخراج فتصبح الضيعة مع الزمن ملكاً لذاك الكبير.

كانت الجباية في أيام الامويين معتدلة وفي بعض أيام العباسيين والفاطميين جائرة وفي أوائل حكم الامويين كان بعض جباة الخراج يعذبون من يتلكأ في أدائها ويجعلونه في الشمس عقوبة له فنهى عن ذلك الفقهاء وبطل تعذيب المكلفين. وكانت الجباية غير مستقرة على عهد الفاطميين شأنها شأنهم في سياستهم وإدارتهم حتى اذا كان السلجوقيون نشقت الغوطة أرج الفرج ولا سيما على عهد طغتكين فعمرت وجاء بعده بقليل الملكان العادلان نور الدين وصلاح الدين فأبطلا ضرائب كثيرة مع بقاياها اكتفاء بالخراج والجزية وكانا

لا يخرجان عن حد الشريعة ولا يخالفان رأي الفقهاء في الجباية. وأكثر نور الدين في السنة التي توفي فيها من الصدقات والأوقاف وعمارة المساجد والمدارس وأسقط كل ما فيه شبهة حرام وما أبقى سوى الجزية والخراج وما يحصل من قسم الغلات. ولما عزم صلاح الدين على أداء فريضة الحج صرفه عنه مدبر دولته القاضي الفاضل بقوله من كتاب له: ان كشف مظالم الخلق أهم من كل ما يتقرّب به الى الله وما هي بواحدة في اعمال دمشق وفيها من ظلم الفلاحين ما يستغرب معه وقوع المطر، ومن تسلط المقتطعين على المقتطَعين ما لا ينادى وليده. ومن ذلك استنتجنا أن حالة الجباية لم تكن على ما يرام لأن الامة كانت تحارب الصليبيين منذ عشرات من السنين والحرب تتوقف قبل كل شيء على المال.

أما عهد المماليك فكان كعهد العثمانيين بعدهم سلسلة من المغارم والمظالم يجوزون ان يتقاضوا من الرعية أموالاً زائدة عن الجباية المتفق عليها وكان الملك الظاهر بيبرس البندقداري أجرأ[1] ملك على

(١) لما دهم التتر البلاد بعد وقعة بغداد ضاقت بالملك الظاهر وعساكره الارض فاستشاروا الشيخ عز الدين بن عبد السلام فقال: اخرجوا ما عندكم من الأموال وانا أضمن لكم على الله النصر فقال له السلطان: ان المال في خزانتي قليل وأنا اريد ان اقترض من اموال التجار فقال له الشيخ عز الدين: اذا حضرت ما عندك وعند حرمك وأحضر الأمراء ما عندهم من الحلي الحرام وضربته سكة —

مصادرة الرعية يأخذ أموالها ويصرفها في تجاريده أو حملاته وقد يجبي في السنة الواحدة جبايتين في آن واحد وهو مما دعوه بالعوارض وهي سنتان سنة جديدة وسنة عتيقة . والعوارض مظلمة سلطانية تؤخذ من البيوت في الشام في كل سنة ويقال انها من محدثات الظاهر بيبرس وقد أشار اليها الأكرمي بقوله :

لحا الله أيام العوارض انها هموم لرؤياها تشيب العوارض
يضيق لها صدري واني لشاعر ضليع وبيتي ما عليه عوارض

وكان الظاهر على عتوه واستبداده يحاذر أن يجبي شيئاً

– ونقداً وفرقته في الجيش ولم يقم بكفايتهم ذلك الوقت اطلب القرض وأما قبل ذلك فلا . فأحضر السلطان والعسكر كلهم ما عندهم من ذلك بين يدي الشيخ وكان للشيخ عندهم رهبة بحيث لا يستطيعون مخالفته فامتثلوا أمره فانتصروا . ومما كان يزيد منزلة الشيخ عندهم ان الملك الظاهر بيبرس لم يبايع احداً من الخليفة المستنصر او الخليفة الحاكم إلا بعد ان تقدمه الشيخ عز الدين للمبايعة ثم بعده السلطان ثم القضاة . ولما مرت جنازة الشيخ عز الدين تحت القلعة وشاهد الملك الظاهر كثرة الخلق الذين معها قال لبعض خواصه . اليوم استقر امري بالملك لان هذا الشيخ لو كان يقول للناس اخرجوا عليه لانتزع الملك مني . كان الناس يخافون السلاطين وعز الدين يخافه السلاطين . ولما تملك الصالح اسمعيل دمشق واعطى الافرنج صفد والشقيف ذمه ابن عبد السلام هذا على المنبر وترك الدعاء له ، وفي الامثال : « ما انت الا من العوام ولو كنت ابن عبد السلام » .

لا يقره العلماء [1] وكذلك كان الملك المؤيد شيخ فانه كان كثير المصادرات للرعية وهو الذي قطع دابر النواب العصاة الذين خربوا غالب البلاد الشامية وأحدث في أيامه أشياء كثيرة من أبواب المظالم لما كان يخرج الى التجاريد . والخروج الى التجاريد كان من جملة الأسباب التي تهيئ للملوك الشراكسة ان يسلبوا الناس أموالهم، ولا تكلف التجريدة أقل من نصف مليون دينار . وكانت الرعية اذا أحست بالخطر الداهم يهون عليهم اعطاء جانب عظيم من أموالهم للسلطان حتى يدفع عن البلاد عادية أعدائها، ولما وردت الأخبار بعودة التتر الى الشام سنة ٧٠٠ استخرج من غالب الاغنياء بمصر والشام ثلث أموالهم لاستخدام المقاتلة . وفي هذه السنة استخرجت الحكومة مالاً عظيماً من جميع الاملاك والأوقاف بدمشق وظاهرها وأخذوا من الغوطة من كل قرية تكثر أموالها ثلث ضمانها وأخذوا من القرى الخاصة بزراعة القمح والشعير والقطن والحبوب على نسبة

---

(١) اراد الظاهر ان يجبي ضريبة جديدة يصرفها في احدى تجاريده على التتر فكتب علماء مصر والشام كتاباً في ذلك يقرونه على ماطلب وما استنكف منهم توقيعها الا الامام النووي فاستدعاه الملك وسأله عن سبب امتناعه عما وافق عليه العلماء كافة فقال له ان عند محظياتك وجواريك ومماليكك من الحلي والسيوف والخناجر وزينات الخيول وغيرها من الذهب شيء كثير فاذا بعته وصرفته في الجيش ولم يجزئك يحل لك عندئذ ان تفرض ضريبة فغضب الظاهر وقال له لا تساكنني في بلد انا فيه . فخرج النووي الى بلده نوى في حوران ومات هناك .

مثقال سنة ثمان وتسعين وستمائة . فعظم ذلك على الناس وهرب خلق كثير واستخفى جماعة والذين وقعوا بأيديهم قطعوا أشجار الباقين وباعوها حطباً ، القنطار الدمشقي بثلاثة دراهم، فخربت الغوطة بهذا السبب وبشدة الطلب وكثرة الظلم والجور .

وما خلا قرن من علماء اتقياء يرفعون أصواتهم بالانكار على ما يخالف الشرع ويظلم به الفلاح قال التاج السبكي (٧٧١) : ومن قبائح ديوان الجيش الزامهم الفلاحين بالاقطاعات بالفلاحة والفلاح حرّ لا يد لآدمي عليه وهو أمير نفسه وقد جرت عادة الشام بان من نزح من دون ثلاث سنين يعاد الى القرية قهراً ويلزم بشد الفلاحة ، والحال في غير الشام أشد منها، وكل ذلك لا يحل اعتماده والبلاد تعمر بدون ذلك بل انما تخرب البلاد بذلك لأنهم يضيقون على الناس اهـ .

كانت خراجات ضياع الغوطة والمرج خاصة للسلطان في القرن الثامن وكذلك الضياع التي هي منازل من دمشق الى العريش وذلك لأن خراجها كان يجبى بسهوله .

قال الاسدي في خلال كلامه على جباية هذه الديار وما يجب فيه الحق من الركاز والمواريث والغنائم والفيء مما يحمل الي بيت المال من الأموال الواجبة والمباحة وأما المال الحرام فهو ما استخرج

بخلاف ذلك على غير وجه الحق حسبما وضعوه من الرسوم والخدم الموضوعة في كل ديوان وما رتبوه وأجروا به العوائد مثل الموجبات التي لا حق فيها والمكوس التي هي محرمة على مستخرجيها وآكليها وما يرتكب في أبواب الحكام من وجوه التبعات والمظالم وضروب الحوطات (الحجز) على أموال الناس التي لهم بالحق وأخذها منهم بوجوه المغارم . قال وفي الظاهر ان هذه الأموال المحصلة بهذه الوجوه الخبيثة مصالح للسلطان ومعونة للاعوان وفي الباطن انما هي فساد وظلم وتخريب .

أكثر الاتراك العثمانيون من أصناف الضرائب وما كانوا في هذا المعنى لأول أمرهم أقل ظلماً من المماليك في آخر امرهم ثم تفننوا في فرضها حتى بلغت كما قيل في بعض الأدوار سبعاً وتسعين ضريبة ورسماً . ولما فتح السلطان سليم الشام وضع مكساً على الأحكام الشرعية ورسوماً على الخانات والمواخير والمومسات . وكانت الجبايات الى هذا تجبى بالعسف والشدة ولئن كانت الجبايات في آخر ايامهم مما يمكن احتماله لكن طريقة جبايتها كانت شديدة على الاهلين شدة عظيمة .

وأكثر ما كان يؤذي الفلاح ويسود الدنيا في وجهه طلب الاموال في غير الاوقات التي يقتدر فيها الفلاح على الاداء وتقاضي

مظالم علاوة على الضرائب والجبايات المقررة قال ابن عابدين : ان غالب الغرامات الواردة على القرى في هذا الزمان (القرن الثالث عشر من الهجرة) ليست لحفظ املاك ولا لحفظ ابدان ، وانما هي مجرد ظلم وعدوان ، فان غالب مصارف الوالي وأتباعه وعمارات منزله ومنزل عساكره وما يدفعه الى رسل السلطان الواردين باوامره ونواهيه ، وأمثال ذلك كله يأخذه من القرى ويسمون ذلك بالذخيرة تؤخذ في بلادنا في السنة مرتين ، ويزيد فيها دراهم كثيرة رشوة لاعوانه وحواشيه من أعيان البلدة وقد جرت العادة بقسمة ذلك كله على عدد قُدُن القرية ، وتارة يقسمونه على مقدار حق الشرب بالساعات الرملية ، فمن كان له فدان مثلاً يؤخذ منه ما يخصه أو من كان له ساعة يؤخذ منه ما يخصه سواء كان رجلاً أو امرأة او صبياً ، وكذا يجعلون منها على رقاب الرجال الساكنين في القرية الذين لا ملك لهم فيها اهـ .

هذا ما قاله أفقه فقهاء دمشق في ذاك العصر المظلم ووصفه هذا نسخة صحيحه عما كان يجري في ظاهر بلده . كتب هذا قبل احتلال جيش محمد علي الكبير الديار الشامية وكانت الدولة تريد أن تضع مالاً قليلاً على الدور فشق ذلك فيما قيل على أهل دمشق

كتب قنصل انكلترا في دمشق سنة ١٨٥٨ يقول ان الضرائب

كانت باهظة على عهد الحكومة المصرية والأمن مستتب، والحكومة لا تبخل في انفاق ما يعود على الشعب بالفائدة. وكان الدخل يدار بنزاهة واقتصاد أما حالتها اليوم (أي على العهد التركي) فهي على عكس ذلك من كل وجه ، فالضرائب عبء ثقيل لا يطاق مع انها أقل من قبل ، والأمن مفقود ، والدخل يقل كل يوم ، لاهمال القرويين حراثة الارضين ، وكل ما يتم جمعه ينفق باسراف أو يسرقه الموظفون . وأيد الوالي مدحت باشا كلام القنصل وقال ان كبار الموظفين وصغارهم لا يلتفتون الى غير مصالحهم الخاصة ، وبسوء تأثير ذلك فسدت أخلاق الناس وكثر القتل والنهب والغارة على الاموال والعروض في كل مكان .

ولما قلت اليد العاملة في الغوطة نتيجة لازمة للسياسة المتبعة في هذا القطر ولما نشأ من الآفات السماوية — اخذ بعض الميسورين في الغوطة يتباعون العبيد ليسخروهم في استثمار أراضيهم . وكان اعراب البادية يأخذون الخُوَّة او الضريبة السنوية من كل قرية وكل بستان يقرب من دمشق وعادت فكثرت انواع الضرائب في آخر ايام العثمانيين وكان أكثر ما يشكو منه الغوطيون ضريبة الأعشار على الحاصلات كلها ، وكثيراً ما يزيد المال المجبى من الفلاح ضعفي ما يجب عليه أداؤه او اكثر وذلك عدا ما يضاف

الى الأعشار من الزوائد للسماسرة والملتزمين وأرباب النفوذ . ووقع في كثير من الأرجاء أن قطع الفلاحون أشجارهم تخلصاً من العشر لأن الدولة كانت تتقاضاهم الاعشار عنها أثمرت أم لم تثمر لا تعتبر الجوائح التي تصيبها .

وحدثنا الشيوخ بما كان أهل الغوطة يلقونه من العنت والارهاق اذا دقت الطبلة وجاءت سرية من الجند لتحصيل المال المطلوب منهم وربما أقام الخمسون جندياً مع خيولهم في القرية بضعة أيام حتى يتيسر جمع مال الدولة وبذلك كره الناس امتلاك الأرض فنزل ثمن الفدان الى بضع مئات من القروش . وربما كان الحقل يباع أحياناً بلوح من الصابون أو اقية من التنباك ليقال ان الأرض بيعت وقبض البائع ثمنها . أما اثمان الحاصلات فكانت من التدني على ما يضحك ويبكي .

وألغيت في عهد الانتداب بعض الضرائب وصارت الجباية تؤخذ برفق لأن الدولة كانت تتقاضى وارداتها من الضرائب غير المباشرة على ان ما كان يؤديه المكلف كان مما يحتمل اذا قيس بآخر ايام العثمانيين. ثم الغي العشر وخراج الأرض واستعيض عنهما بضريبة سموها ضريبة الانتاج الزراعي وقدرها سبعة في المئة من

كل صنف من أصناف الزراعة يباع في السوق من محصولات الأشجار والأرض وغيرها كما تؤخذ الجمارك في الموانئ والحدود وهناك رسوم تؤخذ من بعض الأصناف ورسوم عن المواشي وكل ذلك مما تحتمله الرعايا بالقياس الى ما كان من ضروب الضرائب والمظالم. ولا شكوى للفلاح الا من فساد طريقة جباية هذا الانتاج فقط .

الفصل الثالث عشر

الحكم والادارة

اختار العرب في القرون الأولى للاسلام اصول الحكم الذاتي أو اللامركزية في ادارة ملكهم العظيم . ينصبون العامل الأكبر ويطلقون له حريته في الحكم يتصرف بما يرى فيه المصلحة ويوزع العدل على السكان من أيسر سبله لا يراجع العاصمة أو حكومة الامام أو السلطان الا في المعضلات ويجعل للأهلين حظاً من الاشتراك في الحكم .

وكان الرومان في هذه الديار من قبل يحاذرون أبداً عادية الأعراب على المعمور من هذه الكور وما تاخمها فأقاموا لذلك على سيف البادية مخافر ليأمن هذا الجزء من الديار الشامية عيث العائثين ، وتأمن العاصمة اعتداء المعتدين ذلك أن الأعراب من القديم ولا سيما عرب شمال الجزيرة اذا أحسوا بان سماءهم شحّت ، وأرضهم أقحطت لا يرون أمامهم غير أرجاء الشام يتسللون اليها للانتجاع فيفسدون زروعها، ويختطبون المثمر وغير المثمر من أشجارها، ويروون أنعامهم من مياه عزيزة جمعها أهلها لشربهم وارواء ماشيتهم . وكان سلطان

الأمويين والعباسيين بعد الرومان أعظم وقاية مما كانت عليه الحال زمن الرومانيين أيام العز . وسعدت الغوطة أيام الأمويين والعباسيين بمن قام فيها من رجال كانوا يغارون على مصلحتها وعلى تحقيق (١) ما يصلحها .

(١) روى ابن عساكر ان نهر يزيد كان صغيراً يجري فيه شيء يسير يسقي ضيعتين في الغوطة لقوم يقال لهم بنو فوفا (فرفا ؟) ولم يكن لاحد غيرهم فيه شيء فماتوا في خلافة معاوية بن ابي سفيان ولم يكن لهم وارث فاخذ معاوية ضياعهم واموالهم فلم يزل كذلك حتى مات معاوية في رجب سنة ستين وولي ابنه يزيد فنظر الى ارض واسعة ليس لها ماء وكان مهندساً فنظر الى النهر فاذا هو نهر صغير فأمر بحفره فمنعه من ذلك اهل الغوطة ودافعوه فلطف بهم على ان ضمن لهم خراج سنتهم من ماله فأجابوه الى ذلك فاحتفر نهراً سعة عرضه ستة اشبار في عمق ستة اشبار على ان له ملء جنبيه ، وكان على ذلك كما شرط لهم . ومات يزيد سنة اربع وستين فلم يزل كذلك حتى استخلف سليمان بن عبد الملك سنة ست وتسعين فاقام عنده رجل من اهل الذمة يقال له جرجه بن قعرا شاهدين بشهدان ان له في النهر قناة تجري الى حمام له بديره . فسجل له سليمان بذلك سجلا واشهد به شهوداً ونسخته : « بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب كتبه سليمان بن عبد الملك امير المؤمنين لجرجه بن قعرا بثبات قناه في نهر يزيد لما قامت له البينة وفيه من الشهود عبد العزيز بن عبد الرحمن وعبد الله بن الحصين المبارك الهمداني ويزيد بن اسلم بن عبد الله القرشي وعبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الملك من اهل الغوطة ومحمد بن عبد الرحيم بن الفضل بن عباس الهاشمي وذلك يوم الخامس من شهر رمضان من سنة ثمان وتسعين . وكتب سليمان بن عبد الملك بخطه واشهد على نفسه وكفى بالله شهيداً »

قال الرشيد يوماً للحسين بن عمار وقد غضب عليه مما أتى من الأعمال : ولبتك دمشق وهي جنة تحيط بها عُدُر تتكفأ أمواجها على رياض كالدراري —

ولقد قسمت العرب الشام الى عدة أقاليم ، والاقليم لفظة يونانية يراد بها كل ناحية مشتملة على عدة مدن وقرى ، وسموا الغوطة اقليماً تارة وكورة أخرى ، والكورة كل صقع يشتمل على عدة قرى أيضاً ولا بدّ لها من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها . ونسي على الأيام اسم الاقليم ولم يبق الا في بعض أرجاء الشام مثل اقليم

— فما برح بك التعدي لارفاقهم حتى جعلتها أجرد من صخر وأوحش من القفر . قال : والله يا أمير المؤمنين ما قصدت لغير التوفيق من جهة ولكني رأيت أقواماً تقل الحق على أعناقهم فتفرقوا في ميادين التعدي ورأوا المراغمة بترك العمارة أوقع باضرار السلطان ، وارادوا بذلك المشقة على الولاة وان سخط امير المؤمنين فقد اخذ بالحظ الاوفر من مساعي ؛ فقال الرشيد : هذا اجزل كلام سمع من خائف

وفي القصة التي رواها صاحب الفرج بعد الشدة ما يستأنس به من ان بعض املاك الغوطة ما برحت الى اواخر القرن الثاني محفوظة من التقسيم . ذلك انه رفع الى الرشيد ان رجلا بدمشق من بقايا بني امية عظيم الجاه واسع الدنيا كثير المال والاملاك مطاعاً في البلد له جماعة واولاد ومماليك وموال يركبون الخيل ويحملون السلاح ويغزون الروم وانه سمح جواد كثير البذل والضيافة وانه لا يأمن منه فارسل اليه الخليفة رجلا اسمه منارة ليأتيه به فلما حمله اليه مر به بظاهر دمشق حتى انتهيا الى بستان حسن في الغوطة فقال الرجل : ترى هذا ؟ قلت (اي منارة) نعم . قال : انه لي وفي فيه غرائب من الاشجار كيت وكيت . ثم انتهى الى بستان آخر فقال له مثل ذلك ثم انتهى الى مزارع حسان وقرى سرية . وبذلك ادركنا ان من ارض الغوطة ما كان يملكه السراة وان بني العباس اذا غالوا لأول أمرهم في استئصال الامويين فان المسلمين ظلوا على حالة حسنة من الغنى والتمتع برفاهيتهم ما شاء الله ان يتمتعوا .

البلان واقليم الخروب واقليم التفاح في لبنان الشرقي والغربي ، ويقل اسم الكورة . ولعل هذه التقاسيم كانت من وضع الرومان فأقرها العرب وعربوا الاسماء . وعرفنا من الأقاليم حتى القرن السادس والسابع اقليم خولان واقليم باناس واقليم داعية واقليم بيت الآبار واقليم حُردان واقليم بيت لهيا ويدخل في اقليم خولان داريا وبلاس وفي اقليم باناس بلدا وبيلا وفي اقليم داعية كفر بطنا وحمورية وفي اقليم بيت الآبار المنيحة وجرمانا وفي اقليم حُردان سقبا وبرتايا وفي اقليم بيت لهيا جوبر وجديا ورأينا في القرن الثامن اقليم المزة واقليم برزة واقليم الزنار (كذا) واقليم الجبهة ، فاستدللنا بذلك ان الاقاليم قد تتبدل اسماؤها وقواعدها .

وكان في بعض قريات الغوطة قضاة ينظرون في شؤون أهلها ، واذا عرفنا ان القاضي في الاسلام كان اليه النظر في القضايا الدينية والمدنية بل كانت له الحسبة أحياناً أي الاشراف على ما يمتع الناس بالراحة والصحة والأمن في المدن القرى - وقد يكون له الحكم في الأمور السياسية أيضاً - أدركنا مكانة القاضي من أداة الحكم يومئذ[1]

---

(١) كان الولاة في بعض العصور يحاولون أن يفصلوا بين الشرع والسياسة فقد ذكر صاحب الدارس ان شهاب الدين التلمساني قاضي قضاة المالكية في دمشق طلب غريماً من الحاجب فامتنع من ارساله اليه فطلبه القاضي فلما حضر اليه اهانه واخرق فيه فتعصب الامراء وكتبوا الى مصر فورد المرسوم —

ولا نعجب أن سمعنا انه كان في جسرين [1] في العصور الأولى قاض ينظر في مسائل الغوطة كما كان لبيت الآبار قاض ولداريا قاض ولعين ثرماء قاض ولزملكا قاض . وكثيراً ما كانت الغوطتان تفردان بالحكم ويولى عليهما وال على نحو ما كان في القرن الخامس . كان واليها والياً على جبل سنير وكانت في القرن السادس ولاية تضاف اليها المرج وعمالات اخرى مجاورة . قال ابن القلانسي وصل القائد بدر العطار الى دمشق سنة ٤٠١ والياً على الغوطتين والشرطة وجبل سنير وعزل عنها وجيه الدولة بن حمدان.

وبعد عهد الدولتين النورية والصلاحية قسمت الغوطة تقسيماً

— (٨٥٢) . بان القضاة لا يطلبون احداً من عند حكام السياسة ولا يحكمون فيمن سبقت دعواه اليهم وكذلك حكام السياسة لا يأخذون احداً من مجالس الشرع الشريف ولا يحكمون فيه ونودي بذلك بدمشق ، ثم حضر من مصر القاضي ابن عامر المالكي عوضه وعلى يده مرسوم السلطان بان حكام السياسة لا يأخذون من مجالس حكمه غريماً وان كان لأحد عنده محاكمة شرعية وخصمه عند السياسة يطلبه من عندهم ويعمل ما يقتضيه مذهبه الشريف.

(١) من هؤلاء القضاة ابو القاسم العذري الجسريني قاضي الغوطة كان يقضي بين أهلها (٣٣٩) وعبد العزيز بن هاشم قاضي جوبر وعبد الواحد بن محمد الهمداني قاضي عين ثرماء (٤١٥) ومحمد بن خالد الحضرمي البتلهي قاضي بيت لهيا (٣٢٣) وخلف بن محمد العبسي الداراني قاضي داريا واحمد بن هارون خال ابن حيوس الشاعر الدمشقي (٤٧٣) قاضي الغوطة .

آخر وكذلك في عهد المماليك البرجية والبحرية ولم تصل الينا تفاصيل ذلك . وفي العهد العثماني جعلت الغوطة قضاءين وقسمت الى عدة نواح او تبعت بعض القاصي من قراه قضاء وادي العجم او ضمّت الى دومة أكثر قرى قلمون والمرج كما هو الحال الآن وهناك ناحيتان الأولى مركزها عربيل ومركز الثانية داريا.

ولقرب القرى من العاصمة العظمى ولاختلاط بعض وجوهها بأهل الطبقة المثلى في دمشق كان الظلم الذي يقع على أهل الغوطة قليلاً بالقياس الى سائر الأقاليم لذلك ظلت أمهات قراها عامرة بعض الشيء ونجت من الانحلال الكلي على نحو ما كان نصيب أكثر البلدان والقرى .

وجاء من الملوك من خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً كالظاهر بيبرس البندقداري فانه كان يرجع الى أملاك الناس وخزائنهم اذا أحسّ بأقل ضائقة ولما أراد أن يقرر القطيعة على البساتين بدمشق واحتاط عليها وعلى الأملاك والقرى قال له القاضي شمس الدين بن عطاء الحنفي ، هذا ما لا يحل ولا يجوز لأحد أن يتحدث فيه وقام مغضباً وتوقف الحال . ولما أراد السلطان التوجه الى مصر أحضر العلماء وأخرج فتاوى الحنفية باستحقاق القطيعه بحكم ان دمشق فتحها عمر بن الخطاب رضي الله عنه عنوة ثم قال من كان معه كتاب

عتيق أجريناه والا فنحن فتحنا هذه البلاد بسيوفنا ثم قرر عليهم الف الف درهم فسألوه أن يقسطها فأبى وتمادى الحال فعجلوا له أربعمائة الف درهم ثم أسقط الباقي عنهم

قال ابن الاثير : فاتفق انه كان (سيف الدولة) يسير هو والشريف العقيلي بنواحي دمشق ان قال سيف الدولة ما تصلح هذه الغوطة الا لرجل واحد فقال له العقيلي هي لأقوام كثيرة فقال سيف الدوله : لئن أخذتها القوانين السلطانية ليتبرؤن منها فاعلم العقيلي أهل دمشق بذلك فكاتبوا كافوراً يستدعونه فجاءهم فأخرجوا سيف الدولة عنهم سنة ست وثلاثين وثلثمائة .

ومن الامور التي يجب اليوم معالجتها وهي تضر بالغوطة كثيراً تجزئة أرضها أجزاء صغيرة لا ينتفع بها الانتفاع المطلوب، ذلك لأن قصبات قليلة أو مسكبة صغيرة لا تقوم بأود فرد ولا تحتمل انقطاعه اليها، ولا يتأتى لمالكها ان يجعل منها علة معاشه فالأولى عند ظهور التقسيم أن ينزل الورثة عن حصتهم لأعظم الشركاء في الأرض ويأخذوا منه ثمن ارثهم يصرفونه فيما يكون أعود عليهم، وبذلك يتأتى لصاحب الحصة العظيمة العناية بما يملك وينصرف هو وعياله الى تعهدها .

واذا انحل الوقف الأهلي أو الوقف الذري - وهو الآن في طريق الحل - وقسمت الأرض قسمة عادلة على ان لا يملك أكبر

مالك اكثر من خمسين فداناً ولا اقل من خمسة ، واذا أتي لها باخصائيين من المشهود لهم في العالم بمداواة أمراض الحيوان والدواجن وابادة الحشرات تدخل الغوطة في دور العمران العظيم .

أما بعد فان حاجة الغوطة ماسة الى رجال ادارة يصدقون خدمتها، ويصرفون وكدهم في اصلاح المختل من معوج ادارتها، يجري اختيارهم من طبقة تفكر فيما يصلحها أكثر من تفكيرها في منافعها الشخصية ، فالغوطة ينقصها الموظف الحازم الذي ينظر في مصلحة الفلاح قبل كل شيء ، على أن معظم العمال لا يهتمون لغير قبض المشاهرة، والتهام ما يفتح الله به من الهدايا يستهدونها أرباب المصالح بفجة عجيبة، وهم من الصنف الذي لا مزية له الا ارضاء العامل الأكبر يستميلون قلبه بجربذة ومكر . أما كبار رجال الدولة فلا يعرفون شيئاً من حال الغوطة أكثر مما يعرف العامة ومنهم من لم يزرها حياته فضلاً عن أن تحدثه نفسه بجلب الخير اليها . وقد عهدت وزير زراعة ما كان يعرف ما هي الغوطة أخصب اقليم وأعمر أرض في هذه الديار الشامية .

ومما يخشى منه على الغوطة زيادة نفوسها على الأيام وكثرة التبطل بعض ايام السنة، على حين نرى المرج الملاصق لها يشكو قلة اليد العاملة ويود لو نزله المتبطلون ينفعهم وينتفعون به وهناك

أقاليم كثيرة يتيسر لابن الغوطة ان يحييها اذا عاونته الحكومة بادئ بدء وتخلص الغوطة من الاشباع والتضخم.

مسائل داخلة في اختصاص الصغار من العمال وهم لا ينهون بها الى رؤسائهم ولكن الصغار صغار بتدبيرهم وتقديرهم. ومن الواجب ان يكون مدير الناحية أرقى من القائم مقام لأنه يصدر عن نفسه في معظم فروع الادارة فاذا كان قليل البضاعة ومن الفريق الذي لا يعرف غير حوالة الأوراق وارضاء القائم مقام أو المحافظ، ولا يحب أن يتعب نفسه بالتعلم والعمل، فالأشغال تتراكم والاصلاح يطول ولسان حال الفلاح يجهر بقول حافظ ابراهيم:

أيشتكي الفقر غادينا ورائحنا ونحن نمشي على أرض من ذهب؟

الفصل الرابع عشر

العلم والأدب

عُني بنو أمية وخلفاؤهم بتربية أهل الغوطة، فكما برّزوا في عمارة أرضها واقامة القصور المنيفة فيها لم يقصروا في حمل هدي الدين الى نفوس ساكنيها، وذلك مذ كتب أمير الشام يزيد بن أبي سفيان الى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ان أهل الشام قد كثروا وربلوا وملأوا المدائن واحتاجوا الى من يعلمهم القرآن ويفقههم، فأعنّي يا أمير المؤمنين برجال يعلمونهم. فأرسل اليه ثلاثة من الصحابة، وكان ابو الدرداء معلم أهل دمشق وعمالاتها. ويعني بقوله أهل الشام العرب النازلين في الديار الشامية يومئذ سواء كانوا من العرب القدماء أو من العرب الفاتحين.

ولم يكن حظ الغوطة من العلم في الاسلام على ما يكون حظ القرى منه في العادة، ذلك لأن قراها وحدائقها أشبه بأحياء لا يبعد بعضها عن بعض مسافة طويلة وهي على مقربة من العاصمة الكبرى.

حلّ بالغوطة الصحابة والتابعون وتابعوهم وبعضهم كان على نصيب من العلم، وكان من انتشار بني أمية في أرجائها ما أعان على

سرعة نشر اللغة والدين ولم تخل قرية من قرى دمشق من رجل سكنها او ولد فيها من رواة العلم . ومن الطبيعي ان يكون للرجل الممتاز مدرسة خاصة أي طريقة في العلم اتخذها لنفسه ، ولكل فرد جماعة وعشراء يأخذون عنه ما ينفعهم ويتفق ومشاربهم وعقولهم .

وبديهي أن تكون الفصاحة في بعض النازلين من العرب متأصلة وكان منهم من يقول الشعر بالسليقة ومنهم من يرتجل الخطب ويوجز في انشائه . فقد كان الحارث بن عبد الرحمن الجُرَشي من وجوه أهل الغوطة وفصحائها وفد على ابي جعفر المنصور مع جماعة من أهل الشام كانوا حاربوا المنصور ووالوا عبد الله بن علي ، فقام عدة منهم فتكلموا ثم قام الحارث فتكلم فقال : يا أمير المؤمنين انا لسنا وفد مباهاة ولكننا وفد توبة ، ابتُلينا بفتنة استفزت كريمنا ، واستخفت حليمنا ، فنحن بما قدّمنا معترفون ، وبما سلف منا معتذرون ، فان تعاقبنا فبما أجرمنا ، وان تعف وتحسن فطالما احسنت لمن أساء . فقال المنصور للوفد : خطيبكم الجُرَشي . وأمر برد ضياعه اليه في الغوطة أي أراضيه .

ومن انجازهم ما كتبه أبو الهيذام رئيس القيسية الى أهل مزة كلب أيام فتنته المشهورة وقد قطع أهل مزة الماء عن أهل دمشق

وهو قوله : « الى بني استها اهل مزة ليُسيتي الماء أو لتصبحنّكم الخيل » فوافاهم الماء قبل أن يُعتموا .

وكانت جمهرة المسلمين لأول الأمر تتأدب في الجوامع والمساجد ، ولا تخلو قرية من مؤدب يؤدب أولادها الأدب الذي لا يستغني عنه مسلم ، يعلمهم القراءة والكتابة ويحفظهم القرآن وبعض السنة ويرويهم الشعر ويدربهم على الحساب ، فينشأ منهم نابتة يشاركون مشاركة لا بأس بها في الآداب ، ومن آنس من نفسه كفاءة واستغنى أهله عنه في زراعتهم أكمل علمه على الشيوخ والعلماء . والناس في العادة يحفون لاستماع من ينزل عليهم من أرباب الذكر وينقلون عنهم ما تهوى اليه قلوبهم من صنوف المعارف .

كان التلقي عن الرجال من أهم عوامل التعليم عند القدامى ، ودام ذلك الى عهد قريب . وكان من الولع برواية الحديث [1] النبوي أعظم معوان على نشر الثقافة ، ورواية الحديث توقف على تلقف شيء من

(١) قال ابن الجوزي في صيد الخاطر : ينبغي للانسان ان يقتصر من القراآت اذا حفظ القرآن على العشرة ومن الحديث على الصحاح والمسند والمسانيد المصنفة فان علوم الحديث قد انبسطت زائدة في الحد وعلم الحديث يتعلق بعضه ببعض وهو مشتهى والفقهاء يسمونه علم الكمالى لأنهم يتشاغلون بكتابته وسماعه ولا يكادون يعانون حفظه ويفوتهم المهم وهو الفقه . وقد كان المحدثون قديماً هم الفقهاء ثم صار الفقهاء لا يعرفون الحديث والمحدثون لا يعرفون الفقه فهو اعظم العلوم وأهمها .

اللغة والنحو والصرف والشعر والانساب وتقويم البلدان .

ولما نشأت المدارس بدمشق واقتفت أثرها سائر المدن الشامية اكتفت قرى الغوطة بمدارس دمشق أو ما أنشئ في ظاهرها كمدارس الصالحية تبعث اليها بعض أبنائها . وأعاظم المدرسين في الغالب ينزلون الحواضر والعواصم . وما كانت نسبة عدد طلاب المدارس من أهل الغوطة على ما يظهر أقل من نسبة غيرهم . وجاءت قرون والغوطة تغذو عاصمتها برعيل من بنيها تكثر بهم سواد العارفين والعاملين . وكان من البيوت ما ترى البركة في أن يأخذ بعض أبنائها العلم عن شيخ عظيم ويتخرج في مدرسة مشهورة لينفع أهل قريته في دينهم ، ويكون له الظهور عليهم في الشؤون الدنيوية . ومن كتب له من رواة الحديث أن يصل سنده بسند محدث كبير عدّ ذلك من مفاخره وآية سعادته .

بلغت الغوطة من درجات العلم مكانة سامية وما خلت في أكثر الأدوار قرية من قراها من رواة السنة وأرباب الفقه وممن يقرضون الشعر وقد أخرجت رجالاً اشتهروا شهرة عالمية وخدموا الشريعة على اختلاف مظاهرها ومنهم من انحصرت شهرتهم في صقعهم لم تتعده الى الأصقاع الأخرى وفي أكثر العصور كانت داريا حاضرة العلم والأدب في الغوطة . ويقول السمعاني انه كان في داريا جماعة

كثيرة من العلماء المحدثين قديماً وحديثاً وممن نبغ فيها من الصحابة عبد الرحمن بن يزيد الازدي الداراني ويعد في الطبقة الثانية من فقهاء الشام ومن التابعين من أهلها سالم بن عبد الله المحاربي قاضي دمشق وكان من حملة القرآن وممن يحضر الدراسة في جامع دمشق ، ومنهم فقيه الشام وقاضيه ابو ادريس الخولاني (عائذ الله بن عبد الله ويقال عبد الله) تولى القضاء بدمشق لمعاوية وابنه يزيد ومنهم ابو سليمان الداراني الذي يقول فيه أبوحيان التوحيدي انه جمع كتبه في تنور وسجرها بالنار ثم قال: والله ما احرقتك حتى كدت أحترق بك . فعل ذلك مخافة أن يكون خطّ فيها ما يستحق عليه النار يوم القيامة ، ومنهم سليمان بن حبيب الداراني قاضي دمشق لعمر بن عبد العزيز ويزيد وهشام ابني عبد الملك قضى لهم ثلاثين سنة . ومنهم عمير بن هانيء العنسي الداراني المحدث (١٢٧) ومات فيها في سنة اربع ومائة وقيل سنة سبع عبد الله بن زيد البصري الامام وكان طلب للقضاء فهرب ونزل داريا وكان رأساً في العلم والعمل .

يقول عبد الرحمن العمادي في «الروضة الريا فيمن دفن بداريا» وممن سكن داريا بلال الحبشي مؤذن رسول الله مات سنة عشرين قال ابن كثير والظاهر انه دفن بداريا وان القبر الذي بباب الصغير الذي يقال له قبر بلال انما هو قبر بلال بن ابي الدرداء لا قبر بلال بن

حمامة مؤذن رسول الله . وبلال ابن أبي الدرداء كان ولي امرة دمشق ثم ولي القضاء بها وكان حسن السيرة يكثر العبادة ، وعزله عبد الملك ابن مروان عن القضاء وولى أبا ادريس الخولاني وهو القاضي المشهور للأمويين. وممن سكن داريا ابن ثعلبة النخشبي الصحابي وسكنها من التابعين ثابت بن سعيد المحاربي وأخوه عطية ومنهم الأسود ابن بلال المحاربي التابعي وسعيد بن عكرمة الخولاني وكان على حرس عمر بن عبد العزيز ، وعمر بن عبد الله الخولاني وسكن داريا خلائق من التابعين وجملة من العلماء والمحدثين . قال العمادي وقد رأيت مؤلفاً مفرداً في أسماء المحدثين بداريا ورأيت جزءاً في الأحاديث التي رويت عند ضريح ابي مسلم الخولاني .

وفي تاريخ داريا « ومن نزلها من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين وأملى العلم على طبقاتهم وأزمانهم وذكر وفاتهم ومن أعقب بها » تصنيف القاضي أبي علي عبد الجبار بن عبد الله الخولاني الداراني : قال عبد الرحمن بن يزيد بن جابر من أراد العلم فلينزل داريا بين عنس وخولان .

وذكر ابن راشد الخولاني وأسود بن اصرم المحاربي والوليد على نزوله قطائع له تعرف به الى اليوم روى عنه سليمان بن حبيب

المحاربي قاضي الخلفاء وهو ممن نزل داريا وله بها أوقاف تجري على ساكنيها وكلثوم بن زياد المحاربي والأسود بن بلال المحاربي وثابت ابن معبد المحاربي وسعيد بن عكرمة الخولاني ومحمد بن الحجاج بن أبي قيلة المحاربي وعبد الله بن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر الأزدي وسليمان بن عتبة الغساني وأبا سليمان الداراني واسمه عبد الرحمن بن احمد بن عطية العنسي وعمرو بن الاسود العنسي ويكنى أبا فياض ونزوله داريا وبها جماعة من ولده الى هذا اليوم وعمرو بن عُبُد الخولاني وأبا قِلابة الجَرمي وعمير بن هانئ العنسي وسليمان بن حبيب المحاربي قاضي الخلفاء وأبا كثير المحاربي وعثمان بن عبد الأعلى بن سراقة الأزدي وعبد الرحمن بن أبي كبيرة العنسي ومعاوية بن طُويع وعمر بن طُويع ويزيد بن يزيد بن جابر الأزدي وادريس بن ابي ادريس الخولاني وعبد الرحمن بن يزيد بن جابر ويكنى أبا عتبة وسليمان بن داود الخولاني وكعب بن حامد العنسي وابن مرة الداراني ومسلمة العدل والنعمان بن المنذر الغساني والقاسم بن هران الخولاني وعمرو بن شراحيل ويكنى أبا المغيرة وتميم بن عطية العنسي وعبد الرحمن بن سليمان بن أبي الجون العنسي وسعيد بن يزيد بن ذي عصوان وسالم بن عبد الله بن عصمة المحاربي وبكر بن زُرعة الخولاني وأم مسلم الخولانية زوجة أبي مسلم وعمرو بن جُز الخولاني

وأبا ادريس الخولاني وسليمان بن أبي سليمان وعبد الرحيم بن صالح. وختم الكتاب بذكر بعض أهل داريا وكان في آخرهم علي بن داود بن عبد الله المُقري امام المسجد الجامع بدمشق واليه انتهت الرياسة في القراءة توفي لست خلون من جمادى الاولى سنة اثنتين وأربعمائة

وكانت داريا منذ القرن الأول مركزاً من مراكز القدرية الذين سموا بالمعتزلة بعد حين، ولا يعقل ان ينشر غيلان الدمشقي دعوته في الدانية والقاصية وتكون داريا بمعزل عنها وغيلان قتله بعض خلفاء بني أمية بما دعا اليه ثم انتشرت دعوته فانتحلها بعض المتأخرين منهم، وسرت في الآفاق سريان المذاهب الأخرى في القرون التالية .

قال المسعودي وكان خروج يزيد بن الوليد بدمشق مع من شايعه من المعتزله وغيرهم من أهل داريا والمزة من غوطة دمشق على الوليد بن يزيد لما ظهر من فسقه وشمل الناس من جوره .

وفي داريا نبغ خطيب من أعظم خطباء الاسلام وهو علي بن داود (٤٠٢) المتقدم ذكره آنفاً قالوا لما مات خطيب الأموي بدمشق لم ير أهلها من يخلفه أقدر من الخطيب الداراني فطلع كبراء دمشق الى داريا وطلبوا الى علي بن داود أن يكون خطيب جامعهم فوثب

أهل داريا بالسلاح وقالوا لا نعطيكم خطيبنا، فقال رئيس الوفد : أما ترضون يا أهل داريا أن تسمع الناس في البلاد ان أهل دمشق احتاجوا اليكم في امام، فتولى خطابة الجامع ولم يرض أن يأخذ معلومها وسكن في غرفة احدى مآذن الجامع .

وحدث أيضاً في القرن السابع أن مات خطيب جامع بني أمية فلم ير أهل دمشق خلفاً له أحسن من خطيب جامع بيت الآبار يخطبهم ويعظهم فجاءوا به كما جاءوا في القرن الخامس من داريا بعلي بن داود يخطبهم .

ومعلوم ان الدولة الاسلامية كانت تعني بتخير الخطباء والقصاص أو الوعاظ من أرقى الطبقات لأن بأيديهم قيادة الرأي العام، ويفضّلون منهم من يدرك معنى السياسة أو يكون على الحياد يخدم المصلحة الدينية فقط . ولما ضاق الملك العادل ابو بكر بن أيوب ذرعاً بحرب الصليبيين ورأى فتور الناس في جهادهم تقدم الى سبط ابن الجوزي الواعظ العظيم ان يحث المسلمين على قتال الصليبيين فدبّر هذا مع بعض أهل دمشق طريقة لطيفة لتحريك نفوس المسلمين وذلك بأن جزّ نساء دمشق شعورهن وحمله الحمالون وكانوا ثلاثمائة حمال الى المسجد الجامع وقت صلاة الجمعة والخطيب على المنبر والحمالون ينادون ان نساء دمشق قدمن شعورهن لتعمل منها شكالات لخيل

الجهاد فضج الناس بالبكاء وانقلبوا من ساعتهم الى ساحات الوغى يدفعون الافرنج عن ارضهم. قال المؤرخون ان قرية زملكا وحدها قدمت الف فارس لهذه الغاية. ونجح الملك العادل بتحريض الناس على الجهاد من طريق الواعظ الكبير.

ومع أن عصر نور الدين بن زنكي وعصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب كانا من أشد العصور على المسلمين تجيش فيه أوربا على ديارنا بمئات الألوف كان عصراهما من أبرك العصور على العلم والأدب أيضاً ذلك لأن الدولتين النورية والصلاحية كان فيهما كل شيء يعمل بجد. جدّ مؤسساهما في الحرب وجدا في العلم وجدا في نشر كل فضيلة. وكان من برّ نور الدين وصلاح الدين للعلماء ما هو معروف مشهور.

وبعد الدولة الصلاحية أهمل رجال السياسة العلوم الدينية حتى قال ابن طولون في زغل المناصب: ومن حق نائب السلطنة اقامة فقيه في كل قرية يعلم أهلها أمر دينهم، ومن العجيب أن أولياء الأمور يستخدمون في كل حصن طبيباً ويستصحبونه في أسفارهم بمعلوم من بيت المال ولا يتخذون فقيهاً بعلم الدين.

أما العثمانيون فقد ارتكبوا ما هو أفظع من عمل المماليك واهمالهم تعليم أهل القرى وذلك بان قضوا ان «يبقى أبناء الميت ولو كانوا

صغاراً على وظائف آبائهم مطلقاً من امامة وخطابة وغير ذلك لأن فيه احياء خلف العلماء ومساعدتهم على بذل الجهد في الاشتغال بالعلم وقد أفتى بجواز ذلك طائفة من أكابر القضاة الذين يعول على افتائهم - قاله البيري من فقهائهم» أي ان هذه الدولة قضت بان تورث الوظائف الدينية كما يورث العقار أو الأرض وبذلك انحط الدين بانحطاط القائمين عليه، شوهد ذلك محسوساً في المدن وعمّ القرى، جهل مطبق.

نعم ما كانت أكثر قرى الغوطة تخلو من أفذاذ من العلماء نبغوا منها أو سكنوا فيها فقد أخرجت بيت لهيا في القرن الثاني يحيى بن حمزة الحضرمي البتلهي (١٨٣) قاضي دمشق ومحدثها وكان يرمي بالقدر تولى القضاء ثلاثين سنة. ونَبُهَ من أبناء حرستا القاضي جمال الدين عبد الصمد الأنصاري في القرن السابع ومن أعظم فقهاء عصره وكان ولي القضاء في كهولته ثم تركه، ووليه وقد تجاوز التسعين عاماً وذلك بالزام الملك العادل أبي بكر بن أيوب صاحب مصر والشام، ومات وهو قاضي القضاة سنة ٦١٤ عن ٩٤ عاماً، وكانت سيرته في العدل مضرب الأمثال[1]، والغالب ان العلم

(١) نقل صاحب الدارس عن سبط ابن الجوزي ان الملك العادل كتب لبعض خواصه كتاباً يوصي به القاضي جمال الدين عبد الصمد الانصاري في حكومة بينه وبين آخر فجاء اليه الكتاب فقال: أي شيء فيه قال: وصية في —

تسلسل في بيت القاضي عبد الصمد قال ابن العماد في حوادث سنة
ثنتين وثمانين وستمائة وفيها مات ابن الحرستاني خطيب دمشق
محي الدين أبو حامد محمد بن الخطيب عماد الدين عبدالكريم بن القاضي
ابي القاسم عبد الصمد بن الحرستاني الأنصاري درس وأفتى وكان
قوي المشاركة في العلوم وعلى خطابته طلاوة وروح وكان شاعراً مجيداً.
واشتهر في القرن السابع والثامن ثلة من رجال الحديث كانوا من أبناء
الغوطة ومنهم الحافظ الزملكاني (٦٥١) والحافظ اليلداني (٦٥٦)
والحافظ المزي (٧٤٢) وكان من أجداد الحافظ الزملكاني غير واحد
من الأجلاء منهم خطيب زملكا كمال الدين بن عبد الواحد بن خلف
(٦٥٠) كان متميزاً في علوم متعددة وولي القضاء وهو جد كمال الدين
ومنهم خطيب زملكا عبد الكريم بن خلف الانصاري (٦٣٣)
وكأن العلم تسلسل في بيت الحافظ الزملكاني كما تسلسل في بيت
القاضي عبد الصمد الحرستاني. واشتهر المؤرخ محمد بن زكريا الداراني
(٧٦٤) كما اشتهر القطب العربيني والتقي اليلداني (٦٥٥) ولد في

—قال : أحضر خصمك فأحضره ، والكتاب بيده لم يفتحه ، وادعى على الرجل ،
فظهر الحق لغريمه فقضى عليه ، ثم فتح الكتاب وقرأه ورمى الكتاب لحامله
وقال : كتاب الله قد قضى وحكم على هذا الكتاب ، فمضى الرجل الى العادل
فبكى بين يديه ، وأخبره بما قال القاضي فقال العادل : صدق ، كتاب الله
اولى من كتابي .

بلدا ودفن بها ودرس بالفاضلية. كما دفن في داريا خطيبها ركن الدين
ابو عبد الله الوهراني الجزائري صاحب النكات البديعة الذي كتب
الجد في الهزل والهزل في الجد (٥٧٥) وممن اشتهر شهرة عالمية
في الفلك والطبيعيات والجغرافيا والعلوم الغريبة محمد بن أبي طالب
الأنصاري الملقب بشيخ الربوة (٧٢٧) كان شيخ ربوة دمشق
وامامها . واشتهر شهرة عظيمة في الآفاق الحافظ الذهبي صاحب
المؤلفات الجليلة في التاريخ والحديث وهو ابن كفربطنا [1] في بعض
الروايات وكان يدرس فيها . أصل أجداده من التركمان ونشأ نشأة
عربية عالية .

وكما كان يسمع في عصور الترقي اسم الصنعاني والداراني
والأرزوني والقوفي واليلداني والسقباني والمنيحي والبلاطي والحجراوي
والحرستاني (أو الحرستاوي) والدومي والكفربطناني (أو الكفربطنائي)
والجسريني والبتلهي والجوبري، صرت تسمع في عصور التدني اسم
العقرباني والبيبلي والحموري والعربيلي. وكان محمد بن عمر الدينوري
خطيب داريا ، وكان ابن عروة الحنبلي صاحب الكواكب الدراري

(١) مما يستدل به على اتصال الذهبي بكفربطنا ما قاله في المشتبه من
تاليفه من أن القُرَيْري بفاء فلاح بجيمين وبقاف مضمومة القُرَيْري الزاهد
عثمان له كشف وحال واتباع يجمع الشباب على السماعات بكفربطنا
مات سنة ٦٨٠ .

انقطع الى مسجد القدم بآخر أرض القبيبات (٨٣٨)يعلم الاطفال احتسابا
ويسد عوزه بما تكسبه يداه من نسج الأعبئة

ومن البلدان ما غلب عليه الحديث أكثر من الفقه ومنها ما غلبت عليه الرواية أكثر من الدراية ومنها من جمع بينهما. ومن القرى ما كان حفظ القرآن شائعاً في أهلها كما هو الحال اليوم في قرية عربيل فقد شاع حفظ القرآن والقراآت بالسبع فيها. وكثيراً ما نقرأ في الكتب اسم ابن خطيب داريا ، ابن خطيب بيت الآبار ، ابن خطيب المزة مما دل على أن بعض البيوت كانت ألفت العلم فتخرج الأبناء بالآباء ومشوا على آثارهم.

قلنا ان أهل الغوطة مشوا على آثار العاصمة في تلقي العلم وكان لعلم الحديث أكبر قسط من عنايتهم وليس أدل على ذلك من تأليف الحافظ ابن عساكر كتاب روايات ساكني داريا ستة أجزاء وكتاب من نزل المزة وحدث بها جزء واحد وكتاب أحاديث كفرسوسية جزء واحد وكتاب أحاديث صنعاء الشام جزآن وكتاب فضل الربوة والنيرب ومن حدث بهما وكتاب حديث الحميريين وقينية جزء واحد وكتاب حديث أهل فذايا وبيت ارانس وبيت قوفا جزء واحد وكتاب حديث أهل قرية البلاط جزء ومن حديث أهل زبدين وجسرين جزء واحد ومن حديث سلمة بن علي البلاطي جزآن

ومن حديث أهل بيت سوا جزء واحد ومن حديث دومة ومسرابا والقصير جزء ومن حديث جماعة من أهل حرستا جزء ومن حديث أهل كفر بطنا جزء ومن حديث أهل دقانية وحجيرة وعين ترماء وجديا وطرميس جزء ومن حديث جماعة من أهل بيت لهيا جزء ومن حديث يحيى بن حمزة البتلهي جزآن ومن حديث أهل برزة جزء. وكل هذه القرى من الغوطة. وفي هذا دليل آخر على أن ما كان وراء حدود هذه القرى المذكورة من الشرق والغرب والشمال والجنوب ليس من الغوطة.

ولما بدأ اضمحلال العلم في القرن التاسع والعاشر ببلاد الاسلام غدت الغوطة في المسائل العقلية اسماً لا مسمى له، ورجعت القهقري فأمسى أهلها فلاحين أكارين فقط، اذا عرف بعضهم فروض الصلاة وبعض العقائد عدوه رجلاً وربما أطلقوا عليه اسم العالم. أما العلوم الاخرى فلم يكن لأهلها فيها ورد ولا صدر. والى عهد قريب قلّ من ذاق من أهلها ولو قليلاً من العلوم المدنية والعارفون من سكانها بالأمور الدينية لو جمعوا في قريتين ما وفوا بحاجة أهلهما ويزيد كل سنة عدد من تعلموا العلوم المدنية، ومنهم بعض المعلمين والأطباء والاداريين والشعراء والوعاظ.

ومن القرى ذات الألف والألفين من السكان ما ليس في أبنائها

اليوم من تصح صلاته ويقدر أن يؤمهم ويحسن النطق فيخطبهم أو يجود آيات من القرآن تمكنه من تعليم أولادهم أو يعرف من الحساب الأعمال الأربعة لينظر في حساب مياههم ومشاكلهم مع التجار والمرابين والحكومة، واذا أفلحوا وجادوا باجرة خطيب يصلي فيهم يأتون به من طبقة نازلة ولا تسمح نفوسهم باداء أجر خطيب يزكن أمور الدين .

هذا في المسائل الدينية وهي أعلق الأشياء بقلوبهم فما بالك بمسائل التعليم فان قرية متوسطة في الغوطة الوسطى وأهلها أكثر من الف نسمة ليس فيها مدرسة وقلما أهمّ أهلها التعليم بقدر ما يهمهم جمع المال والتدنيق في النفقة وقد بنوا لهم مأذنة في العهد الاخير والله أعلم متى يبنون المدرسة .

ولا تزال بعض القرى الى اليوم خالية من مدرسة للذكور فضلاً عن مدارس إناث، والفرق ظاهر بين القرية التي أنشأت مدرسة منذ جيل والقرية التي لم تبرح خالية من شيء اسمه مدرسة أو فيها كتاب يعلم الأطفال القرآن فقط على الطريقة القديمة .

أما القرية التي تهيأ لها من يفيدها فقد تجلت فيها النهضة على أجمل مظاهرها فقام من أهل عربيل الشيخ محمد عبده وعلّم أهلها على الطريقة التي ما كان يحسن غيرها وقد افادت على ما حملت من تعصب .

حرّج عليهم أكل الربا فلم يتبايعوا به وكان ذلك من دواعي اغتنائهم وانتظام شؤونهم الاقتصادية . وتبعه قريبه الشيخ عبد القادر تويدر فتلقى القرآت على شيخ قراء دمشق صديقي الأستاذ العالم الشيخ عبد الله المنجد وعاد الى عربيل يعلم أهلها القرآن ويفقههم في الدين حتى أصبح اليوم فيها ما يزيد على مائة رجل يحفظون كتاب الله . وقام الأستاذ الشيخ محمود العطار يصرف جهداً محموداً في قريتي القدم وكفرسوسية من الغوطة فعلم أهلهما وفقههم سنين طويلة بدافع من نفسه وباعث من دينه وكان رحمه الله يسير اليهم على رجليه ولا يتخلف عن الميعاد الذي ضربه لتعليمهم حتى أخرج ناشئة صالحة رفعت غشاوة الجهل عنها بما ساعدته عليه قوته الشخصية وهداه اليه سعيه الفردي . وقد بذل في تعليم أهل قرية القدم صديقانا العالمان العاملان الشيخ محمد بهجة البيطار والشيخ محمد أحمد دهمان عنايه كبيرة. ومتى كثر من أبناء الغوطة من يفكرون في خير قومهم تصبح حقيقة جنة غناء بطبيعتها وبما يدخل عقول أبنائها من نور .

الفصل الخامس عشر

المدارس والخوانق والرُبُط والزوايا

كان المسلمون في القرون الأربعة الأولى للاسلام يتخذون من الجوامع والمساجد أماكن لاجراء الأحكام كما كانت لهم بمثابة دور لتلقين العلم على اختلاف ضروبه وفي القرن الخامس أنشئت المدارس يأخذ فيها الطلاب العلم وتدر عليهم المعاليم والأرزاق ويتولى تدريسهم العلماء ويتخرّج بهم الطلبة ويجازون بما تعلموا اجازات لا ينالونها الا بعد اثبات كفاءتهم فيما تلقوه .

وقد أنشأ في دمشق أحد أبنائها رشأ بن نظيف بن ما شاء الله مدرسته المعروفة بالرشائية اتخذها دار قرآن سنة ٤٤٤ . وكثرت بعد ذلك المدارس في دمشق وضاحيتها من أرض الغوطة ولا سيما في الصالحية. ونحن نذكر هنا ما كان في أرض الغوطة من كبريات المدارس .

١ — دور القرآن :

دار القرآن الدلامية : بالقرب من المارداني على الجسر الأبيض ، بالجانب الشرقي من الشارع الآخذ الى المدرسة الجهاركسية .

أنشأها زين الدين ابن دلامة سنة ٨٤٧ ، وكان من أجل أعيان الخواجكية . وخصص في صك وقفها مائة درهم لقراءة البخاري .

دار القرآن الصابونية : خارج باب الجابية قبالة مقبرة الباب الصغير.

أنشأها احمد بن سليمان بن محمد البكري الصابوني سنة ٨٦٨ .

وهاتان المدرستان شبه عامرتين . الا انهما خرجتا على شروط الواقف عليهما

٢ — دور الحديث :

دار الحديث الأشرفية : بسفح قاسيون على ضفة نهر يزيد ، تجاه تربة الوزير تقي الدين التكريتي أمر ببنائها للحافظ عبد الله المقدسي الملك الأشرف موسى بن الملك العادل المتوفى سنة ٦٣٥ هـ . وقد تهدمت ولم يبق غير واجهتها .

دار الحديث القلانسية : غربي المدرسة العمرية بالصالحية . انشاء أبي يعلى حمزة بن أسد المعروف بابن القلانسي سنة ٧٢٩ . وهي رباط ودار حديث .

دار الحديث الناصرية : قبلي جامع الأفرم بسفح قاسيون . انشاء الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن الملك العزيز (٦٤٥) . وقد دثرت .

٣ — مدارس الشافعية :

الأتابكية : غربي المرشدية ودار الحديث الأشرفية . أنشأتها زوجة الملك الاشرف موسى المتوفاة سنة ٦٤٠ هـ . وفيها تربتها .

الأسدية : كانت بالشرف القبلي مطلة على الميدان الاخضر . انشأها أسد الدين شيركوه من قواد نور الدين .

الاسعردية : كانت بالجسر الأبيض . أنشأها ابراهيم بن مبارك شاه الاسعردي المتوفى سنة ٨٢٦ . قال ابن قاضي شهبة : كان الاسعردي هذا والشمس ابن المزلق أكبر تجار دمشق . وكان صاحب الاسعردية يقول : عجائب الدنيا أربع وأحسنها غوطة دمشق ، وأحسن الغوطة الصالحية ، واحسن الصالحية الجسر الأبيض .

الأمجدية : بالشرف الأعلى الشمالي ، مطلة على الميدان الأخضر ، قرب مدرسة التجهيز . انشاء الملك الأمجد بهرام شاه . وكان من أشعر بني أيوب .

البهنسية : بسفح قاسيون . أنشأها أبو الأشبال البهنسي وزير الملك الأشرف مظفر الدين موسى (٦٢٨) وهي بجوار حاكورة العدس .

الظاهرية البرانية : كانت بالشرف القبلي مطلة على الميدان بين نهري باناس والقنوات . انشاء الملك الظاهر غازي صاحب حلب .

٤ — مدارس الحنفية :

وقامت في أرض الغوطة مدارس كثيرة للحنفية منها :

الآمدية : بجوار بستان الميطور قرب حي الأكراد .

البدرية : قبالة الشبلية ، بقي منها في أيامنا التربة . انشاء بدر الدين المعروف بلالا ابن الدراية ، من أمراء نور الدين . ومات في أواخر القرن السادس .

الجمالية : بسفح قاسيون . أنشأها جمال الدين يوسف وهي من الدوارس .

الحاجبية : قبلي المدرسة العمرية . انشاء الأمير اينال الحاجب (٨٦٧)

الخاتونية البرانية : في الشرف القبلي . وقفها زمرد خاتون أخت الملك دقاق صاحب دمشق . توفيت سنة ٥٥٧ . وخربت مدرستها في أواخر حكم المماليك .

الركنية البرانية : بالسفح ، عند حي الأكراد . انشاء ركن الدين منكورس (٦٢٥) وعلى واجهتها كتابات كوفية .

الشبلية : بالسفح تجاه البدرية . انشاء شبل الدولة كافور الحسامي طواشي حسام الدين ابن لاجين ولا تزال أطلالها باقية .

العزية البرانية : بالشرف الأعلى شمالي ميدان القصر ، مقابل معمل الكهرباء. انشاء عز الدين استادار الملك المعظم، صاحب صرخد. وما تزال تربته بها قائمة .

العلمية: شرقي الصالحية ، غربي الميطورية ، انشاء علم الدين سنجر المعظمي سنة ٦٢٨ .

الفرخشاهية : بالشرف الأعلى ، لصيق الأمجدية ، وشمالي حديقة الأمة وتطل عليها . أنشأتها حظ الخير خاتون والدة عز الدين فرخشاه، وزوجة شاهنشاه سنة ٥٨٧ .

القلانسية : المشهورة بالخانقاه وغربي العمرية مرّ ذكرها في دور الحديث .

المرشدية : على نهر يزيد بالصالحية جوار دار الحديث الأشرفية انشاء خديجة خاتون بنت الملك المعظم سنة ٦٥٦ داخلها متهدم ومجموعها مختلس .

المعظمية : بسفح قاسيون الغربي جوار المدرسة العزيزية أنشئت سنة ٦٢١ نسبة الى الملك المعظم شرف الدين عيسى بن العادل وهي الآن مدفن .

المارداينية: على ضفة نهر نورة لصيق الجسر الأبيض أنشأتها عزيزة الدين اخشا خاتون . وهي اليوم جامع عامر اتخذ منه بنو المؤيد مدفناً لهم.

المقدمية البرانية : تجاه الركنية بالسفح شرقي الصالحية انشاء شمس الدين بن المقدم .

المنجكية: وهي قبلي مقبرة الصوفية وغربيها وفي الدارس انها بالخلخال وكان الخلخال حديقة أخذت للتكنة الحميدية (الجامعة السورية) انشاء سيف الدين منجك من مماليك الناصر محمد بن قلاوون أسست سنة ٧٧٦

الميطورية : شرقي جبل الصالحية في حي الأكراد وبتعريف آخر بين الصالحية والقابون وقفتها فاطمة خاتون بنت السلار سنة ٦٢٩ خربت

اليغمورية : بالصالحية انشاء جمال الدين بن يغمور الباروقي نائب السلطان الصالح أيوب بالشام اختلست .

٥ — مدارس الحنابلة :

وكان فيها ست مدارس للحنابلة :

الجاموسية : غربي العقيبة خارج دمشق ابتناها وأوقفها المتولون عليها

الصاحبة : بالسفح شرقي الصالحية انشاء ربيعة خاتون بنت نجم الدين أيوب أخت صلاح الدين وست الشام دفنت في فنائها وجعلت مكتباً ابتدائياً للذكور .

الضيائية المحمدية : شرقي جامع المظفرية بجبل قاسيون انشاء ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي سنة ٦٢٠ كان علامة عصره درس بها اولاً ولا يعرف عنها شيء .

الضيائية المحاسنية : بسفح قاسيون شرقي جامع المظفرية وأمام جامع الحنابلة أنشأها ضياء الدين محاسن وهي في حكم الدائر .

العمرية الشيخية : وسط دير الحنابلة بسفح الجبل أنشأها ابن قدامة سنة ٥٥٠ وهو الذي نسبت الصالحية اليه لنزوله بمسجد ابي صالح بظاهر باب شرقي وفي تاريخ الصالحية أنها أكبر المدارس بدمشق والصالحية وكان فيها خزانة كتب صالحة ضمت بقاياها الى مخطوطات دار الكتب الظاهرية ورممت قليلاً ولكنها لم تعد كما كانت .

العالمة : مدرسة للحنابلة ودار حديث شرقي الرباط الناصري تحت جامع الأفرم غربي سفح قاسيون وقفتها الشيخة الصالحة العالمة أمة اللطيف بنت الناصح الحنبلي سنة ٦٣٠

ومن المدارس الحديثة التي تعد بأنها من الغوطة :

النقشبندية البرانية : في سويقة صاروجا بناها الشيخ مراد المرادي وهي الآن تكية ومنزل لأحفاده .

الحافظية : بصالحية دمشق القديمة ودرس بها حمزة بن محمد نقيب الشام المتوفى سنة ١٠٦٧

ومن مدارس الطب :

اللبودية : انشاء نجم الدين يحيى بن اللبودي توفي سنة (٦٧٠) ودفن في تربته بالقرب من تربة الحميريين وجعل تربته دار طب وهندسة وهي دائرة واسم البستان بستان اللبودي (البودي) شرقي بستان الشموليات من أرض باب السريجة .

هذه مدارس الغوطة وهناك رباطات وخوانق وزوايا للصوفية منها:

الاسكافيه : بجبل قاسيون انشاء علي بن عبد الرحمن بن عبد الوهاب ابن الاسكاف من كبار أهل دمشق (٦٧١) كان قد عاهد الله تعالى مهما كسب ان يتصدق بثلثه وقد وقف على هذا الرباط وقفاً كبيراً وشرط أن يقيم فيه عشرة شيوخ عمر كل شيخ منهم فوق الخمسين ولكل واحد في الشهر عشرة دراهم (قاله في الشذرات) لا يعلم محلها .

الباسطية : كانت بالجسر الأبيض غربي الاسعردية . شمالي العزية انشاء عبد الباسط بن خليل ناظر الجيوش بعد الثمانماية وهي خراب في وسط البساتين .

الحسامية الشبلية : شمالي الشبلية البرانية عند جسر كحيل منسوبة لأم حسام الدين عمر بن لاجين (دائرة) .

الخاتونية: ظاهر باب النصر الذي كان معروفاً بباب دار السعادة أول الشرف القبلي على نهر باناس منسوبة الى خاتون بنت معين الدين زوجة نور الدين محمود بن زنكي .

الشبلية : انشاء شبل الدولة كافور المعظمي بازاء الشبلية البرانية على نهر ثورة بسفح قاسيون .

خانقاه الطاحون : خارج البلد منسوبة لنور الدين (دثرت) .

الطواويسية : منسوبة للملك دقاق او لابنه وهي المشهورة بجانب الكججانية والطريق الآخذ الى المرجة والصالحية قامت مقامها سينما الاهرام اليوم .

العزية : بالجسر الأبيض على نهر ثورة بالصالحية قبلي الباسطية وغربي المارداني ومدرسة ابراهيم الاسعردي انشاء عز الدين اي دمير الظاهري (٦٩٠) .

الكججانية : بالشرف الأعلى بين الطواويسية والعزية أمام ادارة الكهرباء والترامواي انشاء ابراهيم الكججاني لم يبق لها أثر .

المجاهدية : انشاء مجاهد الدين ابراهيم على الشرف القبلي (٦٥٦) لم يعرف مكانها .

الناصرية : انشاء صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز بجبل قاسيون على نهر يزيد تقدم ذكرها ، صارت حاكورة صبار .

اليونسية : في أول الشرف الأعلى الشمالي شرقي الخانقاه الطواويسية انشاء الأمير الشرفي يونس (٧٤٨) هدمت وجعلت طريقاً .

ومن رباطاتها أي تكاياها :

رباط التكريتي : بالقرب من الرباط الناصري بقاسيون انشاء محمد بن علي بن سويد التكريتي التاجر المثري سنة ٦٧٠ (غير معروف)

رباط الشيخ محي الدين بن عربي : بناه على قبره السلطان سليم خان الأول العثماني وجعله جامعاً وتكية لاطعام الفقراء (٩٢٢) وهو موجود اليوم .

رباط الفقاعي : من رباطات السفح سفح قاسيون .

ومن زواياها :

الارموية : بالسفح انشاء عبد الله بن يونس الارموي (٦٣١) .

الارموية الشرفية : بالسفح انشاء شرف الدين بن عثمان الرملي .

الحريرية : بالشرف القبلي لعلي الحريري (٦٣٠) .

الدينورية : بالسفح انشاء عمر بن عبد الملك الدينوري (٦٢٩)

الدينورية الشيخية : بالسفح أيضاً انشاء أبي بكر الدينوري باني الزاوية بالصالحية .

السيوفية : بالسفح عند نهر يزيد غربي دار الحديث الناصرية والعالمة انشاء السيوفي نجم الدين بن عيسى بن شاه ارمن الرومي .

الداودية : بالسفح أيضاً تحت كهف جبرائيل انشاء زين الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن داود

العمادية المقدسية : عند كهف جبرائيل بالسفح انشاء احمد بن عماد الدين ابن العماد المقدسي (٦٨٨) .

الغسولية : بالسفح أيضاً انشاء ابي عبدالله محمد بن أبي الزهر الغسولي.

الفقاعية : بالسفح أيضاً انشاء يوسف الفقاعي .

الفرثيه : بالسفح لصاحبها علي الفرثي .

القوامية البالسية : غربي قاسيون والزاوية السيوفية ودار الحديث الناصرية على نهر يزيد لصاحبها أبي بكر بن قوام البالسي .

اليونسية : بالشرف الشمالي غربي الوراقة والعزية البرانية تنسب ليونس بن يوسف القنيّ ٦١٩ .

زاوية خضر العدوي : في الربوة بنى له الظاهر بيبرس هذه الزاوية وغيرها وكان يعتقد فيه .

دثر أكثر هذه الزوايا والتكايا ولم يبق اسمها الا في كتب الخطط . ومن أهم ما قام في العصر العثماني من الزوايا أو التكايا تكية السلطان سليم في المرج الأخضر والى جانبها التكية السليمانية تكية السلطان سليمان القانوني وهذه لا تزال عامرة وأخذت منها الجامعة السورية قطعاً كبيرة وأصبحت مدفناً لملوك بني عثمان اذا هلك في العهد الأخير أحدهم في بلد يحمل منه فيدفن في تكية جدهم .

الفصل السادس عشر

مدنية الغوطة

يمكن ان نعدَّ من آثار المدنية في الغوطة في القرون الأولى المرصد الذي أنشأه أمير المؤمنين المأمون في جبل قاسيون لرصد الكواكب وذلك سنة خمس عشرة وست عشرة وسبع عشرة وبطل الأمر بموت المأمون في شهور سنة ثماني عشرة ومائتين . وبنى ألوغ بك التتري في دمشق مرصداً لرصد الاجرام السماوية والأحداث الفلكية منذ نحو ستة قرون . ويعدُّ ذلك في باب المدنية .

ويمكن ان يعدَّ في مدنيتها الأولى تلك القناة التي جرها المأمون الى معسكره بدير مران في سفح قاسيون وتلك القبة التي شيدها في الجبل وصيَّرها مرقباً يوقد في اعلاها النار لكي ينظر الى مافي عسكره فاذا جن عليه الليل كان ضوءها الى ثنية العقاب [1] والى جبل الثلج ،

(١) ثنية العقاب هي الجبل المرمي المطل على الغوطة والمرج يقال لها الثنايا اليوم وكان يقال لها ثنية العقاب وقال المؤرخون ان خالد بن الوليد لما جاء من العراق مدداً لاهل الشام ركز رايته واسمها العقاب في رأس الثنية وحارب بني غسان في الغوطة يوم فصحهم فاستولى عليها . ومن جملة ماسميت به اعلام رسول الله « العقاب » وكانت هذه الراية هي التي رفعت في أعلى الثنية . وجبل الثلج هو جبل الشيخ المعروف في التوراة بحرمون .

والمسافة بين منين وجبل قاسيون لا تقل عن ساعتين للراكب يومئذ ودامت هذه المراقب أو المناور إلى عهد قريب «وكانت تعرف بها اختلاف حالات رؤية العدو والمخبر به باختلاف حالاتها تارة في العدو وتارة في غير ذلك » وما هو ماثل في قمة قاسيون الى اليوم من قبة النصر أو النسر وقبة السيار هو على الأغلب مناور نار متصلة من أطراف دمشق وكان يرفع النار في القريتين فيرى في العطنة ويرفع فيها فيرى في ثنية العقاب ويرفع فيها فيرى بمأذنة العروس ويرفع فيها لما حولها انذاراً للرعايا وضماً الأطراف ، ويرفع حول دمشق بالجبل المطل على برزة فيرى بالمانع الخ .

أجمع من وصفوا الغوطة على أن فيها قرى كالمدن وان في أكثر قراها الحمامات والمساجد الجامعة والأسواق وسكانها كأهل الحاضرة في مناحيهم . ولولا ان تبدلت معالمها مرات لشهدت عمراناً قديماً . وما زلنا كلما حفرنا في الحقول البعيدة عن مراكز القرى نعثر على دمن تدل على عمران ضخم وعلى ثروة وحضارة وربما كان بناؤهم بالحجر الصلب على بعد المقالع عن الغوطة ومعظم بنيانها الآن باللبن ويندر فيها البناء بالحجر .

روى البدري انه كان في كل شرف من الشرفين الأعلى والأدنى غربي دمشق عدة من المدارس والمساجد ولكل واحد ما يكفيه من

الأوقاف استولت عليها أيدي المتشبهين بالفقهاء فاظهروا فيها أنواع المفاسد. قال النواجي :

الا ان وادي الشام أصبح آية محاسنه ما بين أهل النهى تتلى
وان شرفت بالنيل مصر فلم تزل دمشق لها بالغوطة الشرف الأعلى

وفي الشرف الأعلى اليوم قامت حديقة الأمة والمشتل الزراعي ومدرسة التجهيز المذكور وهي من المباني المحدثة البديعة وفي الشرف الأدنى أقيمت التكنة الحميدية والجامعة السورية والمستشفى الوطني ودار الآثار والتكية السليمانية والتكية السليمية.

وذكر ابن عبد الهادي من المحاسن محلات الشرفين المطلين على الميدان الأخضر الذي يطلق عليه اليوم مرج الحشيش وكان عامراً كله وفيه خطب ومدارس ودور الأمراء وتدق نوباتهم كل ليلة وفيه حوانيت وخانات حتى يوصل منه الى النيرب ثم منه الى الدهشة ومنها الى الربوة. قال وكان جميع ما تقدم في تاريخ السبعمائة عامراً آهلا وتعدي عليه في عصر الثمانمائة وبطلت منه الخطب والى الآن. قال وبقية الأماكن من الربوة الى السهم والنيرب والشبلية ومحلة طاحون الشنان ومحلة الميطور وقصر اللبان والشرفين فكلها تبدلت بعد الأماكن بالجنان.

وفي الغوطة من آثار المدنية كيلومترات قليلة من الخطوط

الحديدية تمر من الربوة الى دمشق ومن دمشق الى داريا وقد خلت سائر جهاتها من سكة حديدية وفيها خط ترام كهربائي يربط دمشق بدومة حاضرة الغوطة الشمالية وطوله أربعة عشر كيلومتراً يمر ببساتين العنابة وأرض جوبر وزملكا وعربيل وحرستا (حرستا الزيتون قديماً وحرستا البصل حديثاً) واذا امتد هذا الخط الكهربائي فوصل بين دومة ودمشق مارّاً بأمهات قرى الغوطة الوسطى والجنوبية مثل حمورية وسقبا وكفر بطنا وجسرين والحديثة وزبدين والمنيحة وجرمانا وعقربا وبلدا وبيلا والقدم وكفرسوسية والمزة ربط الغوطتين القبلية بالشمالية. واذا تعلقت الهمم بتمديد قساطل ماء عين الفيجة الى القرى كافة — وأكثر القوم يشربون الى اليوم من آبار لهم ترشح من الأنهار الملوثة — تصبح قرى الغوطة محيطة بدمشق احاطة الهالة بالقمر وتغدو هذه المزارع والقريات كأنها بعض أحياء الفيحاء، وتنقلب بعض تلك الدساكر مصايف ومشاتي، وكلما زاد عدد الجادات والطرق فيها وبنيت الفنادق والمقاهي تغدو الغوطة قبلة المتنزهين، وكلما كثرت البيوت والقصور استحالت الغوطة من ارض زراعية الى منازل تتسع بها دمشق حتى تصبح عاصمة كبرى كالقاهرة. اذا تحقق هذا وبعضه في طرق التحقيق كما يتبين من الأحياء التي اقتطعت من أرض الصالحية في الشمال الغربي من

دمشق وأضت قصوراً ومنازل ذات بهجة وهندسة جديدة ـ اذا تحقق هذا يصدق على الغوطة ما ادعاه بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى : « ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد » من ان ذات العماد هي دمشق حاضرة الغوطة العظمى ، وكان فيها على ما قيل أربعمائة الف عمود . وفي قوله تعالى : « وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين » من أنها أيضاً مدينة دمشق بأرض يقال لها الغوطة .

ومن أعظم المصانع التي قامت في أرض الغوطة خلال القرون الوسطى المستشفى القيمري في الصالحية بجوار جامع محي الدين ابن عربي في سفح الجبل نسبة لمنشئه ابي الحسن بن أبي الفوارس القيمري (٦٥٣) وقد رممته ادارة الأوقاف في العهد الأخير حتى كادت ترجعه الى ما كان عليه يوم زهوه بعد أن عاث فيه الدمار قروناً ، وانقطع ما كان يقصده واقفه من الخير منذ زمن ، وقد أكل لصوص الأوقاف ما حبسه عليه القيمري من القرى والبساتين والحوانيت والطواحين . وفي صك وقفه صورة مجسمة من مدنية تلك العصور (راجع خطط الشام من تأليفنا ج ٦ ص ١٦٣)

وفي العهد الأخير قام بهم أفراد من خيار التجار في أرض المزة من الغرب قرب قرية المزة والربوة مستشفى عظيم سموه مستشفى المؤاساة يضم ستمائة سرير . وقام قبله مستشفى السل في سفح قاسيون

بعد حي الأكراد من الشمال . وأنشأت وزارة الصحة في قصير دومة مستشفى المجاذيب والمجذمين كما أنشئ مأوى العجزة في شارع بغداد ، وفي صدر الباز من أرض الربوة قام معمل للجوخ . وأنشئ في طريق دومة على أرض مزرعة المرشدية معمل عظيم لصنع الثياب يعمل فيه الف ومائتا عامل وهو على أهبة الانجاز وستقام الى جانبه مدينة للعمال . وفي طريق دومة أيضاً قام معمل الزيوت والصابون ، وبجانب مفرق القابون أنشئ معمل شركة المغازل والمناسج وغيرها من معامل النسيج . وفي تلك الناحية شيد معمل لصنع الأقفال والمفاتيح ، وفي أرض جوبر بني معمل الجلود وعلى مقربة منه مصنع للجوخ أيضاً . وفي طريق شارع بغداد قام معمل الأثمار والبقول المحفوظة (كونسروا) ، وفي جسر ثورى في القصاع قام معمل الكحول وفي بلاس من الجنوب أنشئ مصنع الخزف والزجاج . وفي طريق الربوة معمل للفائف وصنع الدخان ، وقرب الباب الشرقي معمل رب السوس ، وفي أرض الميدان معمل الثقاب (الكبريت) ومعمل مثله في أرض القابون الى ما شاكل ذلك من المعامل والمصانع ودور المرضى والدباغات والمطاحن ومعامل اصلاح السيارات والمركبات

وفي أرض المزة قرب داريا قام مطار المزة وفيه معامل اللاسلكي وميكانيك الطيران ، وفي جبل المزة القلاع والحصون الجديدة .

وفي أرض باب السريجة معمل التبريد، وفي آخر الشرف الأعلى الى الشرق معامل الكهرباء، وستنقل بادارتها ومعاملها الى محلها الجديد في طريق دومة. وفي أرض القصاع أو العنابة قام منذ القرن الماضي المستشفى الانكليزي وأمامه المستشفى الافرنسي، وفي محطة القدم بالميدان معامل السكة الحديدية الحجازية، وفي القنوات المحطة الكبرى البديعة لهذه السكة العظيمة. ولكل معمل من هذه المعامل حظ جزيل لأهل الغوطة يعملون فيها بأيديهم كما يعمل أهل دمشق بعقولهم وأموالهم، والمصلحة مشتركة والفائدة عامة.

كان من مظاهر مدنية الأمس مغالاة القوم في انشاء الجوامع والمدارس والتكايا وتقوم مدنية اليوم بالمعامل والمستشفيات والمصانع وكل ما يحفظ الثروة ويجلب الرخاء لطبقات الشعب. وما كان في القرن الماضي كيان للعمال وأصبحنا بالمدنية الحديثة نحسب لهم حساباً ونبذل الجهد في ارضائهم خصوصاً وقد سرى الى عمال هذه الديار شيء من مبادئ الاشتراكية والشيوعية، ودعوى حماية حقوق الفقراء وتحسين مستوى المعيشة. تعلمنا ذلك من أهل الغرب ونسجنا على منوالهم في مدنيتهم ولا يمضي علينا ربع قرن حتى تغدو الغوطة وعاصمتها جنة أرضية حقاً فيها كل ما صنعه الصانع تعالى

وما تم على أيدى الخلق ابداع وايجاد فتغدو غرة شادخة بين الأقطار والأمصار.

وكلما استنارت العقول وأثرت المدنية الحديثة أثرها وكثرت الثروة في الأيدي تم في هذه الكورة من أعمال الحضارة مصانع زاهية تناسب مبلغ رخائنا على نحو ما رأينا تلك القصور العظيمة التي شيدت في ضواحي دمشق حتى كادت الأرض القريبة من العاصمة تستغرقها البيوت والمعامل ودور المرضى، وبهذه المصانع والبيوت ربما بلغ عدد القصور المحدثة نحو خمسة آلاف قصر. دخلت دمشق في طور المدن الحديثة بما بني فيها من مرافق التمدن ومنها هذه الجادات العظمى كشارع بغداد وشارع فاروق وشارع فؤاد وشارع بريطانيا وشارع النصر وغير ذلك. ومن أهم الجادات النطاق الذي أحيطت به العاصمة الكبرى من جهاتها الأربع وستقوم عليه مع الزمن أجمل الجواسق والقصور وذلك في البرزخ بين العاصمة وغوطتها.

هذا وينقص الغوطة كثير من أسباب المدنية، وقد أنت عليها قرون كانت الحكومة تأخذ خيراتها ولا تنفق عليها واحداً في المئة مما تأخذ فتأخرت معارفها وتعطلت طرقها وجسورها ومدارسها

وجوامعها وكثرت مستنقعاتها وطرق صرف المياه فيها. وليس فيها الى اليوم غير بضع طرق معبدة في الجملة. وهذا مما تم في العهد الأخير. وكانت طرقها القديمة عريضة جداً فاستصفى أكثرها بعض من يستحلون كل شيء في جمع ثرواتهم، وباعت الحكومة أو وهبت الفضلات من جانبي الطرق فضاقت وكانت من قبل عريضة بعرض أربعين وخمسين متراً.

الفصل السابع عشر

الأخلاق والعادات

تبدلت أخلاق أهل الغوطة وعاداتهم في هذا القرن عن الذي قبله فسرت اليهم عدوى الترقي الذي شمل فروع الحياة، ونفعهم تنقلهم في البلاد وكان الغوطي لبداً لا يفارق أرضه الا في الخدمة العسكرية عند العثمانيين فهم أقل أهل الأقاليم حباً للهجرة وتعلموا مما يقرؤنه أو يقرأ عليهم في الصحف، وما يستمعون اليه من أحاديث المذياع، واستعاضوا من حيث يشعرون أو لا يشعرون عن عاداتهم القديمة بعادات يقبلها العقل وتقرب من أساليب المتحضرين.

تطور شبانهم فأصبح بعضهم يلذه الاشتغال في أشق الأعمال لتحصيل قوتهم ولا يسف لاطالة يده الى أخذ ما ليس له. ومتى شح الرزق في أرضهم يركبون الى العاصمة أو القاصية في طلبه ويتخلون عن الزراعة ويذهبون الى الصناعة والتجارة أي ان ابن هذا الجيل أخذ يدرك معنى عزة النفس أكثر من أبناء الجيل السابق ويحب الكسب من طرقه المحللة، وربما تجلى الشمم في الفقير أكثر من المتوسط والغني.

كان من تطبيق القوانين المدنية على من يرتكب الجرائم والجنح منذ انشاء المحاكم النظامية أواخر القرن الماضي أن نشأ جيل من أهل الغوطتين يكره السطو والاعتداء. وأدرك النابهون انه من الصعب ان يحترم الامن يجد ويجتهد ويدخر ويقتصد والتوفيق من الله.

وتبدلت عقلية بعض ناشئتهم فعرفوا معنى الاجتماع فألفوا جمعيات خيرية وتعاونية منها المستقل ومنها ما جعل من فروع جمعيات دمشق كان لها تأثير ظاهر في انتخاب النواب سنة ١٣٦٦ (١٩٤٧) وتكثر هذه الجمعيات كلما كثر طلاب المدارس الثانوية وهم الآن ٢٨٠ طالباً غوطياً.

والغوطيون كسائر الشعوب التي تملكتها التربية الاتكالية قروناً ينحون أبداً باللائمة على كل حكومة قامت، ويجهرون بانها العلة في تقهقرهم زاعمين انها لو أرادت تحسين حالتهم ما أعجزتها الحيلة وبيدها القوة والمال. وبعد ان تفتحت أمام كل انسان أبواب المخافر والدواوين والمحاكم والمجالس خوّل الغوطي الحق ليدفع عدوان بعض الأعيان، وكان من قبل لا يجرؤ ان يكلمهم فضلاً عن ان يقاضيهم ويطلب منهم حقاً.

ولما كان أكثر أرض الغوطة ملك أربابه تنتقل من طريق الارث من الآباء والأجداد ومنها قسم لأهل دمشق اعتقد

الغوطيون ان أرباب الضياع يجورون عليهم ويقولون «الفلاحون غُبَّر الوجوه اذا لم يُظلموا ظَلموا» وفي الواقع ان بعض أرباب الأملاك كانوا يضغطون على الفلاح بعض الضغط ليصلوا الى حقهم ولو بالنزول عن شيء منه والفلاح يؤلمه ما يرى من ترفع كبار المزارعين عنه، وهم يتعمدون هذا العزوف لئلا يطمع الفلاح فيهم ويتعدى طوره معهم. والمقصود بهذا الكلام الفلاح الذي يعمل بالمياومة أو المشاهرة أو المسانهة في أرض أرباب الحوانيت وكبار المزارعين

كان بعض أهل الفلح اذا خبثت أنفسهم بادروا الى الانتقام من معلميهم فيرتكبون ما يعود بالضرر على صاحبهم فبطل أكثر هذا لأن أرباب الاعتداء ادركوا مغبة فعلهم وانه لا ينجيهم الا القيام بما فيه كسب عطف سادتهم والا فالمحاكم تعاقبهم والسجون ترحب بهم. ثم ان من عرف بالسرقة والتعدي يُستغنى عنه وهو لا يجد شغلاً مطرداً في الأكثر الا في أرض من يحاول ان يعتدي عليهم.

كان الغوطي في القرن الماضي بعيداً عن الغش في لبنه وقشدته وزيته ودبسه، يعتقد بانه تعالى يعاقبه على ذلك في هذه الدار بفجيعته بابنه أو بهلاك بقرته أو عنزته أو نعجته فأصبح في هذا القرن يغش كل ما يمكن غشه من حاصلاته لا يبالي جزاء الدنيا ولا جزاء يوم الدين وغدا عبد المادة ويقول ان الله غفور رحيم.

وكان بعض فقراء الفلاحين يهمسون بينهم ان ارباب الاملاك الكبيرة ما ملكوا أرضهم بطرق شريفة وانهم غصبوهم اياها واغتنوا بفقرهم ، وأدركوا بعد طول التجارب ان المالكين ابتاعوا أرضهم بأموالهم وعمروها بكدهم وحموها بنفوذهم ولولاهم ما وجدت أكثر اليد العامله رزقاً ، ولولا بعد نظرهم لبارت بعض المزارع وأكدت الغلة وأبطأ دخول طرق جديدة في استثمار الأرض والأشجار . ذلك أن صغار المالكين أو صغار الفلاحين كانوا من الضعف والجهل بحيث لا يعرفون كيف ينفعون وينتفعون . والزراعة محتاجة في كل حين الى من يقوم عليها ويقويها ويمدها ، وعند الملاك من الأساليب الناجعة لذلك ما ليس عند صعاليك الفلاحين بعضه .

ومن الجهل ان كان الفلاح أبداً الى جانب ابن حيّه اذا شجر خلاف بينه وبين الغريب ، فينضم الى جملته ولو كان مبطلاً على حين يعتقد ان من ينكر الشهادة آثم قلبه اي ان الفلاح يخجل من مواطنه لأن العين تقع على العين كل ساعة فيبيع من أجل جاره ومساكنه دينه لدنياه أما الذي أضاع حقه بتعمده انكار الشهادة فانه متى احتاجه يتضرع اليه ويقبل يده ورجله .

ويلتف الغوطيون في العادة حول من يحميهم بالحق والباطل من مواطنيهم متى ثبت لهم اخلاصه في خدمتهم وانه على استعداد أبداً

لانفاذ كل ما يلقى اليه من حقير أمرهم وجليله وينضوون الى من يطعمهم ولا تشح يده عليهم . وهم كسائر العوام اذا أملوا منفعة من شخص كان على شيء من الوجاهة يخدمونه ويتقربون اليه حتى اذا ظفروا بغرضهم يشيحون بوجوههم عنه . وهذا خلق متأصل في أكثر الخلق .

ويتمنى الغوطيون في العهد الدستوري أن يكون نوابهم من رجالهم الأكفياء ليطالبوا في المجلس بما ينشلهم ويرقى بهم . وفي الحق ان من أبنائهم من يليق أن يجلس على دكات مجلس النواب ، الا ان الغوطي يصعب عليه بذل وقته وماله في الاستعداد لأخذ الأسباب للنجاح في النيابة عن امته . ذلك لأن من سكان العاصمة حتى من متوسطي القرائح من هم أقدر على الاضطلاع بهذا الشأن لأنهم أمهر بما تستلزمه النيابة من سعي وبذل ، وفناء في كبير ، أو خدمة حزب قوي ، أو حظوة عند الناخبين ، والغوطي اذا أكره على انتخاب من لا يعرف أو من كان بالأمس لا يرتضيه لا يلبث ان يتقرب ممن كتب له الظهور . ومسكين ذاك الذي يتخيل الفلاح انه ليس له عند أرباب السلطان كلمة نافذة .

كان الغوطيون الى عهد قريب يغالون في الظهور بالكرم في أتراحهم وأفراحهم وضيافاتهم ومآدبهم فبعدوا لعهدنا عن الاسراف

قليلاً اضطرهم الى ذلك تبدل الحالة الاقتصادية واخذوا يتأففون من المتكلفين وينعون على المبذرين والى ذلك ينكرون أيضاً على من يشح على نفسه وعياله ويمدحون من لا يحتاج الناس ولا يعتدي على أحد .

والغوطي من الجنس الذي يجوع ويصبر ويعرى ولا يتذمر ، ولا أثر للتسول في الغوطة ومن عجز بالفعل عن الكسب تكفل به أهل قريته وتصدقوا عليه سراً وجهراً. واعتاد ابن الغوطة أن يجود على من يقصده أيام المواسم فيعطيه من حبوبه وثماره ، وطائفة النَّوَر (الغجر) تظفر بعطفه كثيراً لأنها بائسة حقاً لا تملك أرضاً ولا عقاراً وليس بيدها صناعة تكفيها العوز وهي أبداً متنقلة متشردة . ولما جاء عشرات الألوف من أهل فلسطين في الفتنة الصهيونية الأخيرة لقوا من أبناء الغوطة اخوانهم كل عطف ومعونة .

جد الغوطي أكثر من هزله ، وشغله أدوم من تبطله ، يهون عليه التعب في تعهد حاصلاته وجمعها وبيعها ، ويرضيه كل ثوب يلبسه في حقله مهما كان بالياً وسخاً لأنه مدرجة الى اكتسائه الثياب الطريفة في ساعات راحته . ويفرح بكل شجرة يغرسها في الحد بينه وبين جاره تعرش أغصانها على غير أرضه وهو يقطف ثمرتها . ويعد بعضهم من المهارة تجاوز حد أرضه ولو ثلماً أو اقتطاع

دقائق من العدان يضيفها الى حقه من ماء شريكه أو جاره أيام عزة المياه في الصيف . ويفوق الغوطي معظم الفلاحين في الأقاليم الأخرى بجهده وحرصه وملازمته أرضه طول السنة لا يغادرها الا أياماً قلائل في الجمع والأعياد الدينية والمدنية .

يقل تعدد الزوجات في الغوطة على الصورة الماثلة في بعض الكور الزراعية المتاخمة كما يقل الطلاق والفراق ، والطبيعة هي التي هدت الغوطي الى السير على هذه الطريقة وما كان ذلك منه بتأثير مؤثر من دين ولا موعظة من واعظ ، وان كان التدين يغلب عليه في الجملة يتحمس لاقامة الصلوات وصيام شهر رمضان ويأتي من جهة اخرى اموراً في معاملاته ما جاء الشرع الا لمحاربتها .

سفور النساء على اتمه في الحقل أما في أزقة القرى وبيادرها وفي المدينة فالمرأة السافرة قد تحجب وجهها . وقد اخذ من يتشددن في الحجاب منذ الثورة السورية يحجبن وجوههن وكان أكثرهن من قبل سافرات .

ويقتدي الغوطيات باخواتهن الدمشقيات في زينتهن وأزيائهن . والعرض محفوظ اجمالاً في هذه الكورة وقد تقع حوادث من الفحش فتستر واذا انفضحت قد تحمل الغيرة بعض محارم الخارجة على قواعد العفة فيقتلونها خشية العار فتحكم المحاكم على القاتل بعقوبات خفيفة

لا تتجاوز الحبس بضعة اشهر ، ولذا كان عيش الأرملة والعانس مريراً ، ولكثرة البنات في بعض القريات يندر طلاب الزواج من الأراملي ، وتختار طبقة الفلاحين من المالكين العروس الذي يملك أبوها بعض الفدادين ليصيبها منها حصة بعد وفاته. وكانوا في القرن الماضي يتعدون عن الزواج من البنات اللائي يملك آباؤهن الأرض لينجوا من مغارم الدولة التي كانت تقع على عاتق اصحاب الأراضي خاصة . ومن المشهور عن أهل بيت سوا انهم لا يزوجون بناتهم الا لمن شهد له أهل القرية بأنه لص يعرف كيف يسرق حتى يتيسّر له ان يقوم بحاجاتها . والقوم هناك يزيدون في هذا الشرط يقصدون به النكتة فيما أرى .

يتزوج الشبان في الغالب في الثامنة عشرة الى الخامسة والعشرين والبنات من الخامسة عشرة الى العشرين . والى اليوم لا يزال أهل الغوطة يستعملون التكنية على عادة العرب ، وقد تغلب على الرجل منهم كنيته على اسمه ويشتهر بها أكثر من اسمه واسم أسرته وحين بطلت هذه العادة في المدن بطلت في الغوطة الا قليلاً ، وسُمّي صبيان الغوطة وبناتها بالأسماء الجديدة التي اعتاد الدمشقيون اطلاقها على بنيهم وبناتهم في العهد الحديث .

تعنى الغوطية بنظافة بيتها والتأنق في اثاثه عنايتها بنفسها وأولادها

وزوجها أكثر مما كانت تعنى امها وجدتها وغدا أكثر الرجال والنساء يعرفون قدر الصحة ويراجعون الأطباء حال وقوعهم في مرض ، ويعتقدون بتأثير الطب أزيد من اعتقادهم بفعل التعاويذ والرُقى. وكانوا حكرة للدجالين قبل اربعين أو خمسين سنة . وللعناية بصحة الأولاد نزل عدد من يموت من الأطفال نزولاً ظاهراً .

غدا الغوطي يطلب الماء الطاهر للشرب وكان في الدهر الغابر لا يعاف الماء القذر يستقيه من الأنهار والجداول ، وما كان يفهم معنى الجراثيم الضارة وهو اليوم يتوقى العدوى ويتقي البعوض والذباب ويدرك أن البعوض ينقل اليه الوبالة والحميات ولولا أن طبيعة أشغاله لا تقيه البرد والحر لتوفر على اتقائهما كما يتوفر المتوقون في العادة

مهما بلغ الغوطي من رقة الحال يفرح اذا ولد له ويعتقد كثرة النسل بركة لأن المولى متكفل برزق من يرزق من الأولاد ويسرّه أن تلد له امرأته الذكور ليستخدمهم في سن مبكرة في الأعمال الزراعية . وكان قبل بضعة عقود من الأعوام يشق عليه أن يذهب ابنه الى الكتاب لأنه يفضل أن يعاونه على شقاء الحياة منذ سن السادسة . والغوطية أيضاً ترغب في الاستكثار من الأولاد واذا تأخر حملها تُهرع الى القابلات تستوصفهن دواء للحبل حتى لا يسودّ وجهها أمام قريباتها وجاراتها بسبب العقم أو تأخر الحمل .

واذا عرفنا أن عدد من خرجن من الأمية في هؤلاء الغوطيات لا يعدو الخمسة في الألف على أكبر تقدير يثبت لنا تأخر المرأة عندهم. وربما كانت نسبة من يقرأ ويكتب من النساء نسبة واحد في العشرين من الرجال. ولولا ان الغوطية تعلمت بالعمل أشياء كثيرة تذوقت بها قليلاً من المدنية لكانت نسخة صحيحة من المرأة في القرون الوسطى.

ومن القرى اليوم ما يحلم بامتاع قريته بماء الفيجة الذي يسقي دمشق وبعض ضاحيتها وان تمدد الى قريته الكهرباء والترام لتتم لها أسباب الراحة كما تمت لابن دمشق الا ان بعض الأهلين يتلكؤن عن الدفع عند الاقتضاء حتى فيما فيه فائدة لهم، والمماطلة في أداء الدين طبيعية عند كثيرين، وقد يخفق في هذه الربوع من يقوم بمشروع نافع اذا كان من أهل حزب معين، لأن أهل القرى في العادة حزبان متعاديان أبداً - فيمتنع اهل الحزب الآخر من الاشتراك نكاية بمن يخالفونهم، واذا كانت هناك يد غالبة يخضع الفريقان عندئذ للقوة أو لصاحب النفوذ الذي يخشى بأسه.

يخف تخريف أهل الغوطة اذا كتبت لهم السلامة من يد صاحب طريقة مشعبذ ومتى اعتقد صلاح من يحاول استتباعه يستجيب له ويستخذي أمامه ويعطيه كل ما يسأل. وقد جرت في

هذه الأيام أمور منكرة في قرية عربيل كان فيها المتهم شيخ طريقة دأب على العبث بعفاف الأبكار من بنات مريديه وحكم عليه الحكم العادل، وعسى أن يكون فيما وقع عبرة للمتحمسين للطرق يتعظون بها حتى لا يسقطوا في حبائل المخرفين ومخرقة الممخرقين.

ومن جميل خرافات الغوطة ان من أذكيائهم من يخلع ثوب القداسة على بعض الأشجار التي يحاولون الابقاء عليها ليجعلوا ثمرها سبيلاً على أبناء السبيل فينسبون الشجره المراد حفظها لأحد الأولياء أو الصحابة أو المشايخ وبذلك أنقذوا من فؤوس المحتطبين كثيراً من أشجار الزيتون والجوز والتين والتوت. وتشبه سائر خرافاتهم ما عند عامة أهل العاصمة منها. ويمكن ان يقال ان الأساطير والأوهام قليلة بالقياس الى الأصقاع الأخرى. ويقل في المتعلمين والمنوَّرين منهم الاعتقاد بالمغيبات والجن والعين ويعتقدون برداءة الانسان والحيوان.

هم عمليون يتخذون الأسباب فيما يعود على زروعهم وأشجارهم بالنماء ويؤمنون بان سعة الرزق مناط تجويد العمل، ويدركون ان الله لا يجري المياه الى حقولهم وحدائقهم بدون أن يتعهدوها في قنواتها ويكروا مجاريها وينقوا أدغالها ويرفعوا أوحالها.

وعدل القول في الغوطيين انهم مثال من شعب كان الى عهد

حديث منحطاً في معظم احواله وهو يتقدم اليوم الى ساحة التمدن بخطى متزنة . وقد يكون بعض سكان قرى الغوطة أرقى بمدنيتهم من أهالي بعض أحياء جنوبي دمشق .

ابن الغوطة يتخلق باخلاق زمانه ببطء وكذلك هو في نزع عاداته القديمة لا يعجل ولا يدهش ويتبع سنة النشوء والارتقاء . بنينا هذا الرأي على ما شهدناه وعرفناه من أحوالهم وقد تنفرد قرية بشيء لا تشاركها فيه القرية المجاورة ، فكما تختلف لهجة ابن دومة عن ابن داريا ولهجة عربيل عن كفرسوسية مثلاً تختلف العادات والاخلاق فلا يصح الكلام عليها الا على وجه التقريب . فقد رأينا ابن دومة تغلب عليه النكتة والتنادر وابن عربيل وجوبر تغلب عليه التجارة وابن برزة والقابون يغلب عليه الطرب ويغلب الجد على ابن داريا والامساك على ابن حزة والحيلة على ابن سقبا والأناقة على ابن المنيحة والتظام على ابن كفربطنا والتضامن على ابن جرمانا والكرم على ابن حمورية وبيلا وبلدا . وكل قرية تتهم جارتها انواعاً من التهم لتقول بلسان الحال انها اعرق في المدنية والمعرفة وحسن الأخلاق من جارتها. وسكان الغوطة يشتركون في معظم الاحداث السياسية وغيرها في دمشق على ما عرف في العرب من النجدة والاريحية ويصهر بعض الدمشقيين من أهل الطبقة الثالثة الى الغوطيين ويتزوج بعض الغوطيات من سكان دمشق من اهل تلك الطبقة أيضاً .

الفصل الثامن عشر

عوامل الخراب

كانت الاوبئة والمجاعات والزلازل من أهم العوامل في خراب الغوطة، واشدمنها وانكى جور الانسان على الانسان وكان من أهم أدوات الدمار نحو الف سنة قيس ويمن وهم الذين دعوا بالعشران واحدها عشير ، احيوا في ربوع الشام سنة سيئة قضى عليها الاسلام وهي التحزب بالعصبية فكان من تلاتلهم قتل الأنفس وخراب العامر ولم ينج القطر من فتنهم الهوجاء الا بعد أن أفنى اليمانيون القيسيين في وقعة عين دارة في لبنان سنة ١١٢٢ هـ ١٧١١ م ويومئذ سكنت نغمة قيس ويمن الى يوم الناس هذا .

ونسب ابن عساكر الخراب الى امور اخرى قال : ان ظاهر دمشق كان مساكن القبائل وكان قرى متصلة وابنية متقاربة فخرب ذلك كله في الفتن والحروب والحصارات وباد أهلوه وتعادى عليه الخراب، وقل موضع حفر الأوجد فيه أثر العمارة من الجهات الأربع من البلد ، وكان كل مكان معموراً بالمساكن والسكان فباد وبادوا، فسبحان من لا يبيد ملكه .

هذا ما كان الى القرن السادس وارتأى الاسدي في القرن الثامن ان سبب الخراب كان من انتشار الشرور بين قيس ويمن والتسلط على الفلاحين بالظلم وطلب العاجل، فتمرد كثير من أهل الزرع والضرع وتسلطت العربان والعشران فنهبت الأموال وقتلت الرجال وجلا الفلاحون فصارت القرى دمناً، يشهد لذلك اسماء القرى التي صارت مزارع وتسمى بالخراب الداثر.

وبعد هذه الحقبة من الزمن الحت المصائب الطبيعية على هذه الكورة واشتد ظلم المماليك ثم العثمانيين فاختل الأمن ورخصت قيم الأرواح في البر وصار الناس يتحارسون لعجز الحكومات عن حمايتهم فلا يسيرون في الحقول والمزارع الا مجتمعين. وأصبح الحكم للصوص والزواقيل وقطاع السابلة والمتسلطين في القرية يقتلون فلا يعاقبون وينهبون فلا يؤاخذون وولاة الأمر لا يحركون لهم ساكناً لئلا تسري عدواهم الى غيرهم ويزيد الشر تفاقماً.

واذا حمل هذا الخراب على الفتن والحروب والحصارات وعلى صيال قيس ويمن والتسلط على الفلاحين بالظلم وطلب العاجل وعلى المصادرات وأخذ الجند قوت الفلاحين وعلى الحوطة على الأملاك أي حجزها لتغدو نصيب الولاة والسلاطين والى غير ذلك من العوامل فلا يفوتنا أن نذكر من عوامل الخراب أيضاً عيث أهل البادية في القرى

العامرة وغزوهم لها فرادى وجماعات كلما عنّ لهم أن يستلبوا من رزق الفلاحين ما يسدون به فاقتهم. ومن العوامل أيضاً تعدي الحامية والدرك والشحنة على الفلاحين والمدنيين في العهد العثماني فكانت الأرواح والأموال والأعراض خلال ثلاثمائة سنة نهباً بأيدي رجالهم وأعوانهم الجورة.

واذا وقع أن استتب الأمن حقبة من الدهر بعض الشيء لا تلبث أطراف دمشق ان تعمر الى مسافات بعيدة فتزهو الغوطة وتكثر قصورها ومرافقها في الضاحية وقلما كان يجري ذلك لأنه من النادر ان يذوق القوم طعم الطمأنينة، والفاتحون والولاة والعمال ومن هم تحت أيديهم ممن ينفذون لهم سلطانهم يستضعفون الفلاحين ويتعمدون اذلالهم ويستبيحون أذاهم.

ولما انتشر الأمن قليلاً اواخر أيام العثمانيين وانتظم في عهد الانتداب وعهد الاستقلال عمّ الرخاء أرباب الأملاك والفلاحين فظهرت مظاهر السعة في الجهات الأربع من هذا الوادي وكان العمران كالمد والجزر اذا أمن السكان امتدوا الى أقصى حدود قراهم وعمروا مصايف لهم في حقولهم واذا خافوا انضم بعضهم الى بعض وتخلوا عن المزارع الصغيرة ورحلوا عن الأرجاء البعيدة وتكتلوا

داخل السور وفي القري المتسعة التي يستطيع أهلها حماية أنفسهم وبيوتهم من اعتداء المعتدين ومن همجية أعراب البادية .

وقد قال أحد علماء القرن التاسع من أهل هذه الديار: كان العلم والجور غالباً في المدن والرزق والجهل على الأغلب كان في البر، فبعلم علماء المدن يسوق الله تعالى اليهم الرزق من البر وبجهل جهال أهل البر يسوق اليهم الجور من المدن. وفي هذا الكلام مسحة من الحق وان كان البر والمدن في الظلم سواء والناس بين ظالم ومظلوم .

وفي الأمر الأكثر اذا وقعت فتنة في دمشق لا تعتم الغوطة ان تصبح ساحة حرب اذا لم تخرب القرى تخرب اراضيها كالساعة الزمنية في اليد اذا اختل منها جانب تناول الخلل جوانبها وعطبت لا تسير ابرتها سيراً منتظماً . ففي خلاف عمرو بن سعيد الأشدق مع عبد الملك بن مروان سنة ٦٩ وفي وقعة مرج راهط بين مروان ابن الحكم وبعض الخوارج عليه قتل من أهل الشام مقتلة عظيمة وقتلت قيس مقتلة لم تقتل مثلها في موطن قط فلا يعقل الا ان تخرب بعض أرجاء الغوطة وخصوصاً وبعض المقاتلة ممن ينزلها ويعيش بفلحها وزرعها ولهم فيها أموال ومصالح .

خالف أهل الغوطة في سنة ١٢٧ وولوا عليهم يزيد بن خالد القسري وحصروا دمشق فأرسل عليهم مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين

أبا الورد بن الكوثر فاستباح عسكرهم واحرقوا المزة وقرى اليمانية. وربما كان هذا أول خلاف لأهل الغوطة وأول سنة سُنت في تخريب العدو قرى عدوه .وفي سنة ١٧٦ ثارت الفتنة بين القيسية واليمانية وعلى رأس القيسية زعيمهم ابو الهيذام عامر بن عمارة . وكان فارس زمانه ومن فصحاء العرب . واختلف في سبب هذه الفتنة فقال قائل ان أبا الهيذام نزل وأخاه سجستان ، فقتل عامل الرشيد عليها أخا أبي الهيذام فأتى الشام وجمع جمعاً عظيماً ثم غلظ أمره واشتدت شوكته وأعيت الرشيد الحيل فيه ، فاحتال عليه بأخ له كتب اليه فأرعبه فشدّ على أبي الهيذام فقيده وحمله الى الرشيد بالرقة فلما دخل عليه انشده ابياتاً منها

فأحسن أمير المؤمنين فانه أبى الله الا ان يكون لك الفضل

فمنّ عليه الرشيد وأطلقه وفي هذه الفتنة وجه ابو الهيذام حمدون السلمي فأحرق قرى اليمن في الغوطة : داعية ، بيت سوا ، حمورية ، حجيرا ، زملكا ، حوارة ، عربيل ، أرزونا ، دقانية ، بيت توفا ، بيت أبيات . وخربوا داريا أعظم قرى اليمانيين وأخربوا قرى أمير دمشق ابن معيوف وقصوره وكان يسكن في قرية أرزونا . وكانت أيامه كما قال ابن عساكر أيام بؤس وجدب وغلاء فقال فيه أهل دمشق الأشعار ومما قيل فيه :

ما كنت أحسب أن الخبز فاكهة حتى تربع في الخضراء معيوف

والخضراء قصر أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان حرق في فتنة الفاطميين مع العباسيين سنة ٤٦١

نجت هذه المرة بعض قرى قيس ككفر بطنا وبلاس وراوية من التخريب. قال صاحب تاريخ دمشق وكان اليمانيون في الغوطة أجمع داراً من قيس، وادعى اليمانيون في فتنة أبي الهيذام انهم اهل الثروة والعدد والعزّ.

قال قيس الهلالي في يوم داريا:

كأنا يوم داريا أسود تدافع عن مساكنها أسودا
تركنا أهل داريا رميماً حطاماً في منازلهم همودا
قتلنا فيهم حتى رثينا لهم ورأيت جمعهم شريدا
اذا غضب الآله على اناس دعا قيساً فصيرهم جنودا
وذلك ان قيساً غير شك من الصوان بل خلقت حديدا

وفي هذه الفتنة تفاخر القيسيون واليمانيون ومما قاله أبو الهيذام:

لولا تطوّل هيذام على يمن أمست نساء بني قحطان أنفالا
أنا ابن خير بني ذبيان قد علموا وحامل الثقل عنهم بعد ما مالا
لولا الخليفة والاسلام ما تركت خيلي بأرض بني قحطان جوالا

وفي فتنه السفياني الملقب بأبي العميطر (١٩٥)، وكان حاول استرجاع الشام من العباسيين، واعتمد على كلب وتعصب له اليمانية

وقاومه القيسية، قتل من القيسية خلق كثير، وذلوا في دمشق وما اليها من الأرجاء ذلاً عظيماً، وفي هذه الفتنة أيضاً أصبحت الغوطة ميدان قتال.

وثارت القيسية بدمشق وعلى رأسهم ابن بيهس الكلابي فعاثوا وأفسدوا وحصروا أميرهم فبعث الواثق لهم رجاء بن أيوب وكانوا معسكرين بمرج راهط فنزل بدير مران ودعاهم الى الطاعة فلم يرجعوا فواعدهم الحرب بدومة فقاتلهم فهزمهم وقتل منهم نحواً من الف وخمسمائة وضرب مقدمهم ابن بيهس. قال ابن عساكر ان الذين ثاروا هم أهل الغوطة والمرج، ومن قرى الغوطة الثائرة كفر بطنا وجسرين وسقبا وقرى جرَش وقاتلهم العامل في مجمع عسكرهم بكفربطنا وثار الناس من النواحي وقتلوا الأطفال وجرحوا النساء. وعبارة العبر في هذه الوقعة أصرح قال في حوادث سنة (٢٢٧): قدم على امرة دمشق أبو المغيث الرافقي فخرجت عليه قيس لكونه صلب منهم خمسة عشر رجلاً وأخذوا خيل الدولة من المرج فوجه ابو المغيث اليهم جيشاً فهزموه ثم استفحل امرهم وعظم جمعهم وزحفوا على دمشق وحاصروها فجاء رجاء الحضاري الأمير في جيش من العراق ونزل بدير مران والقيسية بالمرج فوجه اليهم يناشدهم الطاعة فأبوا الا ان يعزل أبو المغيث فأنذرهم القتال يوم الاثنين ثم كبسهم يوم

الأحد بكفربطنا وكان جمهور القيسية بدومة فوضع السيف في كفربطنا وسقبا وجسرين حتى قتل الفاً وخمسمائة وقتلوا الصبيان ووقع النهب.

كانت الغوطة اوائل حكم العباسيين يعود اليها أمنها بعد الفتن التي تنشب في أرجائها أو على أطرافها. ودامت الغوطة تتخبط في أقدارها بين هناء وشقاء حتى استولى الفاطميون على الشام واشتد ظلم المستنصر الفاطمي على الغوطة ودمشق حتى جلا السكان وهان عليهم مفارقة أملاكهم، وابتعادهم عن أوطانهم بما عانوا من ظلمه وظلم عماله « وخلت الأماكن من قاطنيها والغوطة من فلاحيها » ولما ولي نيابة دمشق للفاطميين رجل اسمه جيش وكان سفاكاً للدماء عمّ الناس البلاء في ولايته من القتل وأخذ الأموال حتى لم يبق بيت في دمشق وظاهرها الا امتلأ من جوره، خلا من كان ظالماً يعينه على ظلمه. وامتد أصحاب ظالم بن موهوب الفاطمي في الغوطة (٣٦٣) فانتهبوا الفلاحين وقطعوا الطرقات فتحول أهل الغوطة الى البلد من كثرة النهب، وعاث الاعراب في الغوطة والمرج واستولوا عليهما فجرد الفاطميون عليهم جيشاً بقيادة واليهم فقتل من احداث الغوطة والمرج كثيرين.

وحاول محمد بن أبي يعلي الهاشمي أن يعيد دمشق الى العباسيين ويسترجعها من العبيديين فقام معه أهل الغوطة والشباب واستفحل

أمره سنة تسع وخمسين وثلاثمائة وطرد من دمشق متوليها ولبس السواد وأعاد الخطبة لبني العباس.

وفي القرن الرابع خرب أهل العيث والفساد دمشق وضواحيها وانتقل القرويون الى العاصمة الكبرى. ولما استولى حيدرة الكتامي خربت اعمال دمشق وجلا كثير من اهلها عن أراضيهم. وفي فتنة القرامطة (٣٦٣) خربت محلة الفراديس في ربض دمشق ولما اشتدت شوكة القرامطة (٣٨٩) في الشام تقرمط أكثر من حول دمشق من أهل الغوطة وغيرها وعاضدوا القرمطي. وفي سنة ٣٧٦ غلب على دمشق مدة رجل اسمه قسام الحارثي من أهل تلفيتا في جبل سنير وكان في أول عمره ينقل التراب على الدواب. وخرب العرب وأهل العيث والفساد البلد مدة تحكم قسام وانتقل اهله الى اعمال حمص فعمرت وكثر أهلها والغلات فيها ووقع الغلاء والقحط بدمشق. وما كان ذلك الا من سوء ادارة الفاطميين. وكان عمالهم أقبح عمال استبداداً وسوء ادارة واستهانة بالأرواح والأموال. وفي سنة ٤١٦ حاصر سنان بن عليان من امراء العرب مدينة دمشق وجرت بينه وبين أهلها حرب شديدة وخرب داريا وأعمالها.

وفي سنة ٤٦٧ كان الطاعون الجارف في دمشق فحل بها ما لم ينزل بها مثله فيما عرف من تاريخها ونزل عدد سكانها من خمسمائة الف الى

ثلاثة آلاف افناهم الوباء والغلاء والجلاء . وخربت دمشق وبيع القصر العظيم الذي يساوي الف دينار بعشرة دنانير يبتاع بها صاحبه فارة يأكلها واكلوا الآدميين والموتى والجيف وكانت حالة الغوطة اتعس وانحس وفي الغلاء المفرط في دمشق سنة ٦٤٣ بيعت الغرارة من الحنطة بالف وستمائة درهم وأكلت الجيف .

ولما اعيدت دمشق للعباسيين (٤٦٨) ورفع عنها سلطان الفاطميين فنظروا اليها بما يعود بصلاح اعمالها واطلقوا لفلاحي المرج والغوطة الغلات للزراعات فصلحت الأحوال ورخصت الأسعار بعد ان بيعت غرارة القمح بمأتي دينار [1].

(١) لم تكن الاسعار على صورة مطردة معقولة في هذا الاقليم وعاصمته والاسعار هنا تبع لقلة الامطار وكثرتها وما يصدر من الحاصلات وما لا يصدر وكانت البلاد مهددة بالهلاك اذا قحطت واجدبت وليس في المكنة نقل الحبوب بين الاقطار لصعوبة المواصلات ففي غلاء سنة ٥٧٣ انقطعت الامطار في الديار الشامية فبيعت غرارة الحنطة بدمشق بعشرين ديناراً صورية والغرارة ثمانون مداً وفي غلاء ٧٤٨ وصلت غرارة القمح في دمشق الى ثلاثمائة درهم وبيع البيض كل خمس بيضات بدرهم ورطل اللحم بخمسة وأكثر ورطل الزيت بستة أو سبعة وفي سنة ١٠٨٥ كان الرخاء والخصب حتى بيعت غرارة الحنطة بستين قطعة وغرارة الشعير بثلاثين قطعة وفي رواية اخرى أن غرارة القمح بيعت بخمسة قروش وغرارة الشعير بقرشين ونصف وقنطار الحطب بسبعة قروش ونصف . قال المحاسني في كناشه ان الغلال قلت في الشام في محصول سنة ١٠٨٧ لقلة الامطار ثم حصلت الامطار فتراجعت الاسعار وكانت وصلت غرارة الحنطة الى ٣٢ قرشاً والخبز الاسمر كل ثمانية أرطال بقرش والخبز الشعير أحد عشر-

وفي سنة ٦٥٦ قويت وطأة الوباء في الشام وخصوصاً في عاصمتها

- رطلا بقرش ووصلت غرارة الشعير الى ١٧ قرشا والذرة ١٥ والزيت القنطار ٤٠ والدبس ١٥ والعسل ٤٠ والسمن ٩٠ والجبن ٣٠ والشيرج ٥٥ والطحينة ٤٥ والشمع الدهني ٥٠ والارز ١٧ والعدس الغرارة ٢٥ والملح بقرش ستة أمداد والحمص الغرارة ٣٠ والكرسنة ٢٠ واللوبياء ٢٠ والجلبانة ٣٠ والحلبة ٣٠ والبيقية ٢٧ والثوم خمسة ارطال بقرش والسماق ثلاثة ارطال بقرش والحليب عشرة ارطال بقرش والقطن القنطار ٥٠ وقشر القنب ٢٠ وغرارة الفول ٢٠ والتين حمل البغل بقرش ومن الدخن بربع قرش وثلث قرش والبصل عشرة ارطال بقرش . هذا في دمشق وأما في غيرها فأغلى من ذلك .

والاسعار كانت تنقلب في العصر الواحد أشكالاً تبعاً لاسعار النقود ولا سيما الفضة فقد كان سعر الذهب سنة اربعين وسبعمائة كل مثقال بعشرين درهماً . ذكر صاحب تاريخ بيروت أن العشرة آلاف درهم كانت تساوي بدراهم ذلك الوقت سبعمائة دينار . وفي سنة ١١٤٥ كان الغلاء بدمشق ونواحيها وعدوا من الغلاء أن تباع غرارة القمح بثلاثة وخمسين قرشاً ورطل الخبز بثلث قرش ورطل اللحم بزلطة والسمن نصف رطل بقرش والدبس اربعة ارطال بقرش والجبن رطلان بقرش والبيضة بخمس قطع .

وفي كناش المحاسني أيضاً صورة عقد جرى بدمشق أحدهما سنة ١٠٨٥ وكان الصداق فيه ثلاثمائة قرش فضة أسدية وزوج أساور ذهب زنة ذلك أحد وثلاثون مثقالا وثوب «طرفنده» المعجل منها مائتا قرش والزوج الاساور والثوب الطرفنده والباقي مؤجلة . وحضر هذا العقد علماء المدينة وأعيانها وهو عقد ابن الشيخ سليمان المحاسني الشاعر خطيب جامع بني امية ومن أعيان البلد أي ان العروس من أكابر القوم وارباب السعة . والعقد الذي جرى سنة ١٠٧٥ وهو عقد عبد الباقي المبارك على صداق قدره ثلاثمائة قرش ومعه قفتانان طرفنده مذهبان بازرار من الفضة وقفتان ثالث أطلس وردي ومن الصداق مائة قرش مؤجلة .

هكذا كان الغنى أما الفقر فلا تسل فسبحان مبدل الايام ومديل الدول .

حتى لم يوجد مغسل للموتى وكثيراً ما يدوم الطاعون الشهرين والثلاثة فيموت من دمشق كل يوم الف انسان وفي وباء سنة ٨٩٧ كان يموت كل يوم في دمشق ثلاثة آلاف وكانت الحالة شديدة في الغوطة على مايظهر وفي كانون سنة ٨١٤ مات من أهل دمشق خمسون الفاً وخلت عدة من القرى وبقيت الزروع قائمة لا تجد من يحصدها. وفي طاعون سنة ٨٩٧ مات ربع أهل الأرض كما في الشذرات وكان نصيب دمشق وغوطتها من هذا البلاء كثيراً. وانتشر الغلاء المهلك والطاعون الجارف والوباء القاشر سنة ١١٨٣ حتى صار يخرج كل يوم الف جنازة من كل باب من أبواب مدينة دمشق وكان حظ الغوطة من هذا الوباء كحظها من كل وباء ينتشر في العاصمة. وفي طاعون ١٢٢٨ و ١٢٢٩ هلك ربع سكان دمشق وكذلك كانت الحال فيما عقب ذلك من الأوبئة ولا سيما وباء ١٢٤٦ وغلاء سنة ١٢٠١ وصار الناس يأكلون الميتات والقطط من شدة الجوع.

وفي ولاية طغتكين من امراء السلجوقيين الذي كان نعم المبشر بظهور نور الدين وصلاح الدين انبسطت الرعية في العمارة في باطن دمشق وظاهرها فعمرت عدة ضياع وأجريت عيون فصلحت بايالته دمشق واعمالها. وفي سنة ٥٢٩ سار اتابك زنكي الى دمشق فنازلها واجفل أهل السواد اليها، وسواد كل مدينة قراها، واجمعوا على محاربته فنزل اولاً

ميدان الحصا وزحف وقاتل. وفي سنة ٥٣٤ حضر زنكي هذا الى شماليها ثم انتقل الى دمشق مرتين ونزل على داريا فالتقت الطلائع واقتتلوا وكان الظفر لزنكي، ثم تقدم فلقيه جمع كثير من جند دمشق واحداثها ورجالة الغوطة فقاتلوه، فانهزم الدمشقيون وأخذهم السيف وأسر منهم من أسر.

ساد العدل في الدولتين النورية والصلاحية، ثم نشب الخلاف بين ابناء صلاح الدين، وفي الحرب بين الملكين الكامل والناصر من بني ايوب وقع النهب والحريق في باب توما واحرقت بعض الطواحين ونهبت الدور وخربوا بعض قريات من الغوطة واخرجوا منها اهلها مثل جوبر وجديا وزملكا وسقبا وغيرها وخربوا في هذا الحصار مدارس ودوراً وخانات وبساتين وحمامات.

ولما اعتضد صاحب دمشق بالصليبيين على مال يحمل اليهم ليدفعوا عادية عماد الدين زنكي عنه سار هذا ونزل بمرج عذراء وحرق عدة ضياع من المرج والغوطة الى حرستا التين ولما جاء الصليبيون ليفتحوا دمشق (٥٤٣) حرقوا الربوة والقبة المهدوية وقطعوا الأشجار للتحصن بها. وفي سنة ٥٩٦ احرق في حصار دمشق جميع ما هو خارج باب الجابية من الفنادق والحوانيت، واحرق النيرب وابواب الطواحين ولما سار الأفضل يريد الاستيلاء على دمشق من عمه العادل احرق هذا الحواضر أي — القرى والريف — والنيرب ووقع الحصار.

ويصيب الخراب على الغالب الأقرب فالاقرب من القرى إلى دمشق ، أو ما كان على طريق الفاتحين كالمزة في الغرب والقابون في الشمال فقد خربتا غير مرة. واصاب بيت لهيا في الشمال والنيرب والربوة في الغرب ما أصاب جارتيها من الخراب . وقد خرب التتر بعد وقعة مرج المروج دمشق ونهبوا ضياعها وسبوا أهلها فخربت الصالحية والحواضر البرانية من العقيبة والشاغور وقصر الحجاج وحكر السماق من ارباض البلد .

وكان أهل الغوطة في فتن التتر المتعددة ينجفلون أمامهم وكانوا، كما حدث في القرن السابع والقرن الثامن وبعده وقبله، يغادرون قراهم الى دمشق. وفي وقعة غازان عاثت عساكره في الغوطة تنهب وتفسد . ومن طبيعة التتر التخريب في كل بلد نزلوه فما نجت الغوطة من تعديهم وان جابوها مراعاً . والجند على الجملة ما مر بأرض الا خرب فيها وألقى الهلع والفزع في قلوب ساكنيها ، هذا اذا كان منظماً ، فما بالك بجيوش التتر الذين اشتهروا حيث حلوا بالاضرار بالمطمئن والآمن والشدة على المقاتل والمحارب . وفي وقعة غازان ووقعة تيمورلنك ناب أهل الغوطة من الظلم والمصادرة والقتل مثل ما نال أهل دمشق. وفي سنة ٩٠٠ كانت وقعة بين أهل داريا وبعض قرى الغوطة فخرج العسكر من دمشق، وقتل ما يربو على مأتي قتيل، ووقع الاختلاف بين القيسية واليمانية

وفي سنة ٦٣٥ أخرب السلطان العقيبة وما فيها من خانات وأسواق وفي القرن السابع أمر الأشرف قلاوون بهدم الأماكن المجاورة للميدان بدمشق وفي الاعتذار عنه يقول الوداعي :

ان أمر السلطان في جلق بهدم ما جاور ميدانه
فانه قد غار لما رأى غير بيوت الله جيرانه

وكان السلطان اذا غضب على أهل قرية يأمر بحرق أشجارها وتدمير عمارها وهذا قلما كانوا يفعلونه في الغوطه . وقد يخرب جانب من قرية فيأتي الناس يخربون منها ما سلم. وكثيراً ما كان الفاتحون ينزلون الويلات بالغوطة ويحرقون ما في ضاحية دمشق اذا أرادوا حصارها ومن ذلك ان العقيبة والحوانيق وقصر حجاج والشاغور وغيرها قد خربت أكثر من مرة .

وقد يخرب الجند القرى وينقلون أنقاضها الى العاصمة، وقد يجيء أهل القرى بأثاثهم وحاصلاتهم وأنقاضهم وحيواناتهم الى الحاضرة أيام الفتن كما حصل في الثورة السورية (١٩٢٥ — ١٩٢٦) وفي هذه الثورة نسفت السلطة الفرنسية كثيراً من قرى دمشق على ما يرد في فصل الدائر من القصور .

وكانت الغوطة تبنى في أكثر العصور من اللبن والطين والخشب، والحجارة خاصة بالجوامع وبعض المزارات والقباب . وما ندري ان

كانوا يفضلون الطين والخشب في البناء على الحجر والآجر لأسباب اقتصادية أو اتقاء عادية الزلازل، فان بيوت الخشب يوم الزلزال أقل خطراً على الأرواح من بيوت الحجر. وكانت البيوت اذا خربت في زلزال يعيدها الغوطيون بما خصوا به من همم الى سالف حالتها في حقبة قصيرة من الزمن، فقد امتدت الزلازل في سنة ٢٣٣ الى الغوطة فذهبت داريا والمزة وبيت لهيا وغيرها ومات تحت الردم معظم أهل دمشق وهرب النساء والصبيان. ورأى بعض أهل دير مران مدينة دمشق ترتفع وتنخفض مراراً. قال المؤرخون وانكفأت قرية بالغوطة على أهلها فلم ينج الا رجل واحد. ولم يشبه هذه المصيبة الا وباء القرن الخامس (٤٦٧) الذي كاد يبيد سكان دمشق عن آخرهم. ومن الزلازل زلزال سنة ٥٥٢ وسنة ٥٦٥ وكان زلزال سنة ١١٧١ من أشد الرجفات، مات فيه تحت الردم خلق كثير وأعقبه وباء جارف. وفي زلزال سنة ١١٧٣ لم يسلم الا النادر من بيوت دمشق ومناراتها وقبابها ومساجدها وتهدمت القرى حولها وخرج أهلها جميعاً بأموالهم وأنفسهم وعيالهم الى خارجها ونصبوا الخيام وبقوا مقدار ثلاثة أشهر في الخارج (قاله في التذكرة الكمالية) وقال النجار من أهل القرن الثاني عشر ان زلزال دمشق ونواحيها هدم كثيراً من المساجد والمعابد والمنارات ودام خمسة وأربعين يوماً

وقتل تحت الردم خلق كثير وخرج غالب الناس من منازلهم وتركوها خالية وتوطنوا البساتين والجبانات. ومن أخبار التخريب ما وقع سنة ١٢٠٢ في فتنة جهجاه الحرفوش وتخريب القرى وهلاك الفقراء وفيها حرقت القبيبات وحارة التركمان من ضواحي دمشق وفي سنة ١٢٣٥ حرقت المزة. وفي هذا القرن والذي قبله وقعت حوادث من هذا القبيل قد يتخطى المؤرخون ذكرها لأنها مما لايستنكرون حدوثه. وكان أكثر ما يضر بأهل القرى في هذين القرنين جند الدولة العثمانية فانها كانت ترسل منهم الوفاً يشتون في عاصمتها وغوطتها وطعامهم من الأهلين لأن الدولة لا تعطيهم ما يكفيهم ويقوم بأودهم وأود عيالهم. وكانوا اذا قضوا بضعة أشهر في هذه الضيافة الجبرية يطلبون «الترحيلة» عند عودتهم. والترحيلة مال يسلبونه من الأهلين ليستعينوا به على الرحيل. وفي سنة ١٠٤١ نهب جند هذه الدولة قرى دمشق طول الشتاء ونهب الجند الدالاتية جميع القرى وأكلوا مغلها وأحرقوا بيوتها وقتلوا دوابها وسلبوا عروضها.

ولم تذق الغوطة طعم الراحة الا على عهد حكومة ابراهيم باشا المصري أي حكومة والده محمد علي الكبير، فان أكثر القرى استعادت عمرانها في ظل حكومته المنظمة فأصلح الجباية وساوى بين الرعايا وكان الأغنياء لا يؤدون شيئاً للدولة والعبء كله على

عاتق الفقراء، ولذلك استثقل الأمراء وأرباب النفوذ ظلّ الدولة المصرية وقد ابطلت هذه الحكومة المصادرات وقررت حق التملك ووطدت الأمن وأحيت الزراعة.

ولما جلا ابراهيم باشا عن الشام عادت الحال الى أتعس مما كانت على عهد العثمانيين، حتى كتب قنصل انكلترا في دمشق الى واليها كتاباً(١٢٥٥ - ١٨٤١) يقول فيه: اذا كانت الحكومة ترغب حقيقة في استتباب الأمن ففي وسعها أن تبدأ باظهار حسن نيتها فتمنع تخريب القرى وتدمير اماكن العبادة الكائنة على بضع خطوات من دمشق.

وبعد فقد علمنا من مجموع الكوائن التي وقعت في العهد الاسلامي في الغوطة أنه ما خلا عقدان أو ثلاثة عقود من السنين من مظالم أضيفت الى مصائبها السماوية، وكان القضاء على بيوت برمتها بالزلازل والأوبئة والقحط من الأمور التي لا يستغرب وقوعها. ولم يكن في تلك الأيام احصاء يركن اليه فكانوا يقدرون أبداً عدد الهالكين بالتخمين واذا ضبط ذلك في العاصمة فمن الصعب ضبطه في القرى.

اكتفينا من عوامل الخراب بنموذجات مما وقع والاستقصاء متعذر او مستحيل.

الفصل التاسع عشر

القرى الداثرة

لم يقم علماء الآثار بحفريات في الغوطة على الطرق الحديثة كما بحثوا في كل مكان كان مظنة أبنية أزلية، وصرفوا وكدهم الى نبش الآثار اليونانية الرومانية وغيرها في الكور الشامية ولو تعلقت الهمم ببحث بعض أرض الغوطة مما يعرفه المولعون بالآثار أو ينبه اليه سكان الجوار لكشفوا أشياء مهمة من عهد الاسلام وما قبله، وما زال أهل القرى يعثرون اثناء الحرث وفتح الآبار والأسس الجديدة ونبش الخرائب على عاديات تدل على مدنية زاهرة.

لم تتغير معالم الغوطة، أو بعبارة أصح لم تتبدل أسماء قراها كما تبدلت معالم دمشق، فان أكثر أسواقنا وشوارعنا تغيرت تغيراً عظيماً، وقد تتبدل في القرن الواحد مرة أو مرتين. ولكن الذي حدث في الغوطة أن دثرت قرى كثيرة من قراها، كانت في القرون الخالية قائمة عامرة، ولم يبق منها الا أسماؤها في بطون الكتب، وآثارها وأطلالها من تلول وغيرها، قد تدل على محالها ومواضعها. واستغرقت القرى الكبرى اراضي القرى الداثرة، ففي أرض جوبر

مثلاً دخلت بيت لهيا وقلبين وسريتين وجديا والمأمونية والديوانية وطرميس والمصيصة والداودية والعمادية والصفوانية وغيرها ، وكلها قرى دائرة . وفي أرض عربيل دخلت ارزونا ودقانية وبرتايا وسلطايا وزينون وحوارة وغيرها .

فمن القرى الدائرة :

الأرجام : خرائب عظيمة شمالي حرستا البصل ، على بعد ساعة منها على السائر على قدميه نحو الشمال أي الجبل . ولا يزال الأهلون يستخرجون منها بعض الخزف والأواني والأساور والخواتيم والدمالج وغيرها . والرجم القبر كالرجمة بالفتح والضم وجمع الرجم رجام . والغالب أن الأرجام كانت مقبرة أو مقابر قرية كبيرة كانت الى جانبها فدثرت . والشائع على ألسنة الحرستانيين أن سكان الأرجام كانوا نصارى ، يستدلون على ذلك من بناء قبورهم .

أرض أبان : تنسب الى أبان بن مروان أخي عبد الملك بن مروان وهي بحذاء الداودية شمالي الأرزة من بيت لهيا . ويقول الاستاذ المنجد انها كانت خلف السفليين موضع المسجد القديم جنوب ميدان الحصا وأن أرض أبان محل آخر شآم الأرزة من بيت لهيا وهي المقصودة هنا.

أرض التل : في عين ترماء ، ربما كانت قرية . والمعقول أن كل قرية تبدأ بتل أو تلة أو تلول كانت قرية ويشاهد ذلك بكثرة في بعض القرى التي تنادي بأنه كان في جوارها قرية عامرة ، وليس في الغوطة تلال طبيعية بل فيها تلال صناعية .

أرض التلول : في أرض حزة ، كان محلها قرية فأطلق على خرائبها التلول .

أرض التلة : في زبدين تبعد عنها ربع ساعة .

أرض الخرامة تبعد عن الجنوب الغربي من داريا نحو ثلث ساعة على من يسير على قدميه . وفيها بقايا أحجار كبيرة جداً ، ويظن أنها كانت ديراً .

أرض الطاقة : من مزارع داريا ، لا يزال يعثر فيها على آثار عمران من أوانٍ وأثاث وأدوات وغيرها . وفيها أحجار تدل على أنها من المباني العادية

أرزونا : قرية كانت تحت القابون التحتاني على نهر ثورة ولها جامع ومأذنة . وكان فيها قصور معيوف أمير دمشق . وقد ضمت أرضها الى عربيل .

ارزة : كانت مكان حي الشهداء في طريق الصالحية . وكانت متصلة بسويقة صاروجا تمتد الى عقبة جوزة الحدباء . رأى خرائبها

ابن طولون، وكانت عامرة بعض الشيء في القرن العاشر .

اشفانية : لم يعرف محلها ، وفي أول قرى المرج قرية اسمها شفونية، ولعلها هي، أصابها التحريف .

الأكواخ : في المنتظم لابن الجوزي أنها من ارض دمشق .

انا كاس : (راجع بيت ماراس) .

الأوزاع : كان موضعاً مشهوراً بربض دمشق ، وسكنه في صدر الاسلام قبائل شتى . واليها ينسب الامام الأوزاعي دفين بيروت . ويقول ابن خلكان انها على طريق باب الفراديس . ومن رأي ابن العماد انها حي العقيبة . ومعنى الأوزاع الجماعة المتفرقون . وهي اسم قبيلة ايضاً . ويقول ابن عساكر : وأما ما كان شمالي البلد فسطرا ، والفراديس ، والأوزاع ، والصَّدف ، ومُقرى، وشعبان، ومرج الأشعريين، وجميع هذه القرى دثرت . ويقول دهمان إن الصدف قرب مقبرة الدحداح وراء الدور .

بج حوران : قرية كانت على باب دمشق قبلي الشاغور من اقليم باناس ، ويقال لها القطائع .

بُرتايا : غربي سقبا . لم تبرح آثار مقبرتها ظاهرة . وقد ضمّت أرضها الى عربيل وتعد اليوم من مزارعها . وآخر من ذكرها ابن طولون الصالحي . ومعنى برتايا بالسريانية الأبلق المخطط وذكر

النعيمي أنها كانت وقفاً على دار الحديث الفاضلية ، وأنها لصيق أرض حورية يفصل بينهما نهر . وقد أنشئت طاحون على أنقاضها .

بسطرا : مقسم ماء بحرستا ، يظهر انه سمي باسم قرية اسمها بسطرا دثرت .

بيت أبيات : لم يذكرها ياقوت وذكرها ابن عساكر . وقال ابن طولون هي غربي الصالحية ، كان ينزلها سعد بن تميم والد بلال بن سعد من الصحابة . ولم يبق في القرن العاشر من هذه القرية الا مسجدها والطاحون ، وهي محل طاحون الاشنان في طريق حي الاكراد من جهة مقبرة الدحداح .

بيت الآبار : كانت بليدة خربت . وهي حاضرة الاقليم، وسمي باسمها. ويؤخذ من كلام ابن عبد الهادي في القرن العاشر أنها كانت موجودة في عصره . ومن عملها المنيحة وجرمانا ودير هند وبيت سابا أو سابر . والغالب أنها التل الكبير الماثل للعيان شرقي جرمانا، وقد خربت غير مرة . ويقال لخرائبها اليوم تل أم الابر ، وهي على نهر العقربانى بين المقسمين في طريق المنيحة غربي دير خليل. وبين التل والدير طريق ماء. وورد ذكرها في أخبار أبي الهيذام ، فقد سار اليها فوجد فيها اليمانيين فهزمهم وأحرق ما حولها .

بيت رانس : كانت عامرة في القرن التاسع ذكر ابن عبد الهادي

مسجدها . وقالوا ان كنازاً الغنوي الصحابي دفن في طريق عقربا قبلي فذايا وقريب بيت رانس . وثقات المؤرخين على أن كنازا مات في خلافة أبي بكر ولم تكن الشام فتحت .

بيت البلاط : هذا الاسم كان يطلق على قرية البلاط بجوار المنيحة وفي رواية اخرى قرية البلاطة .

بيت سابا أو سابر : قرية من اقليم بيت الآبار عند جرمانا .

بيت قوفا : قبلي جرمانا ، اشترى أرضها أحد الدمشقيين في العهد الأخير . وقسم من بيت قوفا بستان في أرض جرمانا ملك آل الصواف والنسبة اليها قوفي .

بيت لهيا . وتسمى بيت الاهيه : هي قرية السكون والسكاسك ، أي أنها قرية يمانية . وكانت من أعمر القرى في الغوطة بل أشبه بلدة ، واليها ينسب الاقليم . وهي على طريق بغداد القديم بين البساتين حوالى جسر ثورا اليوم عند الجهة التي يقوم فيها المستشفى الانكليزي في أرض القصاع . وكان فيها كنيسة أصبحت في عهد ابن طولون مسجداً جامعاً مزيناً بفصوص الرخام الملونة المنظمة بأعجب نظام . وكانت هذه القرية قد اخليت لابن الصمصامة عندما قصد دمشق ليكون نزوله بها كما طلب . وما زال الأهلون اذا حفروا في أرضها يعثرون على قنوات وآثار بناء ضخم كما هو الحال في العنابة المجاورة لها .

بيت ماراس : في متحف دمشق حجر من الجير الصلب رقمت عليه كتابة يونانية هذه ترجمتها : عهد ذيو قلطيانوس ومكسيميانوس اغسطس وقسطيطينوس . ليوضع حجر تحدد به قرية بيت ماراس وقرية اناكاس . وقد وجد هذا الحجر بقرب نهر جسرين .

بيت والي : مزرعة الى الشرق الجنوبي من دومة .

بيت وانة : جنوبي دومة وتعد من مزارعها .

تلفيا ثا : ذكرها ياقوت ، ووردت في شعر أبي المحاسن الشوا . وقد أخطأ دوسو في قوله انها ليست من الغوطة ، وانها في سفوح جبل الشيخ زاعماً أن أحد الصليبيين ذكر اسم محطة بهذا الاسم . على أن اشتراك تلفيا ثا باسم قرية اخرى من اقليم آخر أو كورة اخرى لا ينفي أن تكون تلفيا ثا من الغوطة . وقد أخطأ أيضاً في قوله : من الواجب تحقيق موقع سقبا وحوش خرابو وحوش الخياط ، وهذه القرى معروفة مشهورة . فسقبا حاضرة الغوطة الوسطى أشبه ببلدة ، وكانت عامرة منذ الفتح . أما حوش خرابو وحوش الخياط فهما قرى مرجية عامرة الى عهدنا . وتلفيا ثا قرب راوية (قبر الست) على الارجح . وعلى مقربة من جرمانا مقسم ماء يقال له تلفيا ثا .

التل : بأرض القدم .

تل الأحمر : بأرض القدم .

تل الحفارة : في قرية الحديثة على نحو ثلث ساعة منها .

تل سوجق : بأرض القدم .

تل القرود : في أقصى حدود الشرق من أرض قرية المحمدية . كانت عامرة كما ظهر من انقاضها فنبشت لعهدنا فصلحت للزراعة

تل هجون : ذكرها القاضي ابن المنجا في صك وقفه . وقال انها من الضياع الغوطية من اقليم الكسوة ، واقليم الكسوة ليس من الغوطة

تلة باب الشرقي : على قيد غلوة من هـذا الباب . وكانت خراب قرية على ما يظهر ، فرفعت منذ نحو خمسين سنة انقاضها وقاذوراتها وأصبحت حديقة ومعامل وحوانيت

تلة البيرة : في أرض المنيحة . واسم البيرة يطلق على عـدة قرى في الديار الشامية .

توماء : بالهمز يمكن ان تكون قرية دثرت . ينسب اليها ، على قول ، أحد أبواب العاصمة . قال جرير :

لا ورد للقوم ان لم يغرفوا بردى اذا تجول(١) عن اعناقها(٢) السدف(٣)

(١) تجول انكشف .
(٢) عن اعناقها اي أعناق الابل . ولعله آفاقها .
(٣) السدف ، ج سدفة ، وهي الظلمة .

صبحن توماء والناقوس يضربه قس النصارى حراجيجا(١) بناتجف

ونسب بعضهم باب توماء الى رجل اسمه توما كان من قواد الروم أو رهبانهم . ونسبه دوسو الى قرية دومة أو دوما ، وهو بعيد . وقد وردت في الشعر . نزل يزيد بن أبي سفيان في فتح دمشق بباب توما ، فقال عبد الرحمن بن أبي سرح وكان معه اصحابه :

الا أبلغ أبا سفيان عنا بأننا على خير حال كان جيش يكونها
وأنا على باب لتوماء نرتمي وقد حان من باب لتوما حيونها

الثمودية : قرب حرستا ، كان بها مصنع .

جديا : (بفتح الجيم والدال أو باسكان الدال) وتلفظ اليوم بكسر الجيم . قرية بين جوبر وزملكا . وبيادر جديا اليوم في أرض جوبر . وفيها قبران عظيمان .

جورة عطاء : من اقليم بيت ابيات . وهي أرض فيها أخشاب كبار من الحور تربى اوتاراً لجامع دمشق وهي وقف عليه . وعطاء هو صاحب المسجد خارج الباب الشرقي . ذكر ذلك الاستاذ المنجد في بحثه عن ولاة دمشق في العهد السلجوقي .

الجورتان : مما وقف على المدرسة الريحانية الجورتان البرانية والجوانية

(١) الحرجوج الناقة الجسيمة الطويلة ، وقيل الشديدة او الضامرة . وتجف تضطرب . والوجف والوجيف ضرب من سير الابل .

بأرض الخامس وبستان الخامس الى اليوم معروف .

الحارثية : كانت عامرة حتى القرن العاشر ولم يعرف موضعها كما يفهم من كلام ابن عبد الهادي .

حلفبلتا : قرية لقيس مجاورة للعاصمة وكانت قرب قبر الست (راوية) .

حمنا : هكذا وردت في بعض المصادر وقالوا انها قرية لتغلب . وربما كانت مقنا فحرفت . ويقال ارض مقناة موافقة لكل من نزلها .

الحرجية : نظنها محرفة عن حرجلة . وحرجله ليست من الغوطة ، وهي متاخمة لها من الجنوب .

حردان : قرية شمالي سقبا للشرق وشرقي حمورية للقبلة ، خربت منذ قرون . واسم نهرها حردان شائع الى اليوم على الألسن يسقي بعض أرض سقبا وافتريس . وأهل الجوار يلفظون اسمها لعهدنا بفتح الحاء . وفي دار الكتب الظاهرية بدمشق جزء فيه حديث من حديث أهل حردان . وفيه انها قرية كانت عامرة الى جنب سقبا من اقليم داعية . ولما جرت مساحة الغوطة في العهد الأخير ضم بيدر حردان الى الأرض المجاورة .

حرلان : بفتح الحاء . قال ياقوت انها ناحية بالغوطة فيها عدة قرى

بها قوم من الأشراف من بني أمية وكذلك ورد اسمها في تاريخ ابن عساكر ، وهي مما بلي الصفوانية ، شرقي باب توما .

حجرا : الغالب انها محرفة عن حجيرا ، والنسبة الى حجرا (بالكسر والقصر) الحجرائي . والأولى أن تكون النسبة اليها الحجيري ، وحجيرا فقدت الياء بالنسخ فنسبوا اليها على مايظهر فقالوا الحجرائي ، ولا نعتقد أن قرية سميت بهذا الاسم الا حجيرا . وحجيرا معروفة .

الحلاج : هو أحد ثلاثة مواضع من أرض داريا لا يزال الباحثون يجدون فيه بعض آثار وعاديات .

الحميريون : نسبة لحمير ، قرية يمانية ذكروا أنها كانت محلة بظاهر دمشق على القنوات على طريق كفرسوسية . وقال بعضهم انه قام عليها حي الشويكة . وهناك مقبرة لا تزال تدعى مقبرة الحميريين . ويأتي ذكر الحميريين والسكاسك في كتب التاريخ القديمة . والسكاسك والسكون قبيلتان عظيمتان . والسكون من سكن في الموضع ، والسكاسك من تسكسك الرجل تضرع وكان من جملة الأنهار المشتقة من بردى في القديم نهر اسمه نهر السكون ذكره ابن عساكر .

حوارة : كانت قرية معروفة ، خربت في فتن القيسيين واليمانيين ، وهي اليوم من مزارع عربيل في المحل الذي يقال له كروم حوارة . وهي غربي برتايا . وقد ضم الى أرض عربيل غير هذه القرية : ساطايا

وبرثايا ودقانية وغيرها، وضم اليها من المزارع السيلون ، وأرض الدير ، وزينون (وهذه عند محافر حزّة) والرحيليات والرشيدية .

حور تعلا : هكذا يلفظها الأهلون اليوم . وفي ابن عساكر حرّ ثعلة . وهي بستان معروف مجاور لقصر اللباد . وكانت قرية لها مسجد ، شمالي سطرا .

الخربة : من أرض سبينة ، يظن أنها كانت قرية .

الخزرج : من مزارع كفر سوسية . كان مكانها قرية .

خولان : قرية لغسان بها قبر ابي مسلم الخولاني . وكان بها آثار بقيت الى القرن السابع . سماها النازلون فيها عند الفتح باسم مخلاف من مخاليف اليمن ، كما سموا غيرها من القرى التي نزلوها . واقليم خولان يدخل فيه داريا كما قلنا .

داريا الصغرى مزرعة قرب دومة .

داعية : قرية كانت عامرة دثرت ونُسب اليها الاقليم اقليم داعية ، والنهر نهر الداعياني الذي ما يزال مشهوراً بهذا الاسم يسقي حمّورية وسقبا والافتريس وجسرين وكفربطنا وبيت سوا وغيرها . وكانت داعية عامرة الى القرن العاشر على ما يُفهم من كلام ابن عبد الهادي ، ثم ضُمّت أرضها الى حمّورية .

الداودية . قال ابن عساكر انها منسوبة الى داود بن مروان ابن الحكم ، وهي قبلي نهر الداعياني وبين طاحوني العبد والاحدى عشرية . وفي أيامنا رفعوا أنقاضها فأصبحت أرضها تروى من نهر الداعياني .

دف الحجر : دمنة قرية بأرض القدم .

دقانية : قرية صغيرة تحت أرزونا ، والنسبة اليها الدقاني . خربت بعد القرن الحادي عشر كما قال ابن طولون . وأرضها اليوم مضمومة الى عربيل ، ويلفظونها تقانية .

الدكة : موضع بظاهر دمشق فوق نهر يزيد ، وتسمى في أيامنا الدوّاسة . وكان الفاطميون جعلوا في هذه الحدائق بيت الامارة ، وكان فيها قصر خمارويه . وفي الدواسة بقايا آثار قديمة وعمران عظيم .

الدوير : تصغير دار من مزارع دومة .

الدويلعة : قرية بجانب مقبرة النصارى وتجدد عمارتها لعهدنا .

الديلميات : في شمالي كفرسوسية بستان اسمه الديلميات . تغزل به ابن عنين لما كان في اليمن .

الديوانية : مزرعة في ربض دمشق قامت عليها المدرسة العلمانية في أول شارع بغداد الحديث .

الراهب : محلة كانت قبلي المصلى لسعيد بن عبد الملك .

راوية : كانت لفزارة ، وهي المعروفة اليوم بقرية الست . ويُقال ان مدرك بن زياد الفزاري مدفون بين حجيرا وراوية. والقبر معروف ويُزار .

الربوة : معروفة كان لها شأن في الأيام الخالية . وكانت من مفترجات دمشق . ووصفها البدري في القرن التاسع كما وصفها ابن طولون في القرن العاشر . فكان الوصفان متشابهين الا قليلاً : عمران ممتد الرواق ، ومدنية فاشية باهرة ، ونضرة وغضارة ، وطبيعة ساحرة ، ومياه متدفقة . ثم خرب ما فيها ، ودثرت قصورها ، وتهدمت مساجدها ، وعادت مؤخراً الى الحياة قليلاً .

الزعيزعية : قرية ضُمَّت الى أرض زبدين .

الزعفرانية : شمالي برزة ، يستخرج الباحثون من أرضها بعض آثار تنبئ بأنها كانت عامرة .

زملكان : من اقليم بيت لهيا ، وهي زملكا المعروفة .

زينون : من القرى الداثرة بقي اسمها ، وهي مجاورة لحزّة ، أضيفت أرضها الى عربيل كما سبق .

ساجد : لعلها ساجر ، والساجر السبيل والساكن . غير معروفه .

سام : من اقليم خولان ، وقيل ان سام وديرهند من اقليم بيت الآبار ، والنسبة اليها سامي .

سبعين : ورد اسمها في بعض وقائع الصليبيين في المزة سنة ٥٤٣ والأرجح أنها من الغوطة .

سريتين : تحت نهر ثورا قرب مزرعة العمادية .

السطح : كانت من اقليم بيت لهيا خارج باب توما . وكان يسكنها عبد الرحمن بن أبي سفيان .

سطرا : ورد ذكرها كثيراً في الشعر . وخربت من زمن . وكانت قرب بيت لهيا شمالي البلد ، قال دهمان انها كانت في الطريق المقابل لباب جامع القصب . ويعرف هذا الطريق بجادة عاصم . ويخترقه شارع بغداد ، ثم يقابله بالجهة الشمالية جادة الخطيب وكل ذلك من سطرا . وأطلق عليها ابن المنجا اسم سطرا العرب .

السفليون : ذكرها ياقوت وغيره . كانت محلة عند المسجد الجديد جنوب ميدان الحصا .

سلطايا : نرجح أنها كانت على مقربة من المقبرة التي بني عليها الآن طاحون في مفرق الطريق العام بين حزة وكفر بطنا . واسم الموقع سلطايا . وقد ضمّت أرض سلطايا الى عربيل ولعل

السلطي التي ترد في كتب الأنساب نسبة الى سلطايا ولو كانت النسبة الى الصلت لكانت بالصاد والتاء، خصوصاً وقد يضاف الى السلطي الدمشقي. ومعنى سلطايا بالسريانية الصوان نسبة الى سلطا

الشقيرى: بالتصغير، مزرعة غربي جسر الغيضة أو جسر جسرين على ضفة بردى من القبلة. يظن أنها كانت منفردة عن القرى المجاورة. وهي من المزارع الحديثة. مساحتها ٢٢ فداناً.

الشماسية: عند مسجد القدم. وكان المأمون العباسي أقام بها مرصداً فلكياً، وفي ياقوت: انها محلة من دمشق. وقد حفر أهل القدم تل الشماسية فعثروا فيها على مقبرة وبعض أسس قديمة.

الشماسيات: غربي كفر بطنا. يظن أنها كانت قرية.

شمس: من اقليم بيت الآبار، داثرة. كان يسكنها سعيد بن أبي سفيان بن حرب بن خالد بن يزيد. وكانت لجده خالد بن يزيد.

الصَّدِف: غربي مقبرة الدحداح، وراء الدور.

الصفوانية: خارج باب توماء من اقليم حرلان. وحرف اسمها فيُقال لها اليوم الصوفانية.

صنماء دمشق: قرية كانت بين المزة ودمشق محاذية لما كان يُقال له تل التعالب الذي بني في موضعه مسجد خاتون المشرف على باناس

والمرج الأخضر. وهي من القرى التي نزلها اليمانيون وسموها باسم عاصمة قطرهم. ويقول دهمان: ان صنماء دمشق كانت غربي اللؤلؤة الكبرى والصغرى وشرقي قينية. ومنذ القرن السادس أصبحت صنماء دمشق مزرعة وهي اليوم بساتين.

الصويطي: أنقاض قرية تعد من المواضع الأثرية الثلاثة التي دخلت في أرض داريا.

طَرْميس: قرية في أرض جوبر، بين الشيخ حرملة وقبر عكاشة بقي اسم جسرها محرفاً من طاء الى تاء، فيقال: جسر ترميس، وقد كانت قائمة في القرن الرابع كما يستدل من تاريخ ابن عساكر.

الطَّيِرة: بكسر أوله وسكون ثانيه وراء. من قوله عليه السلام: لا عدوى ولا طيرة. والأصل التحريك. قال زين الأمناء ابن عباد: بدمشق عدة قرى يُقال لكل واحدة منها طيرة بني فلان، والنسبة اليها طيري. ولم نعثر على شيء من هذه الطيرات. وقد أتى الذهبي على ذكر طيرة واحدة فقط.

عالية وعويلية: كانت عند القطائع ذكرها ابن جبير في رحلته بالعين المعجمة. وهي موضع قرب مسجد القدم على ميلين من دمشق، كما يقول ابن عساكر. وعالية في أرض قرية القدم بقي اسمها فقط.

العبيّ : من مزارع دومة .

العبادية : بتشديد الباء . قال ياقوت انها قرية من قرى المرج ، وأن العبادية قرية أخرى في ظاهر دمشق . والظاهر أن الأولى هي قرية العبادة المعروفة لعهدنا في مرج الغوطة . ولعلها كانت ترسم العباديه (بالهاء) فقرأها المؤلف أو الناسخ العبّادية بتشديد الباء . أما عباديه الغوطة ففي تحقيقات الأستاذ المنجد أنها من اقليم بيت الآبار ، سكنها عبد العزيز بن عبد الملك .

العطارة : شرقي برزة ، ما يزال النباشون يسقطون في خرائبها على عاديات وآثار خزفية وحديدية ونحاسية وغيرها .

العنابة : مجموع بساتين من دون جسر تورا الآخذ الى طريق دوما . تحتوي على دور وقصور وعاديات . وعادت في القرن الماضي الى النهوض وعمرت فيها بعض الدور والقصور . فدمرتها السلطة المحتلة في الثورة السورية لأسباب حربية . وهي لصيق بيت لهيا . وتعرف اليوم بجنائن الورد .

فتريس : من اقليم داعية ، وتسمى اليوم « الافتريس » وهي قرية ما برحت عامرة . سكنها زياد بن عنبسة الأموي .

فذايا : جنوبي مقبرة اليهود . قال ابن عساكر انها كانت قرية خربت . وفي ابن القلانسي : إن فذايا وحلفبلتا والخامس كانت

مصاقبة للبلد . وفذايا تحريف بذايا ، وهي الهراوة أو نصاب الفأس بالسريانية . واذا حرفت تحريفاً آخر ، كان معناها صانع الصدرات والجبب والمدرعات . روى ابن عساكر عن مضر بن العلاء أنه كان يعرف من زقاق فذايا الى قرية تُعرف بواسط في الغوطة حوانيت ومنازل . وحكى عن شيوخه أنهم قالوا : ان العمران كان يتصل حتى يصير سوق القمح في قرحتا . وقرحتا على بضعة كيلومترات من دمشق .

فطم التلة : هي تل عظيم في أراضي حوش الريحانية فيه حجارة وأنقاض وفي هذه القرية تلال لا اسم لها ، والفَطْم باصطلاح الغوطة الأرض التي يجيء دور زراعتها في السنة بعد السنة .

القابون التحتاني : هي أرض مزرعة العمادية فيها بيوت قليلة . والقابون الفوقاني هي القرية الأصلية ، وهي عامرة .

قردى : والنسبة اليها القَرَدي قال لسترانج انها من الغوطة .

قرية سيدي مدرك : بالقرب من راوية المعروفة بقبر الست .

القدم : هذه القرية من الأمهات جنوبي دمشق ، مكانها جديد والقديمة كانت على مقربة منها الى الغرب . ومن قصيدة لابن القيسراني وهو الذي خلد بشعره انتصارات المسلمين على الصليبيين :

وحاولوا (المسجد الأدنى) فأعبرت عن مسجد القدم الأقصى لهم قدم

ومسجد القدم مشهور .

قصيبان : المظنون أنها قرية واسم قناتها ما زال على الألسن وهي تخرج من تحت بيوت ببيلا .

القطيعة : ظاهر دمشق ورد ذكرها في أخبار فتنة أبي الهيذام ولكن بالفاء لا بالعين والمظنون ان الفاء تحريف وهي عند السفليين سكنها الحكم بن عبد الله بن روح بن الوليد كما ورد في ابن عساكر .

قُلْبِين : يقول ياقوت ان قلبين بالقاف وكسر الباء كانت عند طرميس وذكر أيضاً قلتين بالتاء والأرجح ان الثانية محرفة عن الأولى والأولى بكسر الباء وردت في الشعر في قافية مع جسرين . ولقلبين قناة ماء حرفت قافها فصارت ألفاً فيقال لها اليوم قناة ألبين بكسر الباء وهي تسقي بعض مزارع جوبر .

القوينصة : سكن الوليد بن أبان الأموي هذه القرية في ظاهر دمشق .

قينية : كانت مقابل الباب الصغير وصارت بساتين في القرن السادس (ياقوت) ويقول صاحب القاموس انها صارت في عهده بساتين والغالب انها خربت في القرن السادس وربما قبله وفي ذيل تاريخ دمشق ان المحاربين كمنوا في خراب قينية وكان ذلك في القرن السادس . يقول الاستاذ دهمان انها مكان الطريق الذي يذهب منه الى المزة

من جهة باب السريجة وهو حذاء باب السريجة تماماً . وفي تلك الجهة بنيت مدرسة الطب المعروفة باللبودية وهناك بستان لا يزال يعرف ببستان البودي .

كمشتكين : وفي رواية (كشملين) بالشين وهو تحريف كان عبد الواحد بن سليمان يسكن كشملين خارج باب السلامة وفي كتاب المساجد : عين كمشتكين والوراقة القديمة .

كوكب : ذكرها صاحب نزهة المشتاق بانها من الغوطة وهي مجاورة لداريا وأهل هذه يرمون بالبخل فقيل عنهم انهم لحقوا الدبور الى سهل كوكب حتى لا يأكل من عنبهم ، وفي بعض المظان انها كوكبا بألف في آخرها .

اللؤلؤة الكبرى : يقول دهمان انها حارة الحلبوني ثم سميت بعد ذلك بالمنيبع . وان لؤلؤة الصغرى هي قبلي حارة الحلبوني من بساتين باب السريجة وتعرف تلك الجهة بزقاق الجن . واللؤلؤتان الكبرى والصغرى في أرض كفرسوسية بينها وبين المزة . ظاهر أثرهما الى الآن وقد وصف ابن شاكر اللؤلؤتين فقال منظرتان كانتا ظاهر دمشق فيما يلي باب الحديد غرباً وكانتا من أعجب البناء أحرقهما الفاطميون لما حاصروا دمشق .

المأمونية : على خطوات قليلة من معمل الجليد في طريق جوبر فوق مزرعة آل مردم بك . ولابن الخياط الشاعر الدمشقي قصيدة في وصف المأمونية وبركتها والأنابيب والفوارة والشاذروانات وما ينبت فيها من الخشخاش .

مجريد : يظن أنها كانت قرية غربي كفربطنا واسم نهرها ما زال معروفاً .

مرج الأشعريين : كان مكان خانقاه الطواحين من أرباض دمشق ويقول دهمان انه المرج الذي شمالي قلعة دمشق وهو يشمل سوق التبن وخان البطيخ وخان الباشا الى سويقة صاروجا المشرفة على مرج الأشعريين .

المرج : عدة أماكن : المرج قرب داريا غربي خولان وفي وقائع الحروب الصليبية قال الشاعر من قصيدة مطلعها :

بشطي نهر داريا أمور ما تؤاتينا
وجازوا المرج والتعديـ ـل أيضاً والميادينا

وربما كان هذا المرج غير المرج الأول والتعديل اليوم محلة

على القنوات، والميادين لا بدأن يكون احد الميادين الأربعة التي كانت في دمشق ومنها ميدان الحصا التي يطلق عليها اليوم الميدان . وفي هذه القصيدة أيضاً :

فولوا يطلبون المر ج من شرقي جسرينا

وهذا المرج هو مرج الغوطة وهو أوسع المروج واقليم بذاته .

مزرعة بيت حمادة : في آخر أرض كفربطنا من الشرق وفي أول أرض جسرين عثر فيها على دمن وأنقاض وأوان بيتية ويظن أنها كانت قرية .

مزرعة حاروش : من توابع زبدين وحاروش عين جيدة الماء تسقي قرى المرج ، وفي الغوطة تكثر هذه الصيغة حاروش ساروط طاروق قاشوش الخ .

المزة : بنيت القرية الحالية فوق قناة ، أما القرية القديمة فهي تحت قناتها الراكبة على مقسم نهر الدارائي المعروف بمقسم النفلة ، وما برحت آثارها ظاهرة الى اليوم ينزعون أحجارها ويبنون بها .

مصطبة السلطان : في القابون أو في أرض برزة ، بنيت في عصر المماليك ، وكان أهل الدولة في ذهابهم وايابهم الى عاصمة الملك فروق يجلسون فيها ، خربت كلها .

المصيصة : بالتخفيف لا بالتشديد ، قرية شرقي بيت لهيا ، كانت عامرة تخربت . قال القرماني : انها قرب بيت لهيا ، وكان يسكنها عبد العزيز بن عبد الرحمن الأموي .

مقرى : بضم الميم ومنهم من يفتحها ، والنسبة اليها المقراوي ، كانت شرقي طاحونة الأشنان من أرض الصالحية . وكان في جادة مقرى دور كبار عليها آثار النعم ، منها السبع قاعات ، هدمت في القرن العاشر . وقد ذكرت في الشعر كثيراً ومما قاله فيها ابن الفراش :

إذا ما طفت حول ديار مقرى فعرج بي الى دير الحكيم

وحقق دهمان موقعها فقال : هي شرقي طاحون الاشنان ، بيت أبيات على ضفة نهر ثورة الشمالي ، وهناك طاحون ما فتئت تعرف بطاحون مُقرى . والسبع قاعات كانت في أرض مقرى وتذكر على الألسن إلى اليوم .

منازل بني رعين : غربي البلد ، لم يمكن تعيين موقعها .

ميدعا : قرية في المرج عامرة وقرية من اقليم حرلان داثرة .

الميطور : في أرض الصالحية آخر حدودها على نهر يزيد ، قال عرقلة بن جابر بن نمير الدمشقي :

وكم بين أكناف الثغور متيّمٌ كئيبٌ غزته أعينٌ وثغورُ
وكم ليلة بالماطرون قطعتها ويوم الى الميطور وهو مطير

هذا قول ياقوت فظاهر البيتين أن الثغور اسم قرية أو متنزه وبذلك يحصل الالتئام بين الماطرون والميطور أي المناسبة بين البيت الأول والثاني . هذا اذا لم يرد عرقلة الثغور المعروفة في حدود الشام من جهة ديار الروم . ويقول دهمان ان الميطور شمالي حور تعلة ، ولا يزال في تلك الجهة بستان يدعى بستان النيطور بالنون

النحاسية : قرية في أرض حوش الريحانية .

النمرانية : قرية من ناحية الوادي ، كان معاوية بن أبي سفيان أقطعها نمران بن يزيد بن عبيد المذحجي .

نصيب : الغالب أنها من متنزهات دمشق وللراعي المعروف بابن خداويردي (١١٩٥) :

وفي نصيب جحفل الأطيار ومجمع الأزهار والأنهار
ومجمع الا مواه جسر الغيضه وحيثما يمت تلقى روضه

وجسر الغيضة معروف يجمع بين قرى شمالي الغوطة وجنوبها ، ومنه انبعثت الجذوة الأولى من الثورة السورية .

النيرب : كانت مدينة ذات تسعة مساجد ، وفي بعض الروايات قرية في سفح جبل قاسيون ، وربما قيل للنيرب : النيربان . قال

البدري : ان محلة النيربين تعلو البهنسية وجسر ابن شواس وانها من أعظم المحلات وبها مساكن الرؤساء والأعيان ، وكانت عامرة في القرن الثامن ثم أخذت بالخراب ، ولابن لؤلؤ الذهبي :

ويوم لنا بالنيربين رقيقة حواشيه خال من رقيب يشينه
وقفنا وسلمنا على الدوح بكرة فردت علينا بالرؤوس غصونه

ولبعضهم :

وصباً صَبَتْ من (قاسيون) فسكنت بهبوبها وَصَبَ الفؤاد البالي
خاضت مياه (النيربين) عشية وأتتك وهي بليلة الأذيال

وقاسيون جبل دمشق يحد الغوطة من شمالها .

الواديان : ذكر القدماء من علماء تقويم البلدان أن دمشق تفاخر بالواديين ، وفي رواية أخرى بالزاربين . والواديان على الأرجح وادي بردى ووادي معربا ، وورد ذكر الواديين في شعر ابن الساعاتي في قوله :

سقى الله (برزة) و(الواديين) غير البكاء وغير الوشل
منازل لهو كساها الزمان أعلى الحلي وأغلى الحلل

وقال أيضاً :

سقيت دمشق وجارتا (جيرونها) عثث أخلاف القطار هتونها
صنع يعيد على البطاح بصبغه ما حال عامَ المحلِ من تلوينها

وكسا حياء البرق كل خميلة جنات (نيربها) الى (قابونها)
فعراص (مزتها) الى (قنواتها) (فالواديين) الى شعاب (مَنينها)

وادي مكرم : بين الربوة الى تحت صخرة المزة في أرباض دمشق كانت تخرج منه القراصيا البلدية المشهورة وليس من أثر اليوم لاسم الوادي ولا لزراعته .

واسط : في جنوبي دمشق بعد قرية فذايا .

الهلالية : مزرعة دخلت في أرض حمورية تقع الى الشرق منها والى غربي حوش الأشعري ومساحتها ستون فداناً .

يعقوبا : غربي حزة بينها وبين عين ثرماء ، بقي اسمها وانقاض قليلة منها تتألف منها أكمة صغيرة وهي داخلة في أرض حزة . وكان فيها مزرعة وقفت على المدرسة الظيبانية .

يلدان : من اقليم باناس . وهي يلدا على الاكثر كما قالوا زملكا وزملكان .

اليهودية : مزرعة من مزارع بيت سوا يظن انها كانت قرية مستقلة وفيها اليوم مقبرة ظاهرة قديمة وأنقاض بناء قديم .

الفصل العشرون

القصور والجواسق الدائرة

قال ابن شاكر : في قرى الغوطة والمرج القصور والديورة والمنازل المعروفة مما عفا رسمها وبقي ذكر اسمها . وقد بنى كثير من الامويين في أرض الغوطة قصوراً ودوراً لم تصلنا صورتها . وكذلك أقام بعض عمال المصريين ـ أي الفاطميون ـ بعض القصور في دمشق لسكناهم ونعيمهم . وبنى الأيوبيون القصور والجواسق فيها ، وتبعهم نفر من سلاطين المماليك ونوابهم . وأقام بعض ولاة الأتراك وأعيان دمشق في العهد العثماني قصوراً . فما حفظته لنا الكتب من اسمائها .

القصور : غربي كفر سوسية قال ابن طولون : وقد خربت ، وهي الى الآن خراب .

القُصير : تصغير قصر ، من مزارع دومة . وفي أرضه قام لعهدنا مستشفى المجاذيب والجذامى (ابن سينا والوليد) وكان فيه خان عظيم لنزول القوافل .

القصر الأبلق : قصر عظيم بني من أسفله الى أعلاه بالحجر الأسود والأصفر ، لذلك سمي الأبلق ، بناه الملك الظاهر بيبرس البندقداري صاحب مصر والشام . وعلى مثاله بنى الناصر محمد بن قلاوون القصر الأبلق بقلعة الجبل بمصر . قال ابن فضل الله : وأمام القصر الأبلق بدمشق دركاه ـ بيت مستطيل أمام الدار يرتفق به ـ يدخل منها الى دهليز القصر ، وهو دهليز فسيح يشتمل على قاعات ملوكية مفروشة بالرخام الملون البديع الحسن ، المؤزر بالرخام ، المفصّل بالصدف والفص المذهب الى سجف السقف ، وبالدار الكبرى ايوانان متقابلان تطل شبابيك شرقيهما على الميدان الأخضر وغربيهما على شاطئ واد أخضر يجري فيه النهر ـ بردى ـ وله رفارف عالية تناغي السحب تشرف من جهاتها الأربع على جميع المدينة والغوطة . وذكر ابن تغري بردي أن القصر الأبلق بقي عامراً تنزله الملوك الى أن هدمه تيمورلنك في سنة ٨٠٣ عند حريق دمشق وخرابها . وقد بقي هذا القصر عامراً لى عهد العثمانيين رآه ابن طولون الصالحي وقرأ تاريخه (٦٦٨) وقال ان أسكفته ضرب من رخام أبيض وسطه مكتوب : عمل ابراهيم بن غنائم المهندس .

وما يزال اسم ابن غنائم هذا محفوراً على الحجر في مدخل المدرسة الظاهرية الجوانية التي جعلت دار كتب عرفت بدار الكتب

الظاهرية . وعلى أنقاض القصر الأبلق قامت التكية السليمانية أعظم تكايا الترك العثمانيين في الديار الشامية .

صرتكز : ذكر ابن كثير أنه كان في طريق داريا .

قصر حجاج : يقول ابن عساكر انها محلة كبيرة في ظاهر باب الجابية . والقصر منسوب الى حجاج بن عبد الملك بن مروان . قال ابن شاكر وكان قبله أيضاً معروفاً بالحجاجية وكان ملكا للحجاج ابن يوسف الثقفي . فلما ولد لعبد الملك بن مروان ابنه الحجاج المذكور وكانت أمه بنت محمد بن يوسف أخي الحجاج بن يوسف سمّته باسم عمها الحجاج فنحله الأرض المذكورة وبنى له القصر فعرف به ونسب اليه. وما برحت محلة قصر حجاج عامرة ، ولم يتغير اسمها .

قصر الدهشة : قال في الدارس نقلاً عن ابن قاضي شهبة في حوادث سنة ٨١٦ انه خرب فيها ثلاثة مساكن ، وهي أحسن مساكن بساتين دمشق : الدهشة وبستان ابن النشو على حافة ثورا بالقرب من الربوة وبستان ابن جماعة في المزة . وهذا الثالث نقلت آلته الى مدرسة الخواجا ابراهيم بن الاسعردي .

قصور الربوة : وكان من جهتي وادي الربوة قصور وجواسق وأبنية رآها ابن طولون وقال لم يبق منها الا القليل .

قصور السكسكي : وهي قصور محمد بن عمرو السكسكي في بيت لهيا . قال ابن عساكر : وكان له في هذا الاقليم عدة قصور مبنية بالحجارة وخشب الصنوبر والعرعر . في كل قصر منها بستان ونهر يسقيه . وكان كل جليل يقدم من الحضرة (بغداد) أو من مصر يريدها ينزل عنده وفي قصوره . وكان ذلك في القرن الثالث . والسكسكي من اليمانيين جماعة بني أمية .

قصور الشرفين : اشتهرت قصور الشرفين الأعلى والأدنى وكانت مما يُزهى به ويُفاخز .

قصر صاري بك : أنشأ حسين صاري بك (١٠٩٤) أحدولاة دمشق قصراً في طرف الشرف بالميدان الأخضر وكان مكانه يعرف بالخاتونية . وذكر المؤرخون في العهد العثماني أنه تأنق في وضعه وغرس فيه أنواع الأشجار من كل صنف ، وعز عليه بدمشق بعض أنواع الفاكهة فجلبها من أماكن بعيدة .

قصر الصفوري : كان لأبي البقاء الصفوري المتوفى سنة ١٠٣٥ . وكان يسمى صاحب القصر لقصر كان له في الصالحية . وكان في القرن الحادي عشر من أحسن المتنزهات وفيه يقول الامير المنجكي :

أقسمتُ بالبيت العتيق وما حوت بطحاؤه من حجره وحجوره

ماضمّت الدنيا كقصرك منزلاً كلا ولا سمحت بمثل قطينه

قصر عاتكة : قال ياقوت في أرض عاتكة خارج باب الجابية.
منسوبة الى عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن ابي سفيان بن حرب أم البنين . وهي زوجة عبد الملك بن مروان ، وأم يزيد بن عبد الملك وبهذا القصر مات عبد الملك بن مروان . قال ابن حبيب : كانت عاتكة بنت يزيد بن معاوية تضع خمارها بين يدي اثني عشر خليفة كلهم لها محرم أبوها يزيد بن معاوية وأخوها معاوية بن يزيد وجدها معاوية بن أبي سفيان ، وزوجها عبد الملك بن مروان وأبو زوجها مروان بن الحكم وابنها يزيد بن عبد الملك ، وبنو زوجها الوليد وسليمان وهشام . وابن ابنها الوليد بن يزيد وابن ابن زوجها يزيد بن الوليد بن عبد الملك وابراهيم بن الوليد المخلوع وهو ابن ابن زوجها أيضاً . وعاشت الى أن أدركت مقتل ابن ابنها الوليد بن يزيد. ويطلق لعهدنا على قصر عاتكة أو أرض عاتكة قبر عاتكة وهي من أحياء دمشق خارج السور ظاهر باب الجابية .

قصر خمارويه : ذكر ابن تغري بردي أن خمارويه بنى قصراً بسفح قاسيون أسفل دير مران يشرب فيه الخمر وفيه ذبح سنة ٢٨٢ هـ وحمل في تابوت من دمشق الى مصر .

جوسق الرئيس : ابتاعه الملك الأشرف من ابن عمه الظاهر خضر سنة ٦٠٨ ، وكان بالنيرب . ذكر ذلك أبو شامة .

جوسق العادل : جوسق كان للملك العادل الأيوبي على الشرف . ذكره ابن تغري بردي .

قصر بني عمر : قرية في الغوطة ، ذكرها ابن عساكر وذكر من خرج منها من المحدثين .

قصر الفقراء : بناه نور الدين في الربوة ووقف عليه قرية داريا . لتكون قصور الفقراء الى جانب قصور الأغنياء ، ذلك أن قصور هؤلاء كانت عظيمة في تلك البقعة فأحب سيد الشام ألا يحرم الفقراء من قصر يصطافون فيه ويرتبعون كما يصطاف أرباب اليسار ويرتبعون فقال التاج الكندي :

ان نور الدين لما أن رأي في البساتين قصور الأغنياء
عمر الربوة قصراً شاهقاً نزهة مطلقة للفقراء

ويقول ابن عبد الرزاق ان الملك نور الدين محمود بن زنكي خرج يوماً الى جهة الربوة فقيل له هذا بستان فلان ، وهذا قصر فلان ، فقال : وما للفقراء شيء ؟ قالوا : لا . فبنى لهم هذا المكان وجعله مشهداً للناس .

جوسق ابن الفراش : ذكر أبو شامة في الروضتين أن ابن الفراش كان له جوسق بالشرف الأعلى في بستانه وأن صلاح الدين يوسف

كان يزور القاضي الفاضل ليستضيء برأيه فيما يريد فعله في هذا الجوسق .
ولم يكن صلاح الدين من الراغبين في عمارة الدور والقصور حتى أن الصفي بن القابض لما تولى خزانة دمشق لصلاح الدين بنى له داراً مطلة على الشرف بالقلعة وأنفق عليها أموالاً كثيرة وبالغ في تزيينها وتحسينها وظن أنها تقع من السلطان بمكان فما أعارها طرفاً ولا استحسنها وكانت من جملة ذنوبه عند السلطان التي أوجبت عزله عن الديوان وقال : ما يصنع بالدار من يتوقع الموت ، وما خلقنا الا للعبادة والسعي للسعادة وما جئنا لنقيم وما نروم الا نريم .

قصر كريم الدين : ذكر المحبي أن يوسف بن كريم الدين رئيس الكتاب بمحكمة الباب بدمشق المتوفى سنة ١٠٣٢ عمر القصر بالصالحية ، وكان من أحسن المتنزهات وفيه يقول الأمير منجك :

قصور الشام محكمة المباني ولا قصر كقصر بني الكريمي

قصر اللبادة : قال القدماء انه دير مسكون آهل بين دمشق وبيت آبات . وقد حقق دهمان موقعه فقال : انه في طريق بساتين الصالحية التي يُذهب اليها من حيّ القزازين على نحو ألف خطوة . وهو بستان كبير متصل بطاحون الأشنان ، وما زال يُعرف الى الآن بقصر اللبان .

قصر المأمون والمتوكل : كان القصر الذي بني للمتوكل العباسي في طريق داريا . اختار البانون هذا المكان لبعده عن ضباب الغوطة ورطوبتها . قال المسعودي : ان المتوكل لما نزل دمشق أبى أن ينزل المدينة لتكاثف هواء الغوطة عليها وما يرتفع من بخار مياهها فنزل قصر المأمون وذلك بين داريا ودمشق على مسافة من المدينة في أعالي الأرض . وهذا الموضع يشرف على المدينة وأكثر الغوطة . وكان يعرف بقصر المأمون الى سنة ٣٣٢ . وفي عيون التواريخ أن المتوكل أقام بدمشق سنة ٢٤٤ وبنى بها القصور وهي التي بطريق داريا . ثم أنه استوخمها ورأى أن هواءها بارد رديء وماءها ثقيل بالنسبة الى هواء العراق ومائه . ورأى أن الهواء يتحرك بعد الزوال في زمن الصيف فلا يزال في اشتداد يثير الغبار الى قريب من ثلث الليل . ورأى كثرة البراغيث بها ، ودخل عليه فصل الشتاء فرأى من كثرة الأمطار والثلوج أمراً عجيباً ، وغلت الأسعار ، وانقطعت الأجلاب فضجر وعاد الى بغداد .

قصور المرجة الخضراء : ذكرها صاحب جهان نما وكانت عامرة آهلة في عصره . وكان في المرجة الدور المنيفة والقصور الفخمة ، وكل ذلك زال بعد القرن التاسع .

قصر الملوك أو مصطبة السلطان : قال البدري : القابون قابونان فوقاني وتحتاني ، وبهما أرض مصطبة السلطان وهي مصطبة في قدر فدان يصعد اليها بنيف وعشرين درجة من جهاتها الأربع ، وفيها قصر حسن البناء ينزل به الملوك والسلاطين عند توجههم الى الأسفار . وقد بنى الناصر صلاح الدين من أسرة صلاح الدين يوسف قصراً في قرية القابون لم ير الراؤن مثله .

قصر الأمير منجك : في كتاب ولاة دمشق في العهد العثماني أن الأمير منجك بنى قصراً هائلاً في المرجة وكان عام عمارته سنة ١٠١٢ هـ .

قصر يزيد : من اقليم بيت الآبار وكان يسكنه عبد العزيز بن عبد الرحمن بن الوليد بن عبد الملك .

فهذه أسماء بعض القصور التي قامت في الغوطة ، وقد كان فيها كثير غيرها . ولم يبق من أثر اليوم لأنقاض قصور الأغنياء ولا الفقراء ولا لقصر المأمون والمتوكل ولا لقصور الربوة والشرفين . وقد بقيت قصور الأغنياء في الربوة الى القرن العاشر . ثم خرب كل أولئك مما لاقته البلاد في القرنين الحادي عشر والثاني عشر من تعدّي عسكر

الانكشارية وسوء ادارة القائمين بالأمر من العثمانيين . وقد كان دخول العثمانيين الى دمشق سنة ٩٢٢ بدء خراب هذه القصور .

وفي أوائل هذا القرن صحّت نية أغنياء دمشق ممن يملك حدائق في ضاحيتها وقراها على اقامة القصور والدور الجميلة فيها . وخربت هذه القصور والدور في الثورة السورية (١٩٢٥ — ١٩٢٦) وأم ما أصابه الحريق والتدمير بيوت برزة والقابون والعنابة وجرمانا والمنيحة والحديثة وزبدين وحمورية وافتريس وجوبر والمزة . ومن القرى مادثر برمته مثل جسرين والمنيحة وبرزة ثم عادت فبُنيت . كما خربت في دمشق نفسها أجمل دورها وقصورها الأثرية .

الفصل الحادي والعشرون

الديورة الداثرة

الدير خان النصارى وهو غير الكنيسة وقد حفظت لنا الكتب أسماء ديرة كثيرة كانت في الغوطة. ويغلب على الظن أن القرى التي يبدأ أولها بدير، كانت أولاً ديراً فقط ثم توفرت بجانبه الأرض المغروسة والمزروعة وكثر القائمون على حراثتها وزرعها فأصبح الدير على توالي الأيام قرية برأسها، كما كان الحال في كثير من المدن والقرى في بلاد الغرب خلال القرون الوسطى: استحال الدير بلداً مع مرور الأيام.

فمما وقع لنا من أسماء الديرة الدائرة:

دير ابن أبي أوفى: كان خارج باب الجابية.

دير بحدل: لم يبق من القرى التي تبدأ باسم دير في الغوطة سوى دير بحدل. وهو منسوب الى سعيد بن مالك بن بحدل. وكان ولي امرة قنسرين والجزيرة في أيام يزيد بن معاوية فأقطعه اياها. وهو اليوم زرائب للبهائم وحواصل للغلات وبيوت للفلاحين.

دير بشر: كان شرقي سبينة الشرقية. واسم قناته مشهورة وتمر من حوش بلاس. ينسب الى بشر بن مروان. وبين حجيرا

وسبينة اليوم مزرعة يُقال لها مزرعة بشر. وقد حدد موقعه في كتاب وقف سيف الدين الرجيحي. ويؤخذ من كتاب التمهيد أن دير بشر كان في القرن السابع عامراً.

دير بولس، ودير بطرس: كانا ظاهر دمشق في نواحي بني حنيفة، لا يبعد أحدهما عن الآخر كثيراً. وايّاهما عنى جرير بقوله:

لما تذكرت (بالديرين) أرّقني ... صوتُ الدجاج وقرعٌ بالنواقيس
فقلتُ للركب اذجَدَّ الرحيل بنا ... يابعد يبرين من باب الفراديس[1]

وقال ابن قتيبة في الشعر والشعراء انه أراد بالديرين دير الوليد فثنى وهو دير مشهور.

دير حرملة: يقول ابن عساكر انه كان عند دير البقر بدمشق ديران أحدهما لخالد بن الوليد أقطعه اياه أبو عبيدة والآخر لأخيه حرملة بن الوليد، مع قرية بالغوطة تعرف بدير حرملة، بعد أن كاتب أبو عبيدة فيها عمر فأذن له. وربما كان هذا الدير في أرض جوبر عند مزار يقال له اليوم سيدي حرملة.

(١) يبرين موضع في الأحساء من جزيرة العرب. والفراديس محلة العمارة اليوم. كان فيها قصور الأعيان وقد خربت في فتنة القرامطة سنة ٣٦٣. ويقول ابن القلانسي انه كان فيها من البنيان الرفيع في الحسن والبهاء ما لم ير مثله وهو أحسن مكان بظاهر دمشق.

دير الحكيم : (راجع مقرى فصل القرى الدائرة) .

دير الحميري : كان بين حمورية وعربيل ، لم يبق الا اسمه .

دير الحنابلة : بسفح قاسيون غربي المدرسة العمرية . وكان للحنابلة الذين أنشأوا الصالحية في القرن السادس . وسكنوا أيضاً في دير الحوراني ودير الرهبان . كما ذكر ابن كنان في المروج السندسية .

دير حنينا : من أديرة الغوطة . وقد ورد ذكره في قصيدة لابن العجمي الحلبي المتوفى سنة ٦٥٦ ذكرها ابن شاكر الكتبي في قوله :

واعبر بدير حنينا وانتهز فرص الـ ... لذات ما بين قسيس ومطران

دير خالد : نزل فيه خالد بن الوليد عند حصاره دمشق فسمي باسمه . وكان مقابل باب الفراديس . ويسمى أيضاً دير صليبا ودير السائمة . وهو في موضع نزه كثير البساتين ، وبناؤه حسن عجيب . والى جانبه دير للنساء فيه رواهب ورهبان . وذكروا أن أبيات جرير : اذا تذكرت بالديرين .... هي فيه . وقد مرت هذه الأبيات في (دير بولس) . وفيه يقول أبو الفتح المعروف بأبي البقاء من أبيات :

جئته للمقام يوماً ، فظلنا ... فيه شهراً ، وكان أمراً عجيبا
شجر محدق به ومياهٌ ... جاريات والروض يبدو ضروبا

من بديع الألوان يضحى به ... الناكل مما يرى لديه طروبا
وشربنا به الحياة مداماً ... تطلع الشمس في الكؤوس غروبا
فكأن الظلام فيها نهار ... لسناها تسر منا القلوبا
لست أنسى مامرَّ فيه ولا أجـ ... ـعل مدحي الاَّ لدير صليبا

ومنذ القرن الثامن ما كان لهذا الدير عين ولا أثر . ويذكر ابن فضل الله العمري أنه صار دوراً وأبنية ومساجد ومدافن .

دير خليل : في اقليم بيت الآبار قرب المنيحة ، لا أثر له .

دير داريا : ذكروا أنه كان من البناء الأزلي ، وكان فيه أحجار ضخمة ، قطعوا منها وعمروا بعض أماكن من الجامع الأموي بدمشق لما احترق أوائل هذا القرن .

دير سابر : من اقليم حرلان كان يسكنه عتبة بن معاوية .

دير سمعان : يقول القرماني انه من قرى الغوطة . وأنه كان خراباً في القرن الحادي عشر . وارتأى دهمان أنه شمال التربة المعظميَّة شرق دير مرّان بالصالحية .

دير ابن عصرون : ورد ذكره في ثبت املاك تنكز المنشور في فوات الوفيات . وقال ابن طولون ان الدوير يقال لها دير ابن عصرون . وهي قرية صغيرة في لحف الجبل .

دير قيس : في اقليم خولان سكنه خالد بن سعيد بن أبي محمد الأموي

دير اللباد (في رواية اللبان) : دير قديم مسكون ، كان بين دمشق وبيت أبيات .

دير مار الياس : ذكر عبد الرحمن بن خطيب داريا هذا الدير من قصيدة مطلعها :

هات اسقني الكأس يامؤنسي على بساط الورد والنرجس
فالوقت قد رقّ وراق الهوى وجاد بالوصل الزمان المسي

الى أن يقول :

هذا هو العيش ومن لي به في دير مار الياس أو بطرس
رهبان دير طيب أخلاقهم أصفى من الراح لمستأنس
أكثر ألفاظهم اشربْ فلا تسمع قول اقرأ ولا درّس

دير الماطرون : في ابن عساكر الميطرون وأنه قرب بيت لهيا بينها وبين عين ثرما . وأنشدوا في الماطرون قول يزيد بن معاوية : (١)

آب هذا الهم فاكتئما وأمرّ النوم فامتنعا
جالساً للنجم أرقبها فاذا ما كوكب طلعا
ولها بالماطرون اذا أكل النمل الذي جمعا
خرفة حتى اذا ربعت ذكرت من جلق بيعا
في قباب حول دسكرة بينها الزيتون قد يفعا

(١) انظر انساب الأشراف ج ٤ قسم ٢ ص ٢ .

استشهد بهذه الأبيات ياقوت في مادة الماطرون وذكر أيضاً دير الماطرون وأورد أبياتاً قديمة قرأها حمزة بن القاسم على حائط بستان الماطرون ولا ندري هل نسب الدير الى الماطرون القرية أم كلتاهما واحد .

دير محمد : كان محمد من أحاسن بني أمية . وكان عمر بن عبد العزيز يراه أهلاً للخلافة . واليه تنسب المحمديات فوق أرزة . ودير محمد عند المنيحة من اقليم بيت الآبار في أرض جرمانا اليوم .

دير مرّان : يقول البكري ان عقبة مرّان مشرفة على غوطة دمشق تنبت شجراً باسقاً ، تتخذ منه القنا والرماح وهو المران . ولعل الدير سمي باسم هذه الشجرة . وهو في سفح جبل قاسيون المطل على دمشق من الغرب . كان يُشرف على مزارع الزعفران من أرض اللوّان . وبقي هذا الدير عامراً الى القرن السابع . وكان مقصد الخلفاء والأمراء والشعراء . وقيلت فيه القصائد والمقطوعات . ولكشاجم فيه قصيدة مطلعها :

محاسن الدير تسبيحي وتصباحي .

وفيها يقول :

أقمتُ فيه الى أن صار هيكله بيتي ومفتاحه للانس مفتاحي
منادماً في قلاليه رهابنة صارت خلائقهم أصفى من الراح

وذكروا أن بناء هذا الدير كان بالجص الأبيض ، وأكثر فرشه بالبلاط الملون وكان في هيكله صورة عجيبة دقيقة المعاني، وكانت قلاليه دائرة به ، وأشجاره متراكبة ، وماؤه متدفقاً .

ولما وافى المأمون دمشق سنة خمس عشرة ومائتين نزل بدير مران ومكانه معروف بالسهم قرب النيرب في السفح فعمر هذا الدير وبنى القبة التي فوق الجبل ، ولما أرسل الواثق العباسي رجاءً لتأديب العصاة من أهل الغوطة نزل أيضاً دير مرّان . ونزل به كثيرون من الأمراء .

وقال الصنوبري فيه :

أمرُّ بدير مران فأحيا ... وأجعل بيت لهوي بيت لهيا
صفت دنيا دمشق لمصطفيها ... فليس يريد غير دمشق دنيا

ولابي الفرج عبد الواحد الببغا من شعراء اليتيمة قصيدة في دير مرّان ، يقول فيها :

ويوم كأن الدهر سامحني به ... فصار اسمه ما بيننا هبة الدهر
جرت فيه أفراس الصبا بارتياضنا ... الى دير مران المعظم والعمر
بحيث هواء الغوطتين معطر الـ ... نسيم بأنفاس الرياحين والزهر
فمن روضة بالحسن ترفد روضة ... ومن نهر بالفيض يجري الى نهر

وفي الهيكل المعمور منه انتزعتُها ... وصحبي حلالاً بعد توفية المهر
ونزهتُ عن غير الدنانير قدرها ... فما زلتُ أشرب التبر بالتبر

ومكان الدير اليوم معروف يُشرف على الربوة . وفيه بقايا آثار تدل عليه .

دير متى : هذا الدير ودير حنينا ودير مرّان من الأديار التي قال فيها عون الدين الحلبي من أهل القرن السابع :

ان جزت بالشام ثمّ تلك البروق ولا
تعدل ، بلغت المنى ، عن دير مرّان

الى أن يقول :

وعُجْ على دير متى ثم حيّ به الر ... بان بالطرس فالريان رباني

ثم قال :

واعبر بدير حنينا وانتهز فرصا ... لذات ما بين قسيس ومطران

دير النواطير : قيل انه قرب قرية بيت رانس (ارانس) وهو داثر .

دير هند : من اقليم بيت الابار .

دير ينّة : على مقربة من سبينة الغربية . ورد ذكره في كتاب وقف سيف الدين الرجيحي .

دير يونا (يوحنا) : قالوا انه كان بجانب الغوطة ، ليس بكبير

ولا رهبانه بكثير وهو من أقدم ديرة النصارى بُني بعد المسيح بقليل .
اجتاز به الوليد بن يزيد فأقام به أياماً وقال فيه :

حبَّذا ليلتي بدير يونَا حيث نسقى شرابه ونُغنّى
كيف ما دارت الزجاجة درنا يحسب الجاهلون أنّا جُنّنا
ومررنا بنسوة عَطِرات وغناء وقهوة فنزلنا
وجعلنا خليفة الله فطرو س مجوناً والمستشار يُحنا
فأخذنا قربانهم ثم كَفَّر نا لصلبان ديرهم فكفرنا
واستهنّا بالناس فيما يقولو ن اذا خُبروا بما قد فعلنا

قال ابن فضل الله : وهذا الدير اليوم (القرن الثامن) لا وجود له ، قد أقفرت الأرض من رسم وطلل .

الفصل الثاني والعشرون

وحي الغوطة

أتى لي في الغوطة سبع وستون سنة ، تسامني الطفولة الى الشباب ، والشباب الى الكهولة ، والكهولة الى الشيخوخة ، ولاقيت ربيعها وصيفها وخريفها وشتاءها وما لقيت منها الاّ نضرةً وسروراً .

أنعشني هواؤها ، وأدهشتني أرضها وسماؤها ، وما فتئت منذ وعيت أقرأ في صفحة وجهها الفتان آيات الابداع والاعجاز .

في ربوعها شهدت الطبيعة تقسو وتلين ، وتغضب وترضى ، وتشح وتسمح ، فراعني جمالها وجلالها ، وشاقني تزيدها وتزانها .

نشقت أنفاس رياها وهي ترفل في زهرها ووردها ، واستهوتني مجردة من ورقها وثمرها ونباتها ، فأُخِذت بها كاسية عارية ، وطابت لي مُطَيِّبة ونَفِلة .

تربة تقبل وتمحل ، وأدواح تعقم وتثمر ، وجداول تفور وتغور ، وآبار تفيض وتغيض ، وجو يغيم ويصحو ، ودوّ يعبس ويضحك . وهناك هناء ، وهناك يسر ، وهناك شقاء ، وهناك عسر .

أتى الجراد غير مرة على زرعها وثمرها ، وسطت الحشرات على

خضرها وشجرها ، وأحرق الصقيع حبوبها وفاكهتها ، وعدا المَوتان على دواجنها وماشيتها ، وطغى الماء على أدنى بقاعها فأودى بما أنبتت وبسقت، وعادت هذه الأم الرؤم تدرُّ على أبنائها لبناً طيباً ، وتفيض عليهم من عطفها وحنانها كل جميل .

عهدي بها ودمن عشرات المزارع الخربة بما توالى عليها من نكبات الزلازل والسيول والأوبئة والمجاعات الى جانب ألوف الأفدنة تصبح بالذؤوب حدائق غُلباً ، وكانت بالأمس بين مستنقع وبيل ، ومرج أفيح . في الغوطة قرى كبيرة تداعت ، وقرى كبيرة لم يعف رسمها ، وفيها أشجار لا تعيش غير بضع سنين ، وأخرى مباركة يحسب عمرها بالقرون .

عمت بسِحرها في سَحَرها ، وبشمسها تأفل وراء شجرها ، ورافي ظلها وظَلّها ، وندّاها وضبابها ، وجليدها وجمدها ، وثلجها وبَرَدها ، ودمقها وزمهريرها ، ونسيمها وأعاصيرها .

غنتني طيورها بأطيب الأنغام ، ترددها من وُكناتها في جنّاتها ، وما تبرّمت الأذن بنعيق البوم ، ونعيب الغربان ، وعواء بنات آوى ، ونباح الكلاب ، ونقيق الضفادع في المظلم والمقمر من لياليها ، واهتزت للديكة تصيح ، والغنم تثأج ، والمعيز تثغو ، والبقر يخور ، والخيل تصهل ، والحمير تنهق .

أقبلت مرة أُقلب حديقة لنا أُنقي أدغالها ، وأعزل صخورها وأحجارها ، فنبشت على ذراعين من سطحها مقبرة فيها قليل من عظام نخرة ، وكثير من خواتم وأقراط وأساور ودمالج ، كانت فضتها وذهبها ونحاسها وحديدها وزجاجها تتفتت لساعتها بأيدينا .

وما فرّقنا بين الرجل والمرأة من نزلاء مدينة الموتى ، وما بان معنا الشاب من الفتاة ، ولا الشيوخ من العجائز ، ولا اذا كان من لحدوا فيها مجوساً أو صابئة أو نصارى أو مسلمين ، ولا أن كانوا من العرب أو السريان أو اليهود أو الروم ، وغاية ما نمّ عليه ذاك العظم الرميم أنه بقايا أشلاء بشرية كان أربابها يهيجون ويسكنون ، ويلؤمون ويبرون ، ويشقون ويسعدون .

وأبصرت على خطى قليلة من المدفن أثر حوض بديع شيد بالآجر والحجر النحيت يظهر من ترخيمه أنه بناء بانٍ صناع اليد ، وانتهيت الى دِمَاس عميق فيه جرار عظيمة ، وأدوات نشأت من مدنية كانت بنت هذه التربة الزكية ، نَعم بها أهلها ما قدر لهم أن ينعموا ، فلما ناداهم حادي الرحيل تخلوا عن مصانعهم ومرافقهم ، وغادروا ديارهم كأن لم يَغْنَوا فيها .

أدركت أجيالاً ثلاثة من الناس ، وقبلي رأى الراؤون ألوف ألوف الألوف ، وكلهم كان شأنهم شأننا خلقوا على صورتنا ،

وركبت فيهم أحاسيسنا وغرائزنا ، واستحكمت فيهم الشهوات والمطامع ، وكانت لهم آمال وأحلام ، نزح صالحهم وطالحهم ، وراح لطيفهم وكثيفهم ، وما عرفوا لِمَ جاؤا ولا الى أين ذهبوا ، ولم جَدّوا وجهدوا ، ولم انصرفوا على ألا يرجعوا ، أما أجسامهم فقد نخرت وتبخرت ، وتبعثرت ذراتها في الفضاء ، وأما أرواحهم فانتقلت الى عالم لم ندركه بالحس ، ولا قدّر معنا بحساب ، وما علمنا عنه الا ما أشار اليه الكتاب .

ذهب من درجوا على هذا الصعيد الطيب ، تاركين ما كدحوا وجمعوا ، ناسين من أحبوا وأبغضوا ، وما حال دون قفولهم عطف الأمهات والزوجات ، ولا بكاء الأولاد والأخوات . هلك الفقير والغني ، والصحيح والمريض والحبيب والبغيض ، وناح النساء على الأعزة الذاهبين يندبن ويولولن ، ثم لحق النائحات والنوادب بالصحاب والصواحب .

* * *

حقاً ان الغوطة كانت على الأيام ساحة تحوّل ، تحولت فيها حتى أزياء الجنسين من سكانها ، فغيّر الرجال في هذه الحقبة لباس رؤوسهم ثلاث مرات ، وكذلك كان دأب النساء بملاءآتهن . شاطرت القوم أفراحهم وأتراحهم ، وكاثرتهم في مواسمهم

وأعيادهم ، ورأيتهم يلبسون الخَلَق البالي ، ورأيتهم يلبسون الزّواق الحرير ، شاهدتهم يطعمون أطيب الطعام وأمرأه ، وشاهدتهم لا يشبعون خبز الذرة والشعير ، راقبتهم في سكونهم وهوشاتهم ، وفي تلاتلهم ومشاكلهم ، وفي سعتهم وضيقهم ، وعاشرتهم وسامرتهم ، على نقص محسوس في تربيتهم .

أدركتهم يستعيضون عن اللبن والطين والقصب والكلس في بنيانهم بالقرميد والآجر والحجر والاسمنت ، وعهدتهم يمتطون العُرْه من الخيل والبغال والحمير ، ويحملون أثقالهم على الجمال ويجرونها بالثيران ، ثم اتخذوا المركبات والعجلات وركبوا الدراجات والسيارات .

أدركتهم تبيض الأمية وتفرخ في رؤوسهم ، ويعم الجهل كبيرهم وصغيرهم وذكورهم وأناثهم ، وما كانت عقول الأذكياء منهم تصل الى أبعد من القرى المجاورة ، واغتبطت أن صار بضعة في الألف من شبانهم وكهولهم يتلون الصحف والكتب ، ويستطلعون طلع الأخبار ، ويَعنيهم النظر في المصالح العامة ، ويظهرون في مظهر من يحاول مجاراة الزمن في حضارته ، يستبدلون الأدوات الحديثة في الحرث والتذرية والعصر والاستخراج بأدواتهم القديمة التي جمدت على حالة واحدة لم تبدل من عهد عاد وثمود ،

وكل ذلك ببطء وتثاقل ليناسب اقتباسها قانون الزروع، والغراس عندهم تنمو بحرارة معتدلة، واذا سقيت سقيت بمقدار .

اقليم تتصادم عناصر الطبيعة فيه بلا انقطاع، الفناء رابض أبداً الى جانب البقاء، والتبدل والتلون على قيد غلوة من الاستقرار . عاينت كل هذا فرجعت بمناظر متشاكلة لا تزال تتكرر على مر الجديدين لم أهتد سبيلاً الى تعليلها . ولا أدركت ولا أدرك أرباب المدارك هذا السر الدفين في صدر الليل والنهار .

هنا يبدو للعين كفاح الغوطي في كسبه ورزقه، وصراعه في سبيل شهواته وأثرته، هنا تلمح جور القوي على الضعيف، وأن الانسان في هذه الأرجاء كان، على نحو ما هو في كل مكان، ظالماً ومظلوماً، وقاتلاً ومقتولاً، وعزيزاً وذليلاً .

لحظت ابن الغوطة موسعاً عليه، ولاحظته مقتراً عليه . عهدته مرهقاً بضروب الجبايات، وألفيته يؤدي الجباية طيبة بها نفسه . وأدركت الفقير ينوء بحمل كل عبء، والغني يكاد يعفي نفسه من أداء كل حق .

وجدت الفلاح لا ينسل القدر اللازم من الأولاد يستعين بهم على استخراج خيرات حقوله، ولقيته وقد زاد السكان ستة أضعاف في ستة عقود، واذا بأرباب الضياع تضيق بهم رباعهم، فلا يجزئهم

ريْعُ ما يملكون، وعادوا يقتنون الأرض بالثمن الغالي ويغلون في الغرام بها، وهم الذين كانوا يحاذرون امتلاك شبر من ترابها فراراً من المغارم والعوارض .

❀ ❀ ❀

حزنت على الغوطي عبداً، وفرحت له حراً، آلمني عبوسه وتشاؤمه، وسرني ضحكه واستبشاره . كان يرمضني كلما وقعت عيني عليه يسخّر كالبهائم، ويُقنَّع بالسياط، ويلطم ويلكم، وهو صابر خانع . ثم ابتهجت به يوم نفس خناقه، وعومل معاملة الانسان، أما هو فلم ينشب أن نسي ما كان يحل به، وعاد يتمرد ويطغى .

نظرت اليه يتهافت على تجويد زراعته، ونظرته يهمل اثارة تربته، ويزهد في رعية ماشيته، طالعته يحيي الليالي لا يبالي أذى البرد اذا كان في سقي زرعه وجمع حبه وثمره، وطالعته في حمارة القيظ يكد وسط حقله في حرّ يزهق الأنفاس، وهو جدّ طروب كأنه في مجلس أنس يلذه ما يسمع ويرى .

وسجلت أن ضواري الغوطة لا تستشري، والشرّ في ارجائها محكوم عليه بالزوال، ثبت لي هذا بعد أن رأيت ثعالبها وضباعها

توشك أن تبيد ، وبعد أن أيقنت أن كواسرها وجوارحها أقل من عصافيرها وحمامها . وقيدت من أخبار الغوطة أنها مُنْعِمَة محسنة على وجه الدهر ، وأن بنيها أصحاب مضاء يَعُدون لكل يوم قسطه من العمل ، ويقسمون جهودهم أقساماً بحسب المواسم ، على ما قسمت الفطرة سنتهم الى فصول ، استوفى فيها كل فصل حكمه ، وأن في أرضهم المحبوبة كمعظم بلاد العرب قوى منظمة مستثمرة ، الى جنب قوى ضائعة منتشرة .

مستدركات

يضاف الى الفصل التاسع عشر (القرى الدائرة) ما يأتي :

كان في الغوطة عدة قرى تبدأ ببيت . ولعلهم كانوا يعنون بالبيت القصر فكان فيها بيت لهيا وبيت سابر (سابا) وبيت ارانس (رانس) وبيت وانه وبيت والي وبيت أبيات وبيت الآبار وبيت البلاط او البلاطة وكلها مما دثر . وفي الغوطة لعهدنا بيت سوا وبيت سحم وبيت قوفا .

وكان في الغوطة قرى يبدأ اسمها بفندق كما كان فيها قرى تبدأ بكفر وطيرة ، والفندق كقنفذ كما في التاج بلغة أهل الشام الخان السبيل من هذه الخانات التي ينزلها الناس مما يكون في الطريق او المدائن . وكان امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز من أول الخلفاء الذين اتخذوا الخانات للمسافرين كما اتخذ دور الضيافة للواردين .

ومن فنادق الغوطة فندق الفارفي وفندق الراهب أو بني الراهب ، كان قبلي المصلى عن يسار المار بالمسجد الجديد مسجد أبي القلوس في ميدان الحصا وفندق بني عبد المطلب خارج باب الجابية وفندق ابن العبادة . وقد ورد اسم الفندقي نسبة للفندق او صاحبه أو مديره في كتب التاريخ . وقد نسي مع الزمن اسم الفندق واستعيض عنه باسم الخان ثم غلب اسم النزل والجمع أنزال (اوتيل ج اوتيلات) .

الفنيدق : بالتصغير ، او خربة الفنيدق تابعة لصحنايا .

البرج : في معجم البلدان : البرج موضع بدمشق هكذا قال خليفة بن قاسم وليس يعرف الآن ولعله قد كان ودرس ، ينسب اليه ابو محمد عبد الله بن سلمة البرجي الدمشقي .

بستان الناعمة : من بيت لهيا ما زال معروفاً وهو قسيم بستان الجرن بينها الجادة في أرض الصالحية على ما قال أحد فلاحي ذاك الجوار .

الدارة : كل أرض واسعة بين الجبال ودويرة تصغيرها .

الدراجية : او برج الدراجية على باب نوماء وكان لعبد الرحمن أو لعبد الله ابن دراج مولى معاوية بن أبي سفيان وكان على الرسائل في خلافته . والبرج الحصن ولا يبعد ان يكون في الغوطة عدة أبراج في الأيام الغابرة .

الدوّاسة : أرض في الربوة ربوة دمشق فيها بقايا آثار قديمة وعمران ينبيء عن قدم وفخامة ، وفي مخطط دهمان انها قصر خمارويه ـ من ملوك الطولونيين .

العصرونية : ربما كانت قرية مجاورة للبلد بقي اسم قناتها التي تنبع من أرض الميدان وتجتاز أرض الشاغور وتسقي أرض يلدا .

علية : موقع من مواقع حرستا البصل ربما كانت قرية .

العُوينة : تصغير عين من أرض حرستا وفيها دمن يظن أنها بقايا قرية . وهناك عوينة القصارين ولعلها التي عرفت مؤخراً بعين القصارين تحت مدرسة التجهيز في الشرف الأعلى ثم طمت ودخلت في حدائق ذاك الشرف . ومن العوينات عوينة الحمى يحتمل أن تكون بكسر الحاء وهي الحي والمنزل وبضم الحاء وتشديد الميم لان ماءها يشفى من الحمى .

ماذنة : من خرائب قرية القدم .

السموقة : في الدارس ان من الموقوف على مدرسة الاقبالية الضيعة المعروفة بالسموقة .

سوسبة : اسم جدول ماء بين سقبا وحمورية ولا يبعد أن يكون جدولاً يسقي قرية بعينها .

الراهب : محلة كانت قبلي المصلى لسعيد بن عبد الملك .

مفترجات دمشق : يقول الظاهري : وأما الميدان الاخضر وما به من القصور الحسنة فعجيبة من العجائب . واما مفترجات دمشق فيعجز الواصف عن حصرها

من جملتها الجبهة والربوة والعاشق والمعشوق وبين النهرين وتحت الطارمة والتخوت والمقاسم والوادي الفوقاني والتحتاني والصالحية والسبعة والعنابة

زراعة الضحاك : الزراعة المزرعة ، ولا يعرف من هذا الضحاك وقد ترجم ابن عساكر لكثير ممن اسمهم الضحاك ومنهم الضحاك بن رمل السكسكي المحدث من أهل بيت لهيا والضحاك بن يزيد السكسكي المحدث أيضاً . وهذه المزرعة شرقي جوبر قال عمرو بن محلاة الكلبي يخاطب بني أمية ويذكر مقامات قومه في حروبهم :

ضربنا لكم عن منبر الملك أهله ... بجيرون اذ لا تستطيعون منبرا
وأيام صدق كلها قد علمتم ... نصرنا ويوم المرج نصراً مؤازرا
فلا تنكروا حُسنى مضت من بلائنا(١) ... ولا تمنحونا بعد لين تجبرا
فكم من أمير قبل مروان وابنه ... كشفنا غباء الجهل(٢) عنه فأبصرا
ومستلئم نفسن عنه وقد بدت ... نواجذه حتى أهلّ وكبّرا
اذا افتخر القيسي فاذكر بلاءه ... بزراعة الضحاك شرقي جوبرا
فما كان في قيس من ابن خليفة ... يعدّ ولكن كلهم نهب أشقرا

بسطرا وعذرون وباقطايا : ثلاث مزارع تابعة حرستا الزيتون ، ورد ذكرها في محضر كتب سنة ٦١٨ في عدادين ماء نهر ثورا (راجع خطط دمشق الأستاذ المنجد . ص ٣٢)

كفر مدير : هكذا وردت في محضر ماء ثورا السابق وكان تاريخه الاخير سنة ٩٠١ وكفر مدير الغالب أنها قرية مديرة او مديرى بعينها .

غيضة جسرين : ذكر الدويهي في حوادث سنة ٧١٦ هـ ان نائب السلطان تنكز خرج لعمل غيضة جسرين المعروفة بغيضة السلطان وجمعوا جميع الامراء

(١) في معجم الشعراء : فلا تكفروا نعمى مضت من بلائنا .
(٢) رواية الحماسة : كشفنا غطاء الغم عنه فأبصرا .

المقدمين والجند واستعملوا فيها أهل تلك القرى التي حولها وأقاموا هناك خمسة أيام يقلعون القرامي العتيقة وينزعون العليق منها .

الجسورة : موضع بظاهر دمشق (من تعليقات النجوم الزاهرة) .

ممن ذكرهم ابن عساكر في حوادث سنة ٣٢٤ الحسن بن يعقوب الطرميسي مولى الحسن بن علي من المحدثين توفي في قرية طرميس (ترميس لعهدنا) .

المحمديات : في مخطط دهمان انها بستان فيه طاحونة العثمانية .

ارض عتيق : فوق اوزة من بيت لهيا .

ارض داريا : من توابع ارض حزة .

ارض المزرعة : وتعرف قديماً بالخواجكي الزيني بقرية عقرباء .

المزرعة الكبرى : وتعرف قديماً بجاني بك الحلبي بقرية البلاط .

المزرعة الصغرى : عرفت بالسيفي جاني بك .

وهذه المزارع الثلاث الأخيرة ورد ذكرها في صك وقف قجماس الاسحاقي المحفوظة في خزانة دار الآثار بدمشق .

* * *

في أخبار فتنة أبي الهيذام (١٧٦ هـ) ان اليمانيين انهزموا فصاروا الى حصون أربعة في خولان ففتح خزيم حصناً في يومه . مما دل على أنه كان في بعض أرجاء الغوطة حصون وان كانت الغوطة غنية باشجارها عن الحصون . وسألنا بعض أعيان الديرانيين عن هذه الحصون فلم يعرفوا لها أثراً .

* * *

من مظاهر مدنية الغوطة تعدد حماماتها فقد كان فيها حمامات في النيرب حمام وبالربوة حمام وخمس حمامات في السهم وبالمزة حمامان وبالصالحية ستة عشر حماماً وبالقابون الفوقاني حمامان وبالقابون التحتاني حمامان وربما كان في بعض القرى حمامات وهي اليوم خالية منها .

* * *

تبدلت أسماء بعض الانهار في الغوطة وبعضها ما زال باقياً كما كان على عهد ابن عساكر . فنهر قبنية ونهر المجدول (العقربانى على الاكثر)

ونهر الصبورة اي نهر الزلف ونهر التومة العليا ونهر التومة السفلى فهذه الاسماء غير معروفة لعهدنا . ومن نورا يتفرع فرع يسمى مقسم الثلث يسقي أراضي حزة وزملكا وعربيل وعين ترماء ومديرى ومسرابا ودومة الخ . ويستمد نهر الميلقون من نهر الداراني ومن هذه أيضاً يستمد نهر الشرك . ولعل التوتة ـ العليا والسفلى ـ كانتا قريتين مثل القابون الفوقاني والقابون التحتاني .

* * *

يُضاف الى فصل العلم والأدب (الفصل الرابع عشر) مايلي :

قال الشيخ عبد الغني النابلسي عالم دمشق وأديبها في القرن الثاني عشر عند كلامه على داريا أيام مروره بها سنة ١١٠١ ، قاصداً القدس « وحضر عندنا من أهل القرية جماعة يحفظون القرآن العظيم ، وجماعة يطالعون في تفسيره للجلالين ؛ فعلمنا أن هذا الامر من إنعام الله تعالى عليهم حيث جُعل فيهم دون غيرهم من أهل القرى في مثل هذا الزمان . وإلا فلعمري كم خرج من قرية داريا من عالم عامل ، وكذلك قرية المزة وغيرها من قرى دمشق ولكن الاشتغال بأمور الفلايح أقعد همم أهل القرى عن تحصيل الكمالات لظلم الحكام . وقد رأينا غالب من يعرف القراءة منهم معه تفسير الجلالين ، واذا سألته عن آية أجابك منه بما تقرّ به العين » .

(الرحلة القدسية . مخطوطة الظاهرية ٦٨٤٤)

* * *

يضاف الى فصل الديورة دير تاودورس كان في أرض النيرب .

خاتمة

هـذا ما تيسر تدوينـه في غوطة دمشق ورجائي الا يخليني العارفون من ملاحظاتهم لأضيفها الى الطبعة الثانية . وهنا اشكر لصديقي الاستاذ المحقق صلاح الدين المنجد على تفضله بمعاونتي على قراءة تجارب الطبع وتكرمه ببعض ما حوته تقاييده من المواد . وعلى وضعه فهارس الكتاب ليتقرب منال الانتفاع به على القارىء .

الفهارس

١ – فهرس القرى العامرة في أيامنا
٢ – » اللغات والأديان والمذاهب
٣ – » القبائل
٤ – » الأنهار والقني والعيون
٥ – » الأزهار
٦ – » الثمار والزروع
٧ – » المنتوجات
٨ – » المشافي والمصانع والمعامل
٩ – » متنزهات الغوطة
١٠ – » القرى الدائرة والمزارع والخرائب
١١ – » المدارس والخوانق والربط والزوايا والتكايا
١٢ – » الأديار
١٣ – » القصور
١٤ – » الأعلام
١٥ – فهرست عام

١ - قرى الغوطة العامرة في أيامنا

الاشرفية ١٦ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٣ ،
٩٣ ، ٩٦ ، ٢١٦
افتريس ٢١ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٨٩ ،
٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٦ ، ٢٠٨ ،
٢١٠ ، ٢١٦ ، ٢٣٥
بالا ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٩٠ ،
٩٦ ، ١٠٦
بيلا ٢٢ ، ٣٥ ، ٤٧ ، ٨٨ ،
٩٠ ، ١٢٥ ، ١٦٣ ،
١٨٠ ، ٢١٨
برزة ١٢ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ،
٢٤ ، ٥٤ ، ٨٨ ، ٩٦ ،
١٢٥ ، ١٤٥ ، ١٨٠ ،
٢١٢ ، ٢٢١ ، ٢٣٥ ،
بلاس ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٩٦ ،
١٢٥ ، ١٨٦ ، ٢٣٦
البلاط ٢٢ ، ٢٤ ، ٥٦ ، ٨٩ ،
١٤٤ ، ٢٠٤ ، ٢٥٣ ، ٢٥٧
البويضاء ٢٣ ، ٢٤ ، ٩٦
بيت سحم ٢٢ ، ٨٩
بيت سوا ٢١ ، ٢٣ ، ٨٩ ، ٩٥ ،
١٤٥ ، ١٨٥ ، ٢١٠ ، ٢٢٥ ،
٢٥٣
جرمانا ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٤ ،
٢٥ ، ٣٣ ، ٤٧ ، ٦٢ ،
٧٨ ، ٨٩ ، ١٢٥ ، ١٦٣ ،
١٨٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ،
٢٠٥ ، ٢٣٥ ، ٢٤١
جسرين ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ،
٢٥ ، ٥١ ، ٥٥ ، ٦١ ،
٦٣ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ٨٩ ،
٩٠ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٣ ،
١٤٤ ، ١٦٣ ، ١٨٧ ،
١٨٨ ، ٢١٠ ، ٢١٤ ،
٢١٨ ، ٢٢١ ، ٢٣٥ ،
٢٥٥
جوبر ٢١ ، ٢٥ ، ٣٣ ، ٤٧ ،
٥٥ ، ٧٦ ، ٩٥ ، ١٢٥ ،
١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٨٠ ،
١٩٣ ، ١٩٩ ، ٢٠٧ ،
٢١٥ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ،
٢٣٥ ، ٢٥٥
حجيرة ٢٢ ، ٢٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ،
٩٦ ، ١٤٥ ، ١٨٥ ،
٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢٣٦

حديثة ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٤ ،
٥١ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٦ ،
١٠٦ ، ١٦٣ ، ٢٠٦ ،
٢٣٥
حرستا ٢١ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٤٧ ،
٥٥ ، ٨٨ ، ٩٥ ، ١٤١ ،
١٦٣ ، ٢٠٧ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥
حزة ٢٢ ، ٢٤ ، ٩٥ ، ١٨٠ ،
٢٠١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ،
٢٢٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧
حمورية ١٢ ، ٢١ ، ٢٥ ، ٨٩ ،
٩٥ ، ١٢٥ ، ١٦٣ ،
١٨٠ ، ١٨٥ ، ٢٠٣ ،
٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢٢٥ ،
٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢٥٤
حوش الريحانية ١٦ ، ٢٢ ، ٨٨ ،
٩٦ ، ٢١٧
الخيارة ٢٢ ، ٢٤ ، ٩٥
داريا ١٦ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٣٢ ،
٤٧ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ،
٦٣ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٦ ،
١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٣٤ ،
١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ،
١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ،
١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٨٠ ،
١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٩٣ ،
١٩٤ ، ٢٠١ ، ٢٠٩ ،
٢١٠ ، ٢١٥ ، ٢١٩ ،
٢٢٠ ، ٢٢٨ ، ٢٣١ ،
٢٣٣ ، ٢٣٩ ، ٢٥٧
دومة ٢١ ، ٢٣ ، ٣٣ ، ٤٧ ،
٥٥ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ،
٩٥ ، ١٠٦ ، ١٤٥ ،
١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٨٠ ،
١٨٥ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ،
٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٦ ،
٢٢٦ ، ٢٥٦
دير مجدل ٢٢ ، ٩٥ ، ٢٣٦
راوية ٥٦ ، ١٨٦ ، ٢١٢
وانظر أيضاً قبر الست
زبدين ١٥ ، ٢٢ ، ٧٨ ، ٨٩ ،
٩٠ ، ٩٦ ، ١٤٤ ، ١٦٣ ،
٢٠١ ، ٢١٢ ، ٢٢١ ،
٢٣٥
زملكا ٢٢ ، ٥٥ ، ٩٥ ، ١٠١ ،
١٠٢ ، ١٢٦ ، ١٤٠ ،
١٤٢ ، ١٦٣ ، ١٨٥ ،
١٩٣ ، ٢٠٧ ، ٢١٢ ،
٢٥٧
سبينة ١٦ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٩٦ ،

٢١٠ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧
سبينات ٢٢ ، ٩٦ ، ٢٤٣
سقبا ٢١ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٥٥ ،
٨٩ ، ٩٥ ، ١٢٥ ، ١٦٣ ،
١٨٠ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ،
١٩٣ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ ،
٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢٥٤
صحنايا ١٦ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٣٣ ،
٤٧ ، ٩٣
عربيل ٢١ ، ٢٤ ، ٣٣ ، ٤٧ ،
٥٥ ، ٧٨ ، ٩٠ ، ١٤٦ ،
١٦٣ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ،
٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٩ ،
٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ،
٢٣٨ ، ٢٥٦
عقربا ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٤٧ ،
٥٥ ، ٥٦ ، ٨٩ ، ٩٥ ،
١٦٣ ، ٢٠٤
عين ترما ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٥٥ ،
٨٩ ، ٩٥ ، ١٢٦ ، ١٤٥ ،
٢٠١ ، ٢٢٥ ، ٢٤٠ ، ٢٥٦
القابون ٢١ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٥٤ ،
٨٨ ، ٨٩ ، ٩٥ ، ١٦٥ ،
١٨٠ ، ١٩٤ ، ٢٠١ ،
٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٥٦
قبر الست ٢٢ ، ٥٥ ، ٩٦ ، ٢٠٥ ،
٢١٧
القدم ٢٣ ، ٢٤ ، ٩٠ ، ١٤٤ ،
١٤٧ ، ١٦٣ ، ١٦٦ ،
٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢١١ ،
٢١٤ ، ٢١٥
كفربطنا ٢١ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٥ ،
٥٥ ، ٨٩ ، ٩٥ ، ١٢٥ ،
١٤٥ ، ١٦٣ ، ١٨٠ ،
١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ،
٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ،
٢٢٠ ، ٢٢١
كفرسوسية ٢١ ، ٢٤ ، ٤٧ ، ٥٥ ،
٥٦ ، ٨٨ ، ١٤٤ ، ١٤٧ ،
١٦٣ ، ١٨٠ ، ٢٠٩ ،
٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٩ ،
٢٢٦
المحمدية ٢١ ، ٢٤ ، ٩٦ ، ١٠٢ ،
١٠٦ ، ٢٠٦
مديرى المزة ١٦ ، ٢١ ، ٢٥ ، ٢٧ ،

٤٦ ، ٤٧ ، ٥٦ ، ٧٥ ،
٧٩ ، ٨٨ ، ١٠١ ، ١٣٢ ،
١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٤٤ ،
١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ،
١٩٤ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ،
٢١٨ ، ٢٢١ ، ٢٠٩ ،
٢٢٥ ، ٢٥٦
مسرابا ٢٥٦
المليحة ١٩ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ،
٤٧ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٥ ،
١٢٥ ، ١٨٠ ، ٢٠٣ ،
٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٣٥ ،
٢٣٩ ، ٢٤١
يلدا ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٤٧ ،
٨٨ ، ١٢٥ ، ١٦٣ ،
١٨٠ ، ٢٢٥ ، ٢٥٤

٢ — اللغات والأديان والمذاهب

السريانية ٣١
العربية ٣١
الاسلام ٣٢
النصرانية ٢٢ ، ٣٣
اليهود ٣٣
الاسماعيلية ٣٢
التيامنة ٣٣
الحنابلة ٣٣
الشافعية ٣٣

٣ — القبائل

بنو أمية ٢٦
ثعلب ٢٠٨
الحريث ٣٢
حمير ٢٠٩
بنو حنيفة ١٣٧
خولان ٢١٠
ربيعة ٣١
آل رحال ٣٢
بنو زبيد ٣٢
السكاسك ٢٠٩
السكون ٢٠٩
آل علي ٣٢
غسان ٣١
فزارة ٢١٢

آل فضل ٣٢
قيس ٢١ ، ١٨١ ، ١٨٣
١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧
١٨٨ ، ١٩٤ ، ٢٠٨
٢٠٩ .
كلب ٢٧ ، ٣١
بنو مشجعة ١٣
نوفل ٣٢
يمن ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٥
١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٩٤
٢٠٣ ، ٢٠٩ ، ٢٢٩

٤ — الأنهار ، القني ، العيون

نهر الاشرفية ٩٣
« الاعوج ٩٣
« بانياس ٥٢ ، ٥٨ ، ٦٧ ،
٧١ ، ٧٨ ، ٩٣ ، ٩٤ .
« بردى ١١ ، ١٣ ، ١٦ ،
٦٠ ، ٦١ ، ٦٥ ،
٦٩ ، ٧٥ ، ٨٠ ، ٨١
٩٣ ، ٩٦ .
« برزه ٩٣
« البيلاني ٩٦
« التومة العليا ، والسفلى ٢٥٦
« تورة ٥٢ ، ٩٤ ، ٩٥ ،
١٦٥ ، ٢٠١ ، ٢٠٤
٢١٣ ، ٢٢٨ ، ٢٥٦
« جسرين ٢٠٥
« حردان ٣٥ ، ٢٠٨
نهر الداراني ٩٣ ، ٢٢١ ، ٢٥٦ .
« الداعياني ٩٥ ، ٨٩ ، ٢١٠ ،
٢١١ .
« الزابون ٩٦
« الزبديني ٩٦
« الزلف ٩٥ ، ٢٥٦
« الشرك ٢٥٦
« الشيلاني ٩٦
« قليط ٩٤
« القنوات ٥٢ ، ٥٨ ، ٩٣ ، ٩٤
« قينية ٢٥٦
« مجريد ٢٢٠
« المجدول ٢٥٦
« المزي ٩٣
« معربا ٩٦

نهر الملك ٩٦
« المنيحي ٨٩ ، ٩٥
« الميلقون ٢٥٦
« يزيد ٥٢ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ٧٩ ، ٩٤
٩٥ ، ١٢٣ ، ٢٢٢ .
قناة بشر ٢٥
« بيت ارانس ٢٥
« الشاغور ٢٥
« الشواقة ٩٣ ، ٩٦
قناة العصرونية ٢٥٤
« قليين ٢١٨
العوينة ٢٥٤
عوينة الحمى ٢٥٤
عوينة القصارين ٢٥٤
عين حروش ٩٦
عيون فاسريا ٩٥
عين القيجة ٦٧
عيون قلايا ٩٦

٥ — أزهار الغوطة

أزهار الغوطة ، زهر الغوطة ٤٦ ،
٥١ ، ٥٣ ، ٧٣ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤
زهر الباقلاء ٦٤
« البان ٤٦ ، ٧٣
« البنفسج ٦٤
« السفرجل ٥١
« السوسن ٨٥
شقائق ٤٦ ، ٧٨ ، ٨٢
قرنفل ٤٦
لسان الثور ٤٦
زهر اللوز ٤٦ ، ٧٧
« مقرى ٦٣
« المنثور ٧٣ ، ٧٨
« النارنج ٤٦
نرجس ٧٤ ، ٧٨
نسرين ٨٥
ورد ٤٦ ، ٦٤ ، ٧٣ ، ٧٧
ورد المزة ٤٦
ورد سطرا ٥٠

٦ — الثمار والزروع

أجلجق ٩١
آس ٩٠ ، ٩١

أنيسون ٩٠

برتقال ٨٨
البطاطا ٩٢
بطيخ أصفر ٤٨ ، ٩٠
البقول والخضروات في الصالحية ٨٩
البندق ٩١
البندورة ٩٢
البيقية ٩٠

التفاح ٤٨ ، ٩٠
التوت ٩٠ ، ٩١
التوت الأبيض ٤٨
التوت الأسود ٤٨
التوت الشامي ٩٠
التين ٩٠ ، ٩١

الجانرك ٩٠ ، ٩١
الجوز ١٧ ، ٤٣ ، ٩٠

حب الآس ٩٠ ، ٩١
الحبوب ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٤٣
الحنطة ١٨
الخوخ ٩٠ ، ٩١
الخيار ٢٠ ، ٩٠ ، ٩١

الدراق ٩٠ ، ٩١

الذرة ١٧
الرمان ٩٠ ، ٩١
الزعبوب ٩٠
الزعفران ٩١
الزيتون ١٧ ، ٤٣ ، ٨٨ ، ٨٩

السفرجل ٥١ ، ٩٠ ، ٩١
السمسم ٩٠

الصبار ٩٠ ، ٩١

عنب أبيض ٤٨
عنب أحمر ٤٨
عنب أسود ٤٨
عنب بلدي ٤٧
عنب بيتموني ٤٧
عنب زيني ٤٧ ، ٨٨
عنب داريا ٨٨
عنب دومة ٨٨

الفصة ٩٠

قراصيا ٩١
قزلجق = اجلجق
القطن ٩١
القنب ٢٠ ، ٨٩
كراز ٩١ ، ٩٢

كستناء ٩١
كمثرى ٩١

اللوز ٩٠
الليمون ٨٨

مشمش ٩٠
مشمش بلدي ٩٠
« حلو ٩٢
مشمش حوي ٩٠
« كليفورينا ٩٠
« هندي ٩٢
مشمولة ٩١
الموز ٨٨

النارنج ٥١
النخيل ٨٨

٧ — منتوجات الغوطة

أخشاب ٤٣ ، ٩٠
أعبئة حرير ٤٨

ألبان ٤٣ ، ٤٥
ألياف القنب ٤٣

الجبن ٤٣
الجلاب ٤٣
جلود ٤٣

الحبال ٤٣
الخيوط ٤٣

دبس ٤٣

الزبد ٤٣
الزيت ٤٣
السمن ٤٣
الشيرج ٤٣
صابون ٤٣ ، ٤٦
صوف ٤٣
طحينة ٤٣
العطور ٤٣ ، ٤٦
قشدة ٤٣
قماش عقربا ٤٧
قمر الدين ٤٣ ، ٩٠
ماء الورد ٤٦
النقوع ٤٣

٨ - المشافي والمصانع والمعامل

المستشفى الانكليزي ١٦٦
مستشفى السل ١٦٤
المستشفى الفرنسي ١٦٦
مستشفى القيمري ١٦٤
« الجاذيب ١٦٥ ، ٢٢٦
« المواساة ١٦٤
مأوى العجزة ١٦٥

مصنع الخزف والزجاج ١٦٥
معمل الأقفال والمفاتيح ١٦٥
معمل التبريد ١٦٦
معمل الثقاب ١٦٥
معمل الثياب ١٦٥

معمل الجلود ١٦٥
معمل الجوخ ١٦٥
معمل الدخان = معمل اللفائف
معمل رب السوس ١٦٥
معمل الزجاج = مصنع الخزف
معمل الزيوت والصابون ١٦٥
معامل السكة الحديدية ١٦٦
معمل الصابون = معمل الزيوت
معمل الكحول ١٦٥
معامل الكهرباء ١٦٦
معمل الكونسروة ١٦٥
معمل اللفائف ١٦٥
معمل شركة المغازل والمناسج ١٦٥

٩ - متنزهات الغوطة

الباسطية ٥٣
البلكي ٥١
البهنسية ٢٢٤
بيت لهيا ٥٤ ، ٦١
(وانظر فهرس القرى الدائرة)
بين النهرين ٢٥٥
تحت الطارمة ٢٥٥
التخوت ٥١

الجبهة ٥٢ ، ٥٣
جسر ابن شواس ٥٣ ، ٢٢٤
جسر الغيضة ٥١
الجنك ٥٢ ، ٥٣
الحلخال ٥٢ ، ٥٨
الخميسيات ٥٣
الدف ٥٢ ، ٥٣

دير مران ٥٠ ، ٦١
(وانظر فهرس الأديار)
الديلميات ٦٧
الربوة ٥١ ، ٥٢ ، ٥٦ ، ٧٥ ، ٨٠
(انظر فهرس القرى الدائرة)
السبعة ٢٥٥
سطرا ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٦٢ ، ٦٩ ، ٧٥
(وانظر فهرس القرى الدائرة)
السفح ٥٤ ، ٥٧
السهم ٥٤ ، ٥٧ ، ٧٣ ، ٧٨
السهان ٥٧

الشرف الاعلى ٥١ ، ٥٣ ، ٦٢
الشرفان ٥١ ، ٧٦
الشقراء ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٧٢ ، ٧٦

الصالحية ٢٥٥

العاشق ٥٢
العذول ٥٢
العنابة ٢٥٥
قطية ٥٢
المرج الاخضر ٥٣
المرجة ٥١
المعشوق ٥٢
مقرا ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٧٢ ، ٧٥
(انظر فهرس القرى الدائرة)
منيبع ٥٨
ميدانا دمشق ٥١
الميطور ٥٣

نصيب ٥١ ، ٥٧
النيربان ٦٧ ، ٦٩ ، ٢٢٤
وادي دمشق ٥٧
الوادي التحتاني ٢٥٥
الوادي الفوقاني ٢٥٥
وادي النيربين ٥٣ ، ٧٦

١٠ — القرى الدائرة ، والمزارع ، والخرائب ، والأرضون ، والفنادق

الارجام ٢٠٠
ارزونا ١٨٥ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢١١
ارزة ٢٣ ، ٥٤ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٤١ ، ٢٥٦

أرض أبان ٢٠٠
ارض التل ٢٠١
أرض التلول ٢٠١
أرض التلة ٢٠١

ارض الحامس ٢٠٨ ، ٢١٦
أرض الحرامة ٢٠١
أرض داريا ٢٥٦
أرض الدير ٢٠٩
أرض الطاقة ٢٠١
أرض عانكة ٢٣٠
ارض عتيق ٢٥٦
ارض المزرعة ٢٥٦
اشفانية ٢٠٢
الأكواخ ٢٠٢
اناكاس ٢٠٢
اوتايا ١٧
الاوزاع ٢٠٢
باقطايا ٢٥٥
بج حوران ٢٠٢
برثايا ١٢٥ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٩ ، ٢١٠
البرج ٢٥٣
بستان الناعمة ٢٥٤
بسطرا ٢٠٣ ، ٢٥٥
بيت الآبار ٢٢ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٣٩ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢٣٤ ، ٢٣٩ ، ٢٤١
بيت أبيات ٢٢ ، ٥٤ ، ٧٥ ، ١٨٥ ، ٢٠٣ ، ٢٠٧ ، ٢٢٢ ، ٢٣٢ ، ٢٤٠ ، ٢٥٣
بيت البلاط ٢٠٤ ، ٢٥٣
بيت رانس ٢٢ ، ٥٥ ، ١٤٤ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٤٣ ، ٢٥٣
بيت سابا ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٥٣
بيت قوفا ٥٥ ، ١٤٤ ، ١٨٥ ، ٢٠٤ ، ٢٥٣
بيت لهيا ٧٦ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٤١ ، ١٩٤ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٦ ، ٢٢٢ ، ٢٢٩ ، ٢٤٠
بيت ماراس ٢٠٥
بيت والي ٢٠٥ ، ٢٥٣
بيت وانة ٢٠٥ ، ٢٥٣
التل ٢٠٥
تل الاحمر ٢٠٦
تل الثعالب ٢١٤
تل الحفارة ٢٠٦
تل سوجق ٢٠٦
تل القرود ٢٠٦
تلفياثا ٥٥ ، ٢٠٥
التكة ٢١١

تل هجون ٢٠٦
تلة باب الشرقي ٢٠٦
تلة البيرة ٥٠٦
توماء ٢٠٦
الثمودية ٢٠٧
جديا ٧٨ ، ١٢٥ ، ١٤٥ ، ١٩٣ ، ٢٠٠ ، ٢٠٧
الجسورة ٢٥٦
جمرايا ٦١
جورة عطاء ٢٠٧
الجورتان ٢٠٧
الحارثية ٢٠٨
حجرا ٢٠٩
الحرجية ٢٠٨
حردان ٢٥ ، ١٢٥ ، ٢٠٨
حرلان ٢٠٨ ، ٢١٤ ، ٥٢٢ ، ٢٣٩
الحلاج ٢٠٩
حلفبلتا ٥٥ ، ٢٠٨ ، ٢١٦
حمتا ٢٠٨
الحميريون ١٤٤ ، ٢٠٩
حوارة ١٨٥ ، ٢٠٠ ، ٢٠٩
حور تعلا ٢١٠ ، ٢٢٣
الخربة ٢١٠
الخزرج ٢١٠
خولان ٢١٠ ، ٢٣٩ ، ٢٥٦
داريا الصغرى ٢١٠
داعية ١٢٥ ، ١٨٥ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢١٦
الدارة ٢٥٤
الداودية ٢٠٠ ، ٢١١ .
الدراجية ٢٥٤
دف الحجر ٢١١
دفانية ١٤٥ ، ١٨٥ ، ٢٠٠ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١
الدكة ٢١١
الدواسة ٢١١ ، ٢٥٤
الدوير ٢١١ ، ٢٣٩
الدويلعة ٢١١
الديلميات ٦٧ ، ٢١١
الديوانية ٢٠٠ ، ٢١١
راوية ٢١٢
الراهب ٢١٢ ، ٢٥٤
الربوة ٢١٢
زراعة الضحاك ٢٥٥
الزعفرانية ٢١٢
الزعيزعية ٢١٢
زملكان ٢١٢
زينون ٢٠٠ ، ٢١٠ ، ٢١٢

ساجد ٢١٢
سام ٢١٣
سبعين ٢١٣
سريتين ٢٠٠ ، ٢١٣
السطح ٢١٣
سطرا ٢١٣ ، ٢٣ ، ٦٣ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ٣٠٢ ، ٢١٠
السفليون ٢٠٠ ، ٢١٣ ، ٢١٨
سلطايا ٢٠٠ ، ٢٠٩ ، ٢١٣ ، ٢١٤
سيلون ٥٤ ، ٢١٠
شعبان ٢٠٢
الشقيري ٢١٤
الشماسية ٢١٤
الشماسيات ٢١٤
الصدف ٢٠٢ ، ٢١٤
الصفوانية ٢٠٠ ، ٢٠٩ ، ٢١٤
صنعاء دمشق ٣٢ ، ١٤٤ ، ٢١٤ ، ٢١٥
الصويطي ٢١٥
طرميس ١٤٥ ، ٢٠٠ ، ٢١٥ ، ٢١٨
الطيرة ٢١٥
الطواحين ٧٩
عالية ٢١٥
العب ٢١٦
العبادية ٢١٦
العصرونية ٢٥٤
العطارة ٢١٦
علية ٢٥٤
العمادية ٢٠٠ ، ٢١٧
العنابة ٢١٦ ، ٢٣٥
عويلية ٢١٥
العوينة ٢٥٤
غيضة السلطان ٢٥٥
فتريس ٢١٦
فدايا ١٤٤ ، ٢٠٤ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٢٥
الفراديس ٣٠٢
فطم التلة ٢١٧
فندق ابن العبادة ٢٥٣
فندق الراهب ٢٥٣
« بني عبد المطلب ٢٥٣
« « الفارقي ٢٥٣
القنيدق ٢٥٤
القابون ٢١٧
قرحنا ٢١٧

قردى ٢١٧
قرية سيدي مدرك ٢١٧
القدم ٢١٧
قصيبان ٢١٨
قطيعة ٢١٨
قلايا ١٧
قلبين ٥٥ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٧٨ ، ٢٠٠ ، ٢١٨ ،
القوينصة ٢١٨
قينية ١٤٤ ، ٢١٥ ، ٢١٨
كوكب ٢١٩
كفر مدير ٢٥٥
اللؤلؤة الكبرى ٢١٥ ، ٢١٩
لؤلؤة الصغرى ٢١٥ ، ٢١٩
الماطرون ٦٢ ، ٢٢٣
المأمونية ٢٠٠ ، ٢٢٠
مجريد ٢٢٠
المرج ٢٢٠
مرج الاشعريين ٢٠٢ ، ٢٢٠
مزرعة بيت حمادة ٢٢١
مزرعة حاروش ٢٢١
الميادين ٢٢٠ ، ٢٢١
المزة ٢٢١
مصطبة السلطان ٢٢١
المصيصة ٢٠٠ ، ٢٢٢
مقرى ٢٣ ، ٢٥ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٧١ ، ٧٥ ، ٧٩ ، ٢٠٢ ، ٢٢٢
منازل بني رعين ٢٢٢
ميدعا ٢٢٢
ميطور ٦٣ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣
الماطرون ٦٢ ، ٧١ ، ٢٢٣ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢
النحاسية ٢٢٣
نصيب ٢٢٣
النمرانية ٢٢٣
النيرب ٦٣ ، ١٤٤ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٣١
النيربان ٦٧ ، ٧١ ، ٧٦ ، ٢٢٣ ، ٢٣٤
الهلالية ٢٢٥
الواديان ٦٩ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥
وادي مكرم ٢٢٥
واسط ٢١٧ ، ٢٢٥
يعقوبا ٢٢٥

يلدان ٢٢٥
اليهودية ٢٢٥

١١ — المدارس والخوانق والزوايا

تكية السلطان سليم ١٥٩
تكية السلطان سليمان ١٥٩

الخانقاة الاسكافية ١٥٥
» الباسطية ١٥٥
» الحسامية ١٥٦
» الخاتونية ١٥٦
» الشبلية ١٥٦
» الطاحون ١٥٦
» الطواويسيه ١٥٦
» العزيه ١٥٦
» الكججانية ١٥٦
» المجاهدية ١٥٧
» الناصرية ١٥٧
» اليونسية ١٥٧

رباط التكريتي ١٥٧
رباط ابن عربي ١٥٧
رباط العقاعي ١٥٧

الزاوية الأرموية ١٥٧
» الأرموية الشرفية ١٥٧
» الحريرية ١٥٧
الزاوية الداودية ١٥٨
» الدينورية ١٥٨
» الدينورية الشيخية ١٥٨
» السيوفية ١٥٨
» العدوية ١٥٩
» العمادية ١٥٨
» الغسولية ١٥٨
» الفقاعية ١٥٨
» الفرنثية ١٥٨
» القوامية ١٥٨
» اليونسية ١٥٨

المدرسة الأتابكية ١٥٠
» الأسدية ١٥٠
» الاشرفية البرانية ٢٩، ١٤٩
» الاسعردية ١٥٠
» الاسجدية ١٥٠
» الامدية ١٥٠
» البدرية ١٥١
» البهنسية ١٥٠
» الجاموسية ١٥٣
» الجمالية ١٥١

المدرسة الحاجبية ١٥١
» الحافظية ١٥٥
» الخاتونية ١٥١
» الدلامية ١٤٨
» الركنية ١٥١
» الشبلية ١٥١
» الصابونية ١٤٩
» الصاحبة ١٠٣
» الضيائية المحمدية ١٥٤
» الضيائية المحاسنية ١٥٤
» الظاهرة البرانية ١٥٠
» العالمة ١٥٤
» العزيةالبرانية ١٥٢
المدرسة العلمية ١٥٢
» العمرية ١٥٤
» الفرخشاهية ١٥٢
» القلانسية ١٤٩، ١٥٢
» اللبودية ١٥٥
» المارداينية ١٥٢
» المعظمية ١٥٢
» المقدمية ١٥٣
» المنجكية ١٥٣
» الميطورية ١٥٣
» الناصرية ١٤٩
» النقشبندية ١٥٤

١٢ — القصور

القصور ٢٢٦
القصير ٢٢٦
القصر الأبلق ٢٢٦
قصر تنكز ٢٢٨
قصر حجاج ٢٢٨
قصر خمارويه ٢١١، ٢٣٠
قصر الدهشة ٢٢٨
قصور الربوة ٢٢٨
قصور السكسكي ٢٢٩
قصور الشرفين ٢٢٩
قصر صاري بك حسين ٢٢٩
قصر الصفوري ٢٢٩
قصر عاتكة ٢٣٠
قصر العادل ٢٣١
قصر ابن عمر ٢٣١
قصر الفقراء ٢٣١
قصر كريم الدين ٢٣٢
قصر اللباد ٢١٠، ٢٣٢

قصر المأمون والمتوكل ٢٣٣
قصور المرجة ٢١٣
قصر الملوك ٢٣٤
قصر منجك ٢٣٤،٥٣
قصر يزيد ٢٣٤
جوسق الريس ٢٣١
جوسق العادل ٢٣١
جوسق ابن الفراش ٢٣١

١٣ — الأديار والكنائس

دير البالسي ٥٦
« بجدل ٢٣٦
« بشر ٢٣٦،٢٥٠ ، ٢٣٧
« بطرس ٢٣٧
« البقر ٢٣٧
« ابن أبي أوفى ٢٣٦
« ابن عصرون ٢٣٩
« بولس ٢٣٧ ، ٢٣٨
« تاودورس ٢٥٧
« حرملة ٢٣٧
« الحكيم ٢٣٢ ، ٢٣٨
« الحميري ٢٣٨
« الحنابلة ٢٣٨
« حنينا ٢٣٨ ، ٢٤٣
« الحوراني ٢٣٨
« خالد ٢٣٧
« خليل ٢٠٣ ، ٢٣٩
دير داريا ٢٣٩
« الرهبان ٢٣٨
« سابر ٢٣٩
« السائحة ٢٣٨
« سمعان ٢٣٩
« صليبا ٢٣٨
« العصافير ٥٦
« قانون ٦٢
« قيس ٢٤٠
« اللباد ٢٤٠
« مار الياس ٢٤٠
« الماطرون ٢٤٠ ٢٤١
« منى ٢٤٣
« محمد ٢٤١
« مران ٥٠،٦١،٦٢،٦٣،١٦١
١٨٧ ، ٢٣٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣

دير النواطير ٥٦ ، ٢٤٣
« هند ٢٠٣ ، ٢١٣ ، ٢٤٣
دير يتة ٢٤٣
« يونا ٢٤٣ ، ٢٤٤

١٤ — الأعلام

أبان بن مروان ٢٠٠
ابراهيم باشا ١٠٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨
ابراهيم بن غنائم ٢٢٧
ابراهيم الكججاني ١٥٦
ابراهيم بن مبارك شاه الأسعردي ١٥٠
١٥٦ ، ٢٢٨
ابراهيم بن الوليد المخلوع ٢٣٠
ابن الأثير ١٢٨
ابن اسكاف = علي بن عبد الرحمن
ابن اياس ١٩
ابن أبي أوفى ٢٣٦
ابن أبي حُصينة ٩٤
ابن أبي سرح = عبد الرحمن
ابن أبي العجايز ٣
ابن بيبرس ١٨٧
ابن تغري بردي ٢٣٠ ، ٢٣١
ابن تميم ٥١
ابن ثعلبة ١٣٦
ابن جبير ٢١٥
ابن جماعة ٢٢٨
ابن الجوزي ١٣٣ ، ٢٠٢
ابن حبيب ٢٣٠
ابن الحرستاني ١٤٢
ابن حمدان ، أبو المطاع
ابن حمدان = سيف الدولة
ابن حمدان = وجيه الدولة
ابن حيّوس ٥٠
ابن خداويردي ٢٢٣
ابن خطيب داريا ٤٩
ابن خلكان ٤ ، ٢٠٢
ابن الخياط ٩٤ ، ٢٢٠
ابن الداية = بدر الدين
ابن دراج = عبد الله
ابن دلامة ١٤٩
ابن الدهان ٧٢
ابن راشد الحولاني ١٣٦
ابن رباب المعقلي ٣١
ابن الساعاتي ١٢ ، ٥٠ ، ٥٧ ، ٢٢٤
ابن شاكر ٢١٩ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٨
ابن شداد ١٩ ، ٢٠
ابن شواس ٥٣ ، ٢٢٤
ابن الصايغ ٧٥

ابن الصمصامة ٢٠٤
ابن طولون ٤ ، ١٤ ، ١٥ ، ٢٠ ، ٣٣ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢١١ ، ٢١١ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨
ابن عباد ٢١٥
ابن عبد الرزاق ٢٣١
ابن عبد الهادي ٤ ، ٩٥ ، ١٦٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٨ ، ٢١١
ابن العديم ٧٠
ابن عربي ١٥٧ ، ١٦٤
ابن عساكر ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٤٠ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦
ابن عصرون ٢٣٩
ابن العماد ٤ ، ١٤٢ ، ٢٠٢
ابن عنين ١١ ، ٦٦ ، ٢١١
ابن الفراش ٢٢٢ ، ٢٣١
ابن فضل الله ٤ ، ٦٧ ، ٢٢٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٤
ابن قاضي شهبة ١٥٠ ، ٢٢٨
ابن قتيبة ٢٣٧
ابن القلانسي ٤ ، ٢١٦ ، ٢٣٧
ابن قوام = أبو بكر
ابن قيس الرقيات ٢٧
ابن القيسراني ٢١٧
ابن كثير ٢٨ ، ١٣٥
ابن كنان ٢٣٨
ابن لؤلؤ الذهبي ٢٢٤
ابن مرة ١٣٧
ابن المنجا ٢٣ ، ٢٠٥ ، ٢١٣
ابن المقدم = شمس الدين
ابن منقذ ٦٤
ابن منير الطرابلسي ١٢ ، ٦١
ابن المهنا ٣
ابن النشو ٢٢٨
ابن يغمور ١٥٣
ابو أدريس الخولاني ١٣٥ ، ١٣٦
ابو البقاء الصفوري ٢٢٩
ابو بكر الدينوري ١٥٨
ابو بكر الصديق ١٥٨
ابو بكر بن قوام ١٥٨
ابو تمام ٧١
ابو جعفر المنصور ١٣٢
ابو الدرداء ١٣١
ابو سليمان الداراني ١٣٥ ، ١٣٧
ابو شامة ٤ ، ٢٣١
ابو عبيدة بن الجراح ٩٩ ، ١١١ ، ٢٣٧
ابو العميطر ١٨٦
ابو قلابة الجرمي ١٣٧
ابو كثير المحاربي ١٣٧

ابو مسلم الخولاني ١٣٧ ، ٢١٠
ابو المطاع ابن حمدان ١١
ابو المغيث ١٨٧
ابو نواس ١١ ، ٧٠
ابو الهيذام ١٣٢ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ٢٠٣ ، ٢١٨ ، ٢٥٦
ابو الورد ١٨٥
ابي ١٩ بن كعب
احمد حمدي الخياط ٩٨
احمد بن سليمان الصابوني ١٤٩
احمد شوقي ٨٠
احمد بن هارون ١٢٦
الاخطل ٦٦
اخو ابي الهيذام ١٨٥
ادريس بن ادريس ١٣٧
الاربلي = مجد الدين
الارموي = عبد الله بن يونس
الازهري ١٥
اسد الدين شيركوه ١٠٥
الاسدي ١١٦
اسعد افندي ١٠٥
الاسعردي = ابراهيم
اسماعيل المحاسني ١٩١
الاسود بن بلال ١٣٦ ، ١٣٧
اسود بن اصرم ١٣٦
الاعور الكلبي ١٠١
الاكرمي ١١٤
آل سرسق ١٠٦
آل الصواف ٢٠٤
آل مردم بك ٢٢٠
ام الحجاج بن عبد الملك ٢٢٨
الأمجد = بهرام شاه
امة اللطيف بنت الناصح ١٥٤
ام مسلم الخولانية ١٣٧
الاوزاعي ٢٠٢
ايدمر الظاهري ١٥٦
اينال الحاجب ١٥١
البيغاء الشاعر = عبد الواحد
البحتري ٤٩ ، ٦٠
بدر الدين ابن الداية ١٥١
بدر العطار ١٢٦
البدري ٤٧ ، ٥١ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٢٢٤ ، ٢٣٤
بشر بن مروان ٢٣٦
بطرس ٢٣٧
بكر بن زرعة ١٣٧
البكري ١٥ ، ٢٤١
البكري الصابوني = احمد بن سليمان
البلاذري ١٣
بلال الحبشي ١٣٥ ، ١٣٦

بلال بن أبي الدرداء ١٣٥ ، ١٣٦
بلال بن سعد ٢٠٣
بنت معين الدين خاتون ١٥٦
بنت الناصح الحنبلي = أمة اللطيف
بنو المؤيد ١٥٢
بهرام شاه ١٥٠
بولس ٢٣٧
بيبرس ، الملك الظاهر ١٠٤ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٢٧
بيت حماده ٢٢١

التاج السبكي ١١٦
التاج الكندي ٢٣١
التكريتي ، تقي الدين ١٤٩
التكريتي = محمد بن علي
التلمساني = شهاب الدين
تميم بن عطية ١٣٧
تنكز ٢٢٨ ، ٢٣٩ ، ٢٥٥
التنوخي الصوري = عبد الرحيم بن المحسن
توفيق بن محمد النحوي ٥٠
توما ٢٠٧
تيمورلنك ١٩٤ ، ٢٢٧

ثابت بن سعيد المحاربي ١٣٦ ، ١٣٧
جرجة بن قمره ١٢٣
الجرمي = أبو قلابة
جرير ٢٠٥ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨
الجلياني = عبد المنعم
جيش ١٨٨

حافظ ابراهيم ١٣٠
الحجاج بن عبد الملك ٢٢٨
الحجاج بن يوسف ٢٢٨
الحراني = بن بصل
حرملة بن الوليد ٢٣٧
حرملة ، الشيخ ٢١٥
الحريري = علي
حسان بن ثابت ١٣ ، ٥٩
حسين صاري بك ٢٢٩
الحسين بن عمار ١٢٣
حظ الخير ، خاتون ١٥٢
حفص بن عمر ١٠١
حكم بن عبد الله ٢١٨
حكمة شيخ الارض ١٠٦
الحلبي = عون الدين
حمدون السلمي ١٨٥
حمزة بن اسد ابن القلانسي ١٤٩
حمزة بن القاسم ٢٤١
حمزة بن محمد ١٥٥
الحميري ٢٣٨
حنينا ٢٣٨ ، ٢٤٣

حيدرة الكتامي ١٨٩

خالد بن سعيد ٢٤٠
خالد بن الوليد ١٣ ، ١٤ ، ٣١ ، ١٠٠ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨
خالد بن يزيد ٢١٤
الخصيب ٧٠
خضر الايوبي ، الظاهر ٢٣١
خضر العدوي ١٥٩
خطلجة بنت ابراهيم ٢٢
الخطيب = فؤاد
خطيب بيت الآبار ١٣٩
خطيب جامع بني امية ١٣٩
خلف بن محمد ١٢٦
خليل مردم بك ٨١
خمارويه ٤٩ ، ٥٠ ، ٢١١ ، ٢٣٠
الخوارزمي ٥٩
الخولاني = ابن رشد
" = ابو ادريس
" = عمر بن عبد الله
الخياط = أحمد حمدي
الداراني = ابو سليمان
" = سليمان بن حبيب
درافيو ٣٣
داود بن مروان بن الحكم ٢١١
دقاق = الملك
دهمان = محمد
دوسّو ١٥ ، ٢٠٥
الدوجي ٢٥٥
الدينوري = ابو بكر
" = عمر بن عبد الملك
" = محمد بن عمر
ديوقلطيانوس ٢٠٥

الذهبي ٤ ، ١٤٣

الراعي ٥١ ، ٥٣
الرافعي = ابو المغيث
ربيعة خاتون ١٥٣
رجاء بن أيوب ١٨٧
الرجيحي = سيف الدين
رشأ بن نظيف ١٤٨
الرشيد ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٨٥
رشيد بن التابلسي ١١
ركن الدين منكورس ١٥١
ركن الدين الوهراني ١٤٣
روح بن زنباع ١٠٢

زمرد خاتون ١٥١
زنكي أبو نور الدين ١٥٤ ، ١٩٢ ، ١٩٣

زوجة الملك الاشرف ١٥٠
سالم بن عبد الله ١٣٥ ، ١٣٧
سبرة بن فاتك ١٠٩
سبط بن الجوزي ١٣٩ ، ١٤١
السبكي = التاج
سعد بن تميم ٢٠٣
سعيد بن ابي سفيان ٢١٤
سعيد بن عبد الملك ٢١٢ ، ٢٥٤
سعيد بن عكرمة ١٣٦ ، ١٣٧
سعيد بن يزيد ١٣٧
سلمة بن علي البلاطي ١٤٤
سليم خان ١٥٧
سليمان بن حبيب الداراني ١٣٥، ١٣٦
١٢٧
سليمان بن داود ١٣٧
سليمان بن ابي سليمان ١٣٨
سليمان بن عبد الملك ١٢٣ ، ٢٣٠
سليمان بن عتبة ١٣٧
سليمان المحاسني ١٩١
السمعاني ١٣٤
السميساطي ٣
سيف الدولة بن حمدان ١٠٤ ، ١٢٨
سيف الدين الرجيحي ٢٣٧ ، ٢٤٣
سيف الدين منجك ١٥٢
الشاغوري = فتيان
شاهنشاه بن أيوب ١٥٢
شبل الدولة كافور ١٥١ ، ١٥٦
شرف الدين ابن عثمان ١٥٧
شمس الدين بن عطا ١٢٧
شمس الدين ابن المقدم ١٠٢ ، ١٥٢
شهاب الدين التلمساني ١٢٥
الشواء الحلبي ٥٤
شيخ الربوة ٤ ، ١٩ ، ٢٦ ، ٤٦ ، ٧٧
شيركوه = أسد الدين
صاحب جهان نما ٢٢٣
صاحب الدارس ١٤١ ، ١٢٥
وانظر النعيمي
صاحب الفرج بعد الشدة ١٢٤
صاحب القاموس ٢١٨
صاحب نزهة المشتاق ٢١٩
الصرخدي = تاج الدين
الصفي بن القابض ٢٣٢
صلاح الدين الايوبي = يوسف بن ايوب
صلاح الدين المنجد ٢٠٠ ، ٢٠٧، ٢١٦
٢٥٥ ، ٢٥٨
الصنوبري ٦١ ، ٢٤٢
الضحاك بن رمل ٢٥٥
الضحاك بن يزيد ٢٥٥

الطرابلسي = ابن منير
طغتكين ١١٢ ، ١٩٢

ظالم بن موهب ١٨٨
الظاهري ٤ ، ٢٠ ، ٢٥٤

عاتكة بنت يزيد ٢٣٠
عامر بن الحصين ٣١
عامر بن شراحيل ١٣٧
عائذ بن عبد الله ١٣٥ ، ١٣٦
عبد الباسط بن خليل ١٥٥
عبد الجبار بن عبد الله الخولاني ١٣١
عبد الرحمن بن احمد ١٣٧
عبد الرحمن الجُرشي ١٣٢
عبد الرحمن بن ابي بكر بن داود ١٥٨
عبد الرحمن بن خطيب داريا ٢٤٠
عبد الرحمن بن ابي سرح ٢٠٧
عبد الرحمن بن ابي سفيان ٢١٣
عبد الرحمن بن سليمان ١٣٧
عبد الرحمن العمادي ١٣٥ ، ١٣٦
عبد الرحمن بن ابي كبيرة ١٣٧
عبد الرحمن بن يزيد ١٣٥ ، ١٣٦
١٣٧
عبد الرحيم بن صالح ١٣٨
عبد الرحيم بن المحسن التنوخي ٦٩
عبد العزيز بن عبد الرحمن بن الوليد ١٢٣،
٢٢٢ ، ٢٣٤
عبد العزيز بن هاشم ١٢٦
عبد الغني النابلسي ٢٥٧
عبد القادر قويدر ١٤٧
عبد الله بن الحصين ١٢٣
عبد الله بن يزيد ١٣٥
عبد الله بن سلمة ٢٥٣
عبد الله بن عبد الرحمن ١٢٣ ، ١٣٧
عبد الله بن علي ١٣٢
عبد الله المقدسي ١٤٩
عبد الله المنجد ١٤٧
عبد الله بن يوسف الارموي ١٥٧
عبد الملك بن مروان ٩٤ ، ١٠١ ،
١٣٦ ، ١٨٤ ،
٢٠٠ ، ٢٢٨ ،
٢٢٩ ، ٢٣٠
عبد المنعم الجلياني ٧٩
عبد الواحد البيغا ٢٤٢
عبد الواحد بن محمد ١٢٦
عتبة بن معاوية ٢٣٩
عثمان بن عبد الاعلى ١٣٧
العربيني = القطب
عرقلة بن جابر ٦٨، ٧١، ٢٢٢، ٢٢٣
عز الدين ايبك ١٥٢
عز الدين بن عبد السلام ١١٣ ، ١١٤
العطار = بدر

العطار = محمود
عطية بن سعيد ١٣٦

علم الدين سنجر ١٥٢
علي الحريري ١٥٧
علي بن داود ١٣٨
علي بن عبد الرحمن ١٥٥
علي الفرغني ١٥٨
العماد الكاتب ٦٣
العمادي = عبد الرحمن
عمر بن الخطاب ٢٧، ٢٨، ٩٩،
١٠٠، ١١١، ١٢٧، ١٣١
عمر بن عبد العزيز ١٠٩، ١٣٥،
١٣٦، ٢٤١
عمر بن عبد الله الحولاني ١٣٦
عمر بن عبد الملك الدينوري ١٥٨
عمرو بن الاسود ١٣٧
عمرو بن خير ١٣٧
عمرو بن سعيد الاشدق ١٨٤
عمرو بن شراحيل ١٣٧
عمرو بن عبد ١٣٧
عمر بن محلاة ٢٥٥
العمري = ابن فضل الله
عمير بن هانيء ١٣٥، ١٣٧
عين البصل الحرّاني ٧٣
عيسى بن مهنا ٣٢

غازان ١٩٤
غازي، الملك الظاهر ١٥٠

الغسولي = محمد بن ابي الزهر
غيلان الدمشقي ١٣٨

الفرغني = علي
فروخشاه بن شاهنشاه ٢٢، ١٥٢
الفقاعي ١٥٣
فؤاد الخطيب ٨٤
الفيروز آبادي ٢١، ٢٢

القاسم بن زياد ٩٤
القاسم بن هران ١٣٧
القاضي الفاضل ٢٢
قبيصة بن ذؤيب ١٠٢
القرماني ٤، ٢٢٢، ٢٣٩
القزويني ١٤
قسام الحارثي ١٨٩
قسطنطينوس ٢٠٥
القطب العربيني ١٤٢
قلاوون، الملك الاشرف ١٩٥
قنصل انكلترة بدمشق ١١٨، ١٩٨
القيراطي ٥٧٠
قيس الهلالي ١٨٦
القيسري ١٦٤
كافور = شبل الدولة

الكججاني = ابراهيم
كشاجم ٢٤١
كشلين ٢١٩
كعب بن حامد ١٣٧
كلثوم بن زياد ١٣٧
كمشتكين ٢١٩
كناز الغنوي ٢٠٤
الكناني = ابن منقذ
كيوان ١٠٥
اللبودي = يحيى

المأمون ٢٨، ١٦٠، ٢١٤،
٢٣٣، ٢٤٢
المتوكل ٦٠، ٢٣٣
متى ٢٤٣
مجد الدين الاربلي ٧٣
المحاربي = ابو كثير
محاسن، ضياء الدين ١٥٤
المحبي ١٢، ١٣٢
محمد بن ابي الزهر الغسولي ١٥٨
محمد بن ابي طالب ١٤٣
محمد بن ابي يعلى ١٨٨
محمد بهجة البيطار ١٤٧
محمد بن الحجاج ١٣٧
محمد بن خالد ١٢٦
محمد دهمان ١٤٧، ٢٠٢، ٢١٥،
٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠،
٢٢٢، ٢٣٢، ٢٥٦
محمد بن عبد الرحيم ١٢٣
محمد بن عبد الواحد ١٥٤
محمد عبده ١٤٦
محمد علي باشا ١١٨، ١٩٧
محمد بن علي التكريتي ١٥٧
محمد بن عمر الدينوري ١٤٣
محمد بن عمرو السكسكي ٢٢٩
محمد بن قلاوون ١٥٢
محمود بن زنكي ١٠٤، ١١٢، ١٤٠،
١٥٠، ١٥١، ١٥٦
١٩٢، ٢٣١
محمود العطار ١٤٧
مدوك بن زياد ٢١٣، ٢١٧

مراد المرادي ١٥٤
المرادي = مراد
مروان بن الحكم ١٨٤، ٢٣٠
مروان بن محمد ١٨٤

المزّي، الحافظ ١٤٢
المسعودي ١٣٨، ٢٣٣
مسلم بن هبة الله ٦٥
مسلمة العدل ١٣٧
مشجعة بن التيم ١٤
مضر بن العلاء ٢١٧

معاوية بن ابي سفيان ١٢٩ ، ١٨٥
٢٢٣ ، ٢٣٠
معاوية بن طويع ١٣٧
معاوية بن يزيد ٢٣٠
معيوف ١٨٥ ، ٢٠١
المقدسي = عبد الله
المقدسي = محمد بن عبد الواحد
مكسيانوس ٢٠٥
منارة ١٢٤
المنجد = صلاح الدين
المنجد = عبد الله
منجك الابن ٥٣
منجك الاب ٥٣ ، ٥٨ ، ٢٣٤
منجك = سيف الدين
المنصور العباسي ١١٢
منكورس = ركن الدين
الموصلي = ابن الدهان

النابغة ١٤ ، ٢٨
النجار ١٩٦
النعمان بن المنذر ١٣٧
النعيمي ٢٠٢
نمران بن يزيد ٢٢٣
النواجي ١٦٢
النووي ١١٥

هشام بن عبد الملك ١٣٥ ، ٢٣٠
الهلالي = قيس
هند ٢٤٣

الواثق ١٨٧ ، ٢٤٢
الواساني ٦١
الوداعي ٥٢ ، ١٩٥
الوليد بن أبان ٢١٨
الوليد بن عبد الملك ٢٣٠ ، ٢٣٧
الوليد بن يزيد ١١٨ ، ٢٣٠ ، ٢٤٤
ياقوت ٣ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ٢٢ ،
٦٢ ، ٦٣ ، ٦٨ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨
٢١٦ ، ٢٢٣ ، ٢٣٠
يحيى بن حمزة ١٤١
يحيى ابن البودي ١٥٥
يزيد بن أسلم ١٢٣
يزيد بن أبي سفيان ٩٤ ، ١٣١ ، ٢٠٧
يزيد بن خالد القسري ١٨٤
يزيد بن عبد الملك ٢٣٠
يزيد بن معاوية ٦٢ ، ٦٤ ، ١٢٣ ،
١٣٥ ، ٢٣٠ ، ٢٣٤ ،
٢٣٦ ، ٢٤٠
يزيد بن الوليد بن عبد الملك ١٣٨ ، ٢٣٠
يزيد بن يزيد ١٣٧

اليعقوبي ٣١
اليلداني ١٤٢

يثة ٢٤٣
يوسف بن أيوب ٢٢ ، ٦٣ ، ٧٠ ، ١٠٢ ،
١٠٥ ، ١١٢ ، ١٣٨ ،
١٤٠ ، ١٥٣ ، ١٩٢ ،
١٩٣ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ،
٢٣٢
يوسف ابن الملك العزيز الايوبي
١٤٩ ، ١٥٧
يونا ، يوحنا ٢٤٣ ، ٢٤٤
يونس الدوادار ١٥٧
يونس بن يوسف القنى ١٥٨

فهرست عام

كتاب الغوطة	:		٣
مصادر الكتاب	:		٦
الفصل الاول	:	حدود الغوطة	١١
الفصل الثاني	:	بساتين الغوطة وقراها	١٩
الفصل الثالث	:	ميزات الغوطة وخصائصها	٢٦
الفصل الرابع	:	سكان الغوطة وأديانها	٣١
الفصل الخامس	:	الفصيح في كلام الغوطة	٣٤
الفصل السادس	:	الطرائق الزراعية في الغوطة	٤٢
الفصل السابع	:	متنزهات الغوطة	٤٩
الفصل الثامن	:	وصف الغوطة	٥٩
الفصل التاسع	:	ثمار الغوطة وزروعها	٨٨
الفصل العاشر	:	أنهار الغوطة وريها	٩٣
الفصل الحادي عشر	:	تمليك الارض	٩٩
الفصل الثاني عشر	:	الجباية والاموال	١١٠
الفصل الثالث عشر	:	الحكم والادارة	١٢٢
الفصل الرابع عشر	:	العلم والادب	١٣١
الفصل الخامس عشر	:	المدارس والخوانق والربط والزوايا	١٤٨
الفصل السادس عشر	:	مدنية الغوطة	١٦٠
الفصل السابع عشر	:	الاخلاق والعادات	١٦٩
الفصل الثامن عشر	:	عوامل الخراب	١٨١

الفصل التاسع عشر	:	القرى الدائرة	١٩٩
الفصل العشرون	:	القصور والجواسق الدائرة	٢٢٦
الفصل الحادي والعشرون	:	الديورة الدائرة	٢٣٦
الفصل الثاني والعشرون	:	وحي الغوطة	٢٥٣
مستدركات	:		٢٥٨
خاتمة	:		٢٥٩
الفهارس	:		٢٩٠
تصويبات	:		

تصويبات

ص ١٦ س ٤ تسقها – تسقيها .
« ٢٠ « ١٦ البويضة من قرى الغوطة لا المرج .
« ٢٠ « ١٨ البرية – الابرشية .
« ٢٣ « ٢ أضف قرية سقبا
« ٢٣ « ٦ عين ترما ، عين ترمى – عين ثرماء ، عين ثرمي .
« ٣٢ « ٧ آل رحال
« ٥٥ « ٩ منتزهين من منتزهات – متنزهين من متنزهات .
« ٦٣ « ١ بالحذقونة – بالحذقدونة . وفي س ١٢ قلبي – قلب وفي س ١٥ الحذقونة – الحذقدونة .
« ٧٠ « ١٦ والغيطتين — والغيضتين
« ٧٨ « ٦ بالمنبع – بالمنيبع
« ٧٩ « ١٤ اجتبوا – اخبتوا
« ١٠١ « ١٥ و ١٦ ضنيعة – ضَيْعة . الصنيعة – الضيعة .
« ١٠٣ « ١٠ صنعه – وضعه
« ١٠٨ « ١ واحيى – واحيا و س ١٠ الايوبيين – الامويين و ١٨ بحيف الظلم – بحيق الظلم .
« ١١٢ « ٢ عما قرب – مما قرب و ٤ ومما – وما .
« ١١٥ « ٥ للملوك الشراكسة – لملوك الشراكسة .
« ١٢٧ « ٣ قراه – قرى .
« ١٢٨ « ٥ و ٩ افحمت عبارة ابن الاثير هنا وقد جاء معناها في ص١٠٤ س ٤ و ٥ و ٦ .

ص ١٣٩ س ٩ تعني – تعنى .
« ١٤١ « ١١ يرمي – يرمى .
« ١٥٨ « ٩ تحذف « ابن العماد » .
« ١٥٨ « ١٦ القي – القنيي .
« ١٦٠ « ١٠ الى معسكره – من منين الى معسكره .
« ١٦٧ « ١ ابداع من ابداع
« ١٧٨ « ١٧ اعتقد صلاح – اعتقد الغوطي صلاح
« ١٩٣ « ٥ ساد العدل – ساد السلام .
« ٢٠٢ « الاوزاع – الصدف قرب مقبرة الدحداح وراء الدور أو وراء بستان الدور .
« ٢٠٤ « ١٨ يغترون – يعثرون .
« ٢٠٧ « ١ حراجيحا – حراجيج
« ٢١٠ « ٤ حرّ ثعلة – حرثعلة .
« ٢٢٢ « مقرى حقق دهمان موقعها : شرقي طاحونة الاشنان شمالي بيت ابيات .
« ٢٣٧ « ٨ دير الوليد — دير خالد بن الوليد
« ٢٤٠ « ٦ اسقني الكأس – اسقني الصهباء .
« ٢٤٩ « ٨ العره – القُره
« ٢٥١ « ١ رَيْع – رَبع
« ٢٥٥ « ١٢ مستلئم – مستلئم
« ٢٥٥ « ٩ مؤآزرا – مؤزرا